الجمهورية الإسلامية الموريتانية
وزارة الثقافة والصناعة التقليدية
والعلاقات مع البرلمان

سلسلة دراسات تاريخية (١)

البروفيسور محمدُّو أمينَّ

مدخل إلى تاريخ البداوة

(عناصر من الثقافة الحسانية)

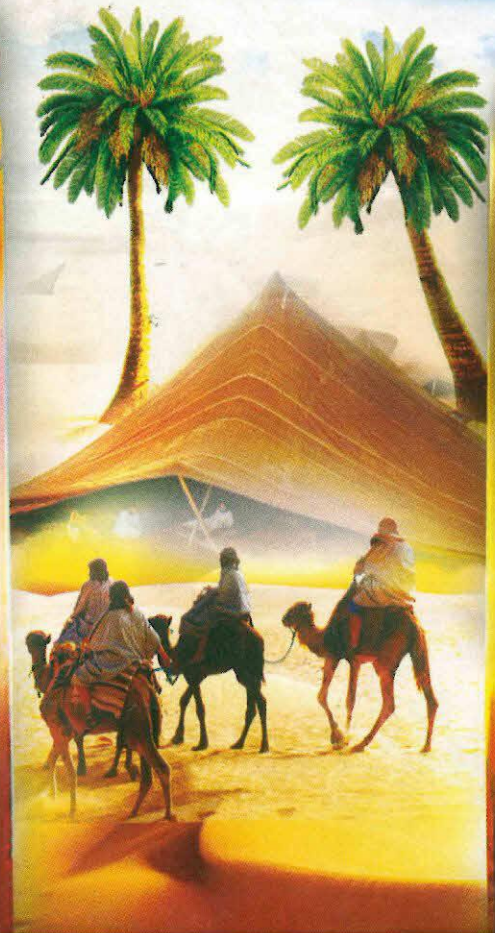

تقديم البروفيسور

عبد الودود ولد الشيخ

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

مدخل إلى
تاريخ البداوة

الجمهورية الإسلامية الموريتانية
وزارة الثقافة والصناعة التقليدية
والعلاقات مع البرلمان

محفوظة جميع الحقوق

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHARAN DIGITAL LIBRARY

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية بالجمهورية
الإسلامية الموريتانية: (2018/1964)

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-2-37700-115-6

الطبعة الأولى

1440هـ/2018م

البروفيسور محمدُّو أميَّن

مدخل إلى تاريخ البداوة

(عناصر من الثقافة الحسانية)

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

تقديم البروفيسور

عبد الودود ولد الشيخ

إهـداء

إلى روح فقيد البحث التاريخي الرصين وأستاذ الأجيال المرحوم محمد ولد مولود ولد داداه أهدي هذا العمل ثمرةً لغرسة طالمًا رعاها وسقاها من علمه الغزير ومنهجه القويم.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

إسداء شكر

لا يسعنا ونحن نضع اللمسات الأخيرة على هذا العمل قبل تقديمه للنشر إلا أن نسدي جزيل الشكر ووافر العرفان لكل مَن ساهم في إنجازه من مؤسسات وأفراد لولا دعمهم وعنايتهم لما كتب له أن يرى النور.

كما نعبر عن امتناننا الخاص للعون والتعاون الذي لاقيناه عند الأساتذة الأجلاء والإخوة الفضلاء: الخليل النحوي، عبد الودود ولد الشيخ، أوليركه فريتاغ (Ulruk Freitag)، محمد هيبتنا سيدي هيبه محمد محمود ودادي، أولرش ريبشتوك (Ulrich Rebstock)، عبد الودود ولد عبد الله، غزلان لايدن (Ghislaine Lydon) البكاي عبد المالك، نيو كان آدما، محمد عبد الحي، محمد المختار السعد، سيدي عبد الله المحبوبي، محمد بباه ناصر، الناني بن الحسين، محمد المختار سيدي محمد، بريتا فريده (Britta Frede)، أحمد سالم بن محمدو، سيد أحمد ولد ابن، نورا لافي (Nora Lafi)، عبد الله أحمد الهادي، أحمدو سالم محمد يحظيه، محمد الأمين عبد الوهاب، سيلفان فوركاسي (Sylvain Fourcassié)، ببكر محمد باب، محمد فال بن حامد، أرن باتريو (Erin Pettigrew)، محمد ولد الميداح (دمب)، أحمدو حبيب الله، محمد الأمجد أبات، جمال كابر، محمد عبد الله زيدان، أحمد محمد بابه أشدو، فرانسوا برترانه (François Bertrand)، الشيخ عبد بن الشيخ.

والشكر موصول لمؤسسات مدّت إلينا يد العون أثناء تحضير العمل نذكر منها:

- وزارة الثقافة والصناعة التقليدية والسياحة التي شرفتنا بنشر هذا العمل،
- مركز الشرق الحديث (ZMO) ببرلين (ألمانيا) الذي وفر لنا إقامة ملائمة في برلين خلال شهر يونيو 2017 للتفرغ لإكمال هذا العمل ووضع اللمسات الأخيرة عليه،

- التعاون الفرنسي الذي مكننا من البحث في مراكز التوثيق الفرنسية بباريس وأكس-آن-بروفانس (فرنسا) خلال شهريْ أغسطس وسبتمبر 2014،
- عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط العصرية،
- إدارة وعمال مركز أرشيف ما وراء البحار بمدينة أكس-آن-بروفانص (فرنسا)،
- إدارة وعمال الأرشيف السنغالي بداكار (السنغال)،
- إدارة وعمال المكتبة الوطنية، نواكشوط،
- إدارة وعمال دار الكتب الوطنية بتونس،
- مركز الدراسات والبحوث حول الغرب الصحراوي بنواكشوط.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

التقديم

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

التقديم

بقلم البروفيسور عبد الودود ولد الشيخ

يبدو أن بناء معرفة تاريخية يراد لها أن تكون علمية فعلا، معرفةٍ تاريخية تأخذ المسافة اللازمة من ذاكرة المؤرخ المرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالحه المادية والرمزية، يبدو إذن، أن بناء تلك المعرفة يجب أن يمرّ بنوع من نزع الأبهة والتفخيم وعدم شخصنة التاريخ ليعتمد نظرةً أكثر شمولية ودقة في تناول القضايا التي يتعين على المؤرخ معالجتها خاصة إذا تعلق الأمر بمجال ما يزال فيه الحقل المهني للتاريخ يعاني -في غياب مؤسسات مهنية وسوق لاستهلاك المنتوج الفردي- من المنافسة القوية التي يمارسها الهواة من جميع الأصناف مستغلين انخفاض "رسوم الولوج" في حقل التاريخ (بعبارة أتباع بورديي Bourdieu)، وهي رسوم أرخص بدرجة لا حدود لها من تلك التي تخول الحصول الشرعي على لقب رياضياتي أو كيميائي.

وفي سوق من هذا الصنف غير محدد المعالم، ربما يكمن خلاص المؤرخين في العدول عن التصور الهيجلي للتاريخ –الذي بمقتضاه يصف هيجل (Hegel) نابليون المنتصرَ في معركة إينا (Iéna) سنة 1806 بأنه "روح العالم يمتطي فرسا"- إلى رؤية بروديل (Braudel) ضمن أطروحته المشهورة حين اختار "بطلَه" مجسدًا في البحر الأبيض المتوسط وعالمه.

وقد يكون من المفيد أن تُصاحب اقتراحَ "نزع الصفة البطولية" هذا الدعوةُ إلى مضاعفة الاعتماد على المجسمات التوضيحية والمعطيات الواقعية والكمية للخروج من الضبابية التي كثيرا ما تُغلف برونق أدبي جميل كالذي يقوم به غالبًا، الهواة المتطفلون عندما يمجدون "أبطالا" يحلو لهم تكريمهم وفقا للظروف السياسية السائدة.

ويتبيّن لنا أن كتاب محمدو أمين "**مدخل إلى تاريخ البداوة (عناصر من**

الثقافة الحسانية)" الذي نحن بصدد الحديث عنه الآن يندرج تماما في إطار هذا "التاريخ المهني" الذي ما تزال موريتانيا تنتظر أن يصلب عودُه وتتحقق استقلاليتُه.

وبالتأكيد، فإن محمدو أمين لم يختر مواضيع عديمة الدلالة لديه، غير أن **التاريخ الثقافي** الذي تتموقع فيه الفصول التي يقدمها هنا، بحكم طبيعة موضوعاته ووتيرة الحركة الزمنية البطيئة التي قد يتطلبها تشكل وتحول هذه المواضيع، بعيدا عن ضجيج وسخونة "الأيام" و"المعارك" وعن التنافس بين النبلاء للإعلاء من شأن الحسب أو النسب بالانتماء إلى أصل "بطولي"؛ غير أن هذا التاريخ الثقافي يتطلب إذن، معالجة رزينة وأقل عرضة للإغراءات الملحمية التي تلازم سِيَر القديسين المنمقة لدى من تعودوا على إصدار أحكام جازمة تتعلق بالتاريخ.

إن فصول هذا الكتاب السبعة مع الملحقات والمجهود الواضح في التصنيف الذي رافقها تشكل مساهمة جيدة في كتابة التاريخ الثقافي للمجال الموريتاني والمناطق المجاورة له. وهي لعمري مساهمة تتنزل يقينا -بفضل سعيها لتوخي الوضوح- في إطار البحث الجاد والملتزم دون أن تنسى الالتفات إلى القيم الإيجابية مثل التسامح والانفتاح في هذه الأزمنة التي تطبعها مخاطر الانغلاق والتزمت الديني والطائفي.

البروفيسور عبد الودود ولد الشيخ

المقدمة العامة

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

المقدمة العامة

يسرنا أن نضع بين أيدي الباحثين والقراء دراسة تتعلق ببعض مظاهر وتجليات التاريخ الثقافي البيضاني علّها تسهم في نفض الغبار عن جوانب من هذا التراث التاريخي.

العنوان الذي اخترناه لهذا الكتاب هو "**مدخل إلى تاريخ البداوة (عناصر من الثقافة الحسانية)**".

ولن نخوض في تعريف مصطلح الثقافة الذي أسال كثيرا من الحبر وتناوله بالشرح والتحليل مَن هم أجدر منا بالخوض فيه، لكننا سنهتم أكثر بثقافة البداوة. ونشير إلى أن بعض من اهتموا بالثقافة صنفوها عموما إلى ثقافة "عالمة" وثقافة "شعبية" معتبرين الثقافة "العالمة" هي تلك التي أنتجت تراثا مكتوبا أي أن أهلها، وهم سكان الحواضر عادة، يتوفرون على مستوى ثقافي ومعرفي يخولهم التأليف والإبداع في مجالات الأدب والعلم.

أما الثقافة "الشعبية" -بالنسبة لعديد أولئك الدارسين- فإن أهلها، وهم البداة، لا يتوفرون على تقاليد مكتوبة، وبالتالي فإن مستواهم الثقافي والمعرفي محدود ويقتصر على تعاطي أنماط ثقافية فلكلورية شعبية كثيرا ما ينظر إليها نظرة تحقيرية بوصفها ثقافة "دونية" و"عامية"؟!.

وهكذا يتم ربط "الثقافة العالمة" بالمدن التي يستطيع سكانها، وهم أهل الحضارة -حسبما هو متداول- إنتاج وتعاطي مثل هذه "الثقافة العالمة".

أما البدو الذين يشتهرون عادة بالجهل والأمية فهم لا يتعاطون إلا "الثقافة الشعبية" التي تختصر في التقاليد والأعراف والفنون الفلكلورية...، إذ لاحظّ لهم من الثقافة العالمة. وهم أصلا -في هذا التصور- عاجزون عن استيعاب المعارف العلمية وتصور المقولات المجردة طالما أنهم لا يكتبون ولا يقرأون، وبالتالي فقصارى حظهم من المعارف هي التقاليد والعادات والخرافات...

ولهذا اعتبرت البادية -في عرف الدارسين التقليديين- بيئة غير صالحة للنمط العالم من الإنتاج الفكري ناهيك عن الازدهار العلمي والفني والأدبي، غير أن واقع البوادي الموريتانية -وامتداداتها عبر النطاق الحساني- منذ القرن السابع عشر، وواقع الحواضر الإسلامية في الفترة نفسها يُبيّن أن البادية ليست دائما رديفة الجهل والأمية كما أن المدينة لا تساوي بالضرورة الازدهار المعرفي والرقي الحضاري.

وربما تكون هذه المنطقة الصحراوية أولَ بادية يتعاطى سكانها الثقافة العالمة درسا وتأليفا، إذ احتضنت حسب ما يقول الباحث الراحل محمد ولد مولود ولد داداه (توفي سنة 1433هـ/2012): "مجموعة البداة الوحيدة التي تملك تقاليد ثقافية مكتوبة بينما يعيش البدو الآخرون عالةً على أهل المدن".

ويدعم هذا الرأي بعض الباحثين والدارسين الأجانب الذين تجولوا في المنطقة أو اهتموا بها حيث أبرزوا تميز سكان هذه الصحراء عن غيرهم من البداة بتعاطيهم لمظاهر من الثقافة العالمة، وهو ما يعد مفارقة لما هو شائع.

فها هو المستشرق الفرنسي رني باسي (René BASSET) المتوفى سنة 1342 هـ/1924 يجزم "بأن لدى البيضان ثقافة أدبية أرقى مما لدى جل سكان الجزائر"[1].

ويشير الرحالة الفرنسي كاميْ دولس (Camille DOULS) المتوفى سنة 1306هـ/1889 إلى: "أن البيضان يتخذون من خيامهم أكاديمياتٍ حقيقيةً" مضيفا أنهم: "يتعاطون كتابة العربية" ومؤكدا أن "المعرفة والذكاء اللذين يميزان هؤلاء البداة يبلغان درجة من التطور تُعدّ مفارقةً لما يطبع المسلمين المقيمين بإفريقيا الشمالية"[2].

---

(1) نقلًا عن فيدرب:

Faidherbe, **Le Sénégal et La France dans l'Afrique Occidentale**, Paris, Hachette, **1889**, p. **45**.

(2) Camille DOULS, **Cinq mois chez les Maures nomades du Sahara Occidental**, Paris, *Tour du Monde*, I, **1888**, pp. **117-224**, p. **206**.

وأما البروفيسور الألماني أولرش ريبشتوك (Ulrich REBSTOCK)، وهو من أبرز المختصين بتاريخ الآداب الموريتانية فيتحدث عن الوجود المادي لهذا الأدب قائلًا: "إن إنتاجه تطلب قرابة خمسة قرون، حيث قامت نخب تنتمي إلى أربعين جيلًا بوصف الحياة المادية والفكرية عن طريق الكتابة. وقد مكنت هذه الجهود التاريخية من حفظ المخطوطات بأعداد كبيرة. فخلال المهمات التي قمت بها داخل البلاد رأيت بأم عيني في أكثر من ثلاثمائة مكتبة مختلفة الأشكال والأحجام زرتها مخطوطاتٍ قدرتها بما يتجاوز كثيرا ثلاثين ألف وثيقة. أضف إلى ذلك أن المؤلفات المجهولة وتلك التي أتلفتها عاديات الزمن تثري منتوج الموريتانيين الثقافي..."(1).

وسنكتفي هنا للتدليل على ظاهرة "البادية العالمة" هذه، بذكر عينة ذات دلالة خاصة، هي عبارة عن ثلاثة أسماء تعتبر من الرموز التي أنتجت تراثا عالما -تأليفا وتدريسا- يمتاز بكونه أنتج تحت الخيمة وعلى ظهور العيس. وهذه النماذج الثلاثة هي حسب ترتيب تاريخ وفاة أصحابها:

1. الشيخ محمد المامي الشمشوي (ت. سنة 1292هـ/1875) الذي اشتهر -من بين أمور أخرى- بمحاولة تنزيل الأحكام الشرعية على الوقائع اليومية لحياة البداة بتكييف الفقه المالكي الذي نشأ وترعرع في المدن مع خصوصيات البادية مؤلفا لهذا الغرض كتاب البادية، ذا العنوان المعبر في هذا السياق.

2. الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزي (ت. سنة 1322هـ/1904) الذي لم يجد صعوبة في التدريس بالجامع الأزهر. ورغم خصوماته المتعددة ومزاجه الخاص كان موضع تقدير واحترام في المشرق العربي وحتى في أوروبا. يقول عنه طه حسين (ت.سنة 1393هـ/1973م) في الأيام: "كان أولئك

(1) Ulrch Rebstock, **Les fonds des manuscrits en Mauritanie: Impressions, expériences, perspectives personnelles**, communication inaugurale présentée au Colloque de Berlin sur **les Manuscrits mauritaniens**, septembre **2015**, (sous presse).

الطلبة الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلب. وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا، وأنه لم يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئا أو ناسخا".

3. العلامة محمد الأمين الجكني الملقب آبه بن اخطور (ت. سنة 1393هـ/ 1973) الذي خولته مكانته العلمية أن ينال الحظوة والتقدير في الحجاز. فقد كان أستاذا مرموقا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وعضوا في هيئة كبار العلماء بالسعودية وعضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي. يتحدث عنه الشيخ عطية محمد سالم (ت.سنة 1420هـ/1999م)، القاضي بالمحكمة الشرعية بالمدينة المنورة، وهو أحد تلامذته قائلا إنه: "ربّى أفواجا متلاحقة تعد بالآلاف من خريجي كليات ومعاهد الإدارة العامة بالرياض والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وما مات إلا بعد أن أصبح له في كل دائرة من دوائر الحكومة في أنحاء البلاد ابن من أبنائه وفي كل قطر إسلامي بعثة من البعثات".

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ويتعلق التوضيح الأخير بالعنوان الفرعي للكتاب (**عناصر من الثقافة الحسانية**). فالمعروف أن الحسانية هي اللهجة المتداولة في المنطقة منذ أن تمكنت القبائل العربية الوافدة عليها من بسط نفوذها على هذا المجال ابتداء من القرن السادس عشر حسب الشهادات التاريخية.

وإذا كان هؤلاء الوافدون الجدد لم يتمكنوا من توحيد المجال البيضاني سياسيا تحت ظل سلطة مركزية موحدة فإنهم تمكنوا من تحقيق ذلك الغرض على المستوى الثقافي عن طريق نشر لغتهم العربية (الحسانية) في المناطق الممتدة من وادي درعه شمالا إلى نهر السنغال جنوبا، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى أزواد شرقا. وبحكم سيادة اللهجة الحسانية في هذا الحيز فإننا لا نعتبر هذا المصطلح خاصا بالانتماء الأتني، بل إن الناطقين بالحسانية (الذين يعرفونها ويتحدثون بها) يمكن أن تكون لهم انتماءات أتنية غير عربية. ولذلك أدرجنا أسرة أهل ابن المقداد في هذا المجال المتسع الناطق بالحسانية.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن باحثين موريتانيين عديدين اهتموا ببعض هذه المجالات من تاريخ المنطقة. فالأستاذ ددود ولد عبد الله كرّس جلّ أعماله للجوانب الثقافية والفكرية[1] من هذا التاريخ والأستاذ محمد الأمين ولد الناتي تناول **الثقافة الشنقيطية** ضمن مقاربة نسقية[2]. غير أن الدراسات المتعلقة بالبداوة ظلت نادرة على العموم، نذكر منها على وجه الخصوص بعض الإشارات عند المرحوم محمد ولد مولود ولد داداه ضمن اهتماماته بالهجرات البشرية القادمة إلى المنطقة من الجزيرة العربية، إلا أن هذا الباحث المدقق رحل قبل أن يتحفنا بنتائج أعماله القيمة في هذا المجال.

ويبقى أهم عمل يتعلق بالبداوة في المنطقة هو أطروحة الدكتوراه التي أعدها وناقشها أستاذنا البروفيسور عبد الودود ولد الشيخ[3] غير أن هذا العمل الأكاديمي الرصين لم يترجم بعد إلى اللغة العربية رغم محاولات المرحوم البروفيسور جمال ولد الحسن ومجهودات الأستاذ السيد ولد اباه التي لم تتواصل مع الأسف[4].

ونشير أخيرا في هذا السياق إلى جهود الأستاذ محمد ولد البرناوي في

---

(1) ددود ولد عبد الله، **الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17 - 18م)**، منشورات مركز الدراسات الصحراوية بجامعة محمد الخامس، الرباط (المغرب)، **2015**.

(2) محمد الأمين الناتي، **الثقافة الشنقيطية: مقاربة نسقية**، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، الرباط، **2008**.

(3) Abdel Wedoud OULD CHEIKH **Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale. Essai sur quelques aspects du tribalisme**, thèse pour le doctorat en sociologie, Université Paris-V, **1985**, **3** t., **1056** p.

(4) نشير بهذا الخصوص إلى مجهوداته في مجال الترجمة:

- ✓ عبد الودود ولد الشيخ، "**السلطة والقرابة. تقديم للنظريات الانقسامية**"، ترجمة السيد ولد أباه، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد الثالث، **1991**، صص. **9-26**.
- ✓ "**القرابة والسلطة. قراءة نقدية في النظرية الانقسامية**"، ترجمة السيد ولد أباه، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد **4**، **1994**، صص. **59 76**.

نطاق حفرياته في تراث الشيخ محمد المامي وخاصة كتاب البادية[1].

وقد ضمّنا هذا الكتاب سبع مداخلات متنوعة كنّا قد قدمناها مشاركة في ندوات علمية نظمت خلال السنوات الماضية في تونس والمغرب والجزائر وموريتانيا.

وبما أن كل واحدة من هذه المداخلات كانت تتعلق بعنصر من عناصر الثقافة الموريتانية أو تتقاطع معه، وبالتالي فإن خيطا ما كان يربطها، فقد ارتأينا جمعها بين دفتي كتاب واحد آملين أن تفيد الباحثين والمهتمين وأن يجد فيها القارئ العادي ما يملأ وقت فراغ على الأقل.

ولم نراع في ترتيب هذه النصوص سوى تاريخ تقديمها من الأحدث إلى الأقدم. كما أننا لم ندخل كبير إضافات لا على محتواها ولا على منهجها، بل اقتصرنا غالبا على إضافة تصويبات وتصليحات شكلية في عمومها.

يتناول أول هذه النصوص **الألعاب الشعبية**، وهو مجال ظل مهملا، رغم أنه يشكل جزءا مهما من ثقافة المجتمع وتراثه الشعبي ويعكس نمط حياته ويوطد لحمته الاجتماعية فضلا عن تنمية المهارات البدنية والذهنية وتوفير فرص للتسلية والترفيه والترويح عن النفس ونسيان المشاكل والهموم والهروب عنها على الأقل خلال أوقات اللعب.

ويتعلق **النص الثاني** بجانب بالغ الأهمية من الثقافة البيضانية هو **المأثورات الشعبية**. ويتضمن هذا البحث قراءة في الأمثال الحسانية مشكلا نوعا من الالتفات إلى الثقافة الشعبية التي ظلت -رغم قيمتها التراثية الكبيرة- تعاني الغبن والتهميش.

ويتمحّض **النص الثالث** لركن قويم من الثقافة الموريتانية هو **المكتبات الأهلية** وما تختزنه من مخطوطات مهمة حيث اخترنا إحدى مكتبات مدينة شنقيط التاريخية بصفتها أنموذجا لهذا التراث المخطوط فحاولنا تبيانَ ما يهدده

(1) محمد أحمد البرناوي، **الخلاف والاختلاف والاستخلاف أو العرف والشرع والسلطة السياسية في الجنوب الغربي للغرب الإسلامي بداية القرن التاسع عشر: محاولة حفر حول فكر الشيخ محمد المامي (1780-1865)**، منشورات معهد سيدي عبد الله ولد الفاضل، نواكشوط، **2010**.

من مخاطر طبيعية وبشرية وتقديمَ جملة من المقترحات سبيلا إلى إنقاذ هذا الكنز الوثائقي الموجود في وضعية يرثى لها.

أما **النص الرابع** فقد اهتم بموقف **مؤسسة المحضرة الموريتانية** من الاستعمار الفرنسي. ومعروف أن هذه المؤسسة اضطلعت بأدوار متعددة تعليمية وثقافية واجتماعية وسياسية وحضارية وأعطت لهذا الركن القصي من ديار الإسلام شهرة كبيرة مجسدة فخرا لهذه الربوع. وقد شغلت هذه المؤسسات بعض الباحثين والدارسين الموريتانيين والأجانب فأطلقوا عليها تسميات متعددة (الجامعات البدوية المتنقلة، جامعات ظهور العيس، أكاديميات الخيمة، إلخ).

ويعطي **النص الخامس** نموذجا لمساهمة البيضان في مجال **الممارسة الطبية** من خلال تقديم قراءة في عمدة الطبيب لأوفى بن أبي بكر الشمشوي (ت. سنة: 1297هـ/1880م)، وهي أرجوزة تتكون من 1224 بيت تناول فيها المؤلف رؤيته للأمراض وأسبابها وأعراضها وعلاجاتها دون أن ينسى واجبات الطبيب وأخلاقيات هذه المهنة.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ويستعرض **النص السادس** علاقات البلاد الموريتانية بجذورها العربية والإسلامية من خلال **رحلات الحج الشنقيطية** ومكانتها في التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب العربيين باعتبارها مجالا خصبا للتثاقف والأخذ والعطاء.

ويتناول **النص السابع** والأخير نموذجا من علاقات وروابط موريتانيا ببعدها الإفريقي من خلال **أسرة أهل ابن المقداد السينلويزية وروابطها الثقافية والاجتماعية مع الموريتانيين** عبر حوض نهر السنغال مبرزا بعض تجليات هذا التواصل الثقافي والاجتماعي.

البروفيسور محمدُّو أميَّن

برلين في 6 شوال 1338/ 30 يونيو 2017

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

النص الأول:

الألعاب التراثية الحسانية

(محاولة في التصنيف)[1]

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) قدم هذا البحث مساهمة في ندوة **الألعاب التراثية في الجزائر والبلاد المغاربية والساحل الإفريقي** التي نظمها المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، **22-23** يوليو **2015**، قسنطينة (الجزائر).

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

تقديم

الألعاب الشعبية جزء مهم من ثقافة المجتمعات وتراثها الشعبي وهي انعكاس لنمط حياتها ومستوياتها الثقافية وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية.

ويعتقد أن ممارسة الإنسان للعب بدأت منذ العصور الغابرة وجاءت بشكل غريزي وعفوي قبل أن تتطور استجابة لتطور الإنسان وتجدد وتنوع حاجياته عبر الزمن.

وتتم ممارسة الألعاب بأشكال متعددة، فمنها الفرديّة والجماعيّة ومنها الرجالية والأنثوية. كما أن منها ألعابا تخص الأطفال وألعابا للمراهقين وأخرى تخص الكبار...

وقد مارس البيضان الموريتانيون ويمارسون -شأنهم شأن غيرهم من الشعوب- أنواعا مختلفة من اللعب يمكن استعراضها ومحاولة تصنيفها:

- ✓ من حيث السن (ألعاب للأطفال، ألعاب للمراهقين، ألعاب للكبار)،
- ✓ من حيث الجنس (ألعاب ذكورية، ألعاب أنثوية، ألعاب مختلطة)،
- ✓ من حيث الوظيفة (ألعاب تعليمية/ذهنية، ألعاب جسدية/عضلية، ألعاب ترفيهية بحتة)، إلخ.

أولا. الألعاب التراثية

1 -تعريفات وتحديدات

يقول ابن منظور في تعريفه للعب: "اللَّعب ضد الجِد"[1]. ويعرفه صاحب المعجم الوسيط قائلا: "لعِب لعِبا ولعْبا: لها" [...] ولعِب: عمل عملا لا يجدي عليه نفعا (ضد جَدَّ)[2].

(1) جمال الدين محمد أبو الفضل ابن منظور، **لسان العرب**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ودار صادر، الطبعة السادسة، بيروت، **1997**، مادة لعب.

(2) إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، جزءان، الجزء الثاني، المكتبة العلمية، طهران، بدون تاريخ، مادة لعب.

وورد اللعب في التنزيل الكريم مرتبطا باللهو وإضاعة الوقت: "وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا"[1]. "فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون"[2].

وفي مثلث قطرب فإن اللعب هو أيضًا عكس الجِد:

الجَـــــــد والـــــــد الأب والجِـــــد ضـــــد اللعـــــب

والجُـــــد عنـــــد العـــــرب البئـــــر ذات الخـــــرب[3]

وإذا كانت التعريفات السابقة قد نظرت إلى اللعب من زاوية تقليدية تربطه بالهزل وإضاعة الوقت باعتباره "عملا لا يجدي نفعا"، فإن باحثين معاصرين نظروا إلى اللعب من زواياه الإيجابية كالابتكار وتهذيب الغرائز والترويح عن النفس بتخفيف متاعب الحياة وتوطيد اللحمة الاجتماعية.

فالألعاب الشعبية "هي تلك الفنون الابتكارية المبنية على المشاركة والتي تفرز فكرا أو حركة أو أداء والتي لا ترتبط بمكان ولا هيئة تنظيمية، ولكنها تركن على قواعد وشروط سهلة غير معقدة تسهل التعامل معها وتسمح بانتشارها الجغرافي السريع، وهي لا تضع شروطا لممارستها في النوع أو الجنس أو السن"[4].

ويشير كمال الدين حسين إلى البساطة والتلقائية مؤكدا أن الألعاب الشعبية "ألعاب بسيطة تلقائية في أدائها وتنظيمها ولا تحتاج إلى ملاعب ومعدات، فهي تؤدى داخل الحجرات وفي الساحات، وكل ما تحتاجه هو الرغبة في اللعب وبعض المعدات البسيطة، فإن لم يكن جسم الطفل هو الأداة، فهي أجزاء من النبات.. جريد شجرة أو قطعة خشب أو ثمرة من

(1) سورة الأنعام، الآية **70**.

(2) سورة الزخرف، الآية **83**.

(3) قطرب أبو علي محمد بن المستنير، **مثلث قطرب**.

(4) إيمان مهران، **الألعاب الشعبية والهوية الكونية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، **2012**، ص.**13**.

الثمار"[1].

أما خليفة أحمد محمد وأحمد رشدي صالح فينطلقان في تعريفهما للألعاب الشعبية من مسألة التوارث والانتقال عبر الأجيال. فهي "كل لعبة يمارسها العامة تلقائيا ويتوارثونها جيلا بعد جيل، يغيرون منها أو يحرفون، يستوي في ممارستها جنس النساء وجنس الرجال منذ الطفولة"[2]. إنها "تلك التي أبدعها الشعب وحافظ عليها عن طريق تعلمها وتداولها من جيل إلى جيل"[3].

ويركز علي حسين في تعريفه للمهارات والألعاب الشعبية على تهذيب الغرائز والترويح عن النفس ونسيان المشاغل والهموم قائلا: "إن الألعاب والمهارات الشعبية تسعى إلى تهذيب غرائز الإنسان في الغناء ومعرفة طبائع البشر والترويح عن النفس وتخفيف متاعب الحياة وشواغلها. فهي من فيض حيويتنا لأننا ننفر دائما من الكسل والخمول ونميل بروحنا وطبعنا إلى زيادة الحيوية في جميع مراحل العمر"[4]، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار القولة المأثورة "العقل السليم في الجسم السليم".

ANCH
المكتبة الرقمية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

2 -خصائص ومزايا الألعاب التقليدية

للألعاب الشعبية خصائص ومزايا كثيرة لعل من أهمها:

✓ المساهمة في المحافظة على الخصائص الثقافية والاجتماعية للشعوب بصفتها وعاء فكريا لحفظ الذاكرة،

✓ توطيد اللحمة الاجتماعية من خلال العمل الجماعي والعلاقات أثناء

---

(1) كمال الدين حسين، **ألعاب الأطفال الغنائية**، دار الفكر العربي، القاهرة، **1991**، ص.**4**.

(2) أحمد رشدي صالح، **الألعاب الشعبية والمهارات الجسمية والسيرك**، مجلة الفنون الشعبية، العدد **24**، أغسطس **1988**، ص.**74**.

(3) خليفة أحمد محمد، **ألعاب الصبية والأطفال في السودان**، وزارة الثقافة والإعلام، الخرطوم، **1996**.

(4) نقلا عن: أحمد الصباحي عوض الله خليل، **المهارات والألعاب الشعبية**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص.**3**.

اللعب والتفاعلات الناتجة عنه،

✓ ربط الإنسان ببيئته ومحيطه الاجتماعي والايكولوجي،

✓ توفير نوع من التواصل بين الأفراد والمجتمعات والشعوب والأجيال،

✓ إعطاء فكرة عن تحول العمران باختلاف الأحوال والأماكن والحقب، إذ نجد ألعابا قديمة منقرضة وأخرى باقية وألعابا جديدة طبقا لسنة الحياة وتطورات العصر،

✓ المساهمة في نقل المعارف والقيم والمعتقدات والعادات من الأجداد والآباء إلى الأبناء والأحفاد،

✓ تنمية المهارات البدنية والذهنية من خلال تشجيع روح الإبداع والابتكار والاعتماد على النفس والتنافس الإيجابي (الروح الرياضية)،

✓ توفير فرص للتسلية والترفيه والترويح عن النفس ونسيان المشاكل والهموم والهروب عنها على الأقل خلال أوقات اللعب.

ثانيا. الألعاب التراثية الحسانية

ضمّنا هذا الجزء مسردا أوليا لبعض الألعاب التراثية البيضانية مشفوعا بجرد تصنيفي لهذه الألعاب ثم بعينة تمثيلية للدراسة.

1 -مسرد أولي لبعض الألعاب التقليدية البيضانية:

تمكّنا حتى الآن من جمع مدونة للألعاب التقليدية البيضانية تضم 70 لعبة[1] كما يتضح من القائمة التالية:

---

(1) اعتمدنا في انجاز هذه القائمة المؤقتة -فضلا عن تجربتنا المباشرة وخبرتنا الشخصية- على المصادر والمراجع التالية:

✓ المختار بن حامد، **حياة موريتانيا، الحياة الثقافية**، الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، تونس، **1990**، صص.**188-194**.

✓ سيدي محمد بن حدمين، "**الجد في اللعب: لعبة لكعب نموذجا**"، حوليات كلية الآداب بجامعة نواكشوط، العدد الرابع، **1993-1994**، صص.**163-182**.

✓ السالكة بنت يحظيه، سوفله: **عرض لبعض الألعاب التقليدية الموريتانية**، جمعية ميجك لحفظ التراث الوطني، مكان النشر وتاريخه غير مذكورين.

=

1. اتْحاجِ/حاجَيْتَكْ ماجَيْتَكْ (ألغاز للأطفال)
2. اجَّرِي (العدو)
3. أحمد طوطو
4. أحْمَيّرْ جَدُّو
5. أحَوْدْ/ أم آحميديش
6. اخْرَيْبَكَه
7. أرَيْذوخْ/أطَيْعوزْ/الدَّزْ (المصارعة)
8. استغفر الله
9. أكوصْ (القوس)
10. الألغاز
11. أم أجريره (نمط من لعب الأعكب)
12. أم اجْلَيْدَه (التخفي)
13. أم اجْمَيْلاتْ
14. أم آحْمَيْديشْ
15. أم اسويكه
16. أم الدَيازْ/اكْروزْ
17. أمْبَقْ/أمكلاع
18. انْكوطْ انْكوطْ انْتابَلّيتْ
19. أنَيْكوزْ/لعب الدَّبُّوسْ/اللعب بالعصا
20. تَكْلابْ سَروالْ الْبُ

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

✓ محمد مين نحن بن محم بيد، **اكلام البظان والموروث الثقافي من عادات وتقاليد بني حسان**، وزارة الثقافة، نواكشوط، **2008**.

✓ Ahmed Miské, **Jeux et jouets des enfants indigènes**, Archives Nationales de Mauritanie, Affaires Politiques, n°**80**, **20** octobre **1930**.

✓ Paule Valette, **Paysages Maures: des traces sur le sable**, pp.**73-82**.

21. تَنْبَيْكِلَلْ/تنكارول (الأرجوحة)
22. التَّنْقاشْ/التَّرْصافْ (القفز)
23. التُّودْ/تاكه (الكرة)
24. تَوْدْ أغَيْموزْ
25. تَوْدْ الغَوْرافَه
26. تَوْدْ أم أَغامْ
27. تَوْدْ أم الركوبْ
28. تود أم المورده
29. تولاد الكلبة
30. تولاد الناقة
31. جاك الحيد ابيدو
32. جاك بديد إهمسس
33. الخيمة امنين
34. دَمْراوْ
35. دية دوح
36. دَيَّة دَيَّتْ مُسَّه
37. رَدْ أم ارْوَياتْ/كالَّكْ ما كالَّكْ
38. الزَّرْنَيْفَة (الخذروف)
39. سادِ سادِ يا مدّادِ
40. سالَتْ ("التزحلق" على الكثبان)
41. السِّيكْ
42. شات
43. الشَّارَه (الرماية)
44. شَدْ لَحْبَلْ
45. صَلْبَطْ

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

46. ظامَتْ/اصْرَنْدْ
47. عَيْشَه راحْلَه
48. غارس كله
49. غَمّيظْ أو دسيس (الغميضة)
50. غَيْزْغازَة
51. قاشْ
52. كَمّيشْ بَعْرْ ابّيشْ
53. اللَّزْ (سباق الخيل والإبل والحمير)
54. لَعْبْ ادْغوغَة (الأكعب)
55. لعْبْ انْسورْ (ج نسر واكبظ كسرته وامش)
56. لَكْزانَه
57. لَكْطاعْ (المساجلات)
58. لَكْلاعْ
59. لودَعْ
60. لَوْزارْ (الدمى التقليدية)
61. المبارزة
62. المعزاة والذئب والغصن
63. ندوة الشعر
64. نَيروبَة جاتْ واللَّ ماجاتْ
65. هيب (دبله)
66. يا اغْنَيْمْتِي يا اغْنَيْمْتِي ماهْ ماهْ
67. يا السحاب زيدي زيدي
68. يا العكرب سليلِ اكراعي
69. يا عسَّاسْ يا مَسَّاسْ
70. يَا وَيْلْ المدفعْ بَعْدَنْ طاحْ

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

2 -جرد تصنيفي للألعاب التراثية الحسانية

سنحاول تصنيف قائمة الألعاب التراثية البيضانية التي جمعنا لحد الساعة انطلاقا من معايير متعددة مثل سن اللاعبين (أطفال، مراهقين، كبار) وجنسهم (ألعاب للذكور، ألعاب للإناث، ألعاب مختلطة) ووظيفة اللعب (ألعاب تعليمية/ذهنية، ألعاب جسدية/عضلية، ألعاب ترفيهية بحتة).

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا التصنيف الأولي يبقى نسبيا إلى حد بعيد، حيث يتم اختراق الحواجز أحيانا، إذ أن بعض الألعاب التي تعتبر عادة خاصة بالذكور مثل الشارة (الرماية) ولعبة "اصْرنذْ" (ظامتْ)، قد تمارسها النساء في حالات نادرة. كما أن لعبة "السّيكْ" وهي نسائية عموما، قد يشارك فيها الرجال.

وقد تتداخل الألعاب وتختلط مع ممارسات فولكلورية أخرى مثل الرقص، حيث اعتبرنا رقصة "يَا وَيْلْ المدفعْ بَعْدَنْ طاحْ"، لعبةً في الوقت نفسه.

وطبعا فإن تسميات بعض الألعاب ومدلولاتها ومجرياتها قد تختلف من منطقة لأخرى من البلاد، الشيء الذي يجعل هذا البحث مجرد محاولة أولية تتطلب المراجعة والتصحيح والتدقيق مِن مَن هم أفقه منا في الموضوع وأجدر منا بتناوله، ذلك أن اهتمامنا به قد لا يخلو من تطفل نتمنى أن يشفع له حب الاطلاع.

I- من حيث سن اللاعبين

ألعاب الأطفال والمراهقين	ألعاب الكبار	ألعاب مختلطة
اتْحاج/حاجَيْتَكْ ماجَيْتَكْ (ألغاز)		
اجَّرِي (العدو)		
أحمد طوطو		
أحْمَيّرْ جَدُّو		
أحَوْدْ/ أم آحميديش		
		اخْرَيْبَكَه
أرَيْذوخْ/أطَيْعوزْ/الدَّزْ (المصارعة)		

		استغفر الله
أكوصْ (القوس)		
		الألغاز
أم أجريره (نمط من لعب الأعكب)		
أم اجْلَيْدَه (التخفي)		
أم اجْمَيْلاتْ		
أم آخْمَيْديشْ		
أم اسويكه		
		أم الدَيارْ/اكْروزْ
أمْبَقْ/أمكلاع		
انْكوطْ انْكوطْ انْتابَلّيتْ		
	أنَيْكوزْ/لعـــــــــب الدَّبُوسْ/لعب العصا	
تَكْلابْ سَروالْ الْبُ		
تَنْبَيْكِلَلْ/تنكارول (الأرجوحة)		
التَّنْقاشْ/التَّرْصافْ (القفز)		
التُّودْ (الكرة)		
تَوْدْ أغَيْمورْ		
تَوْدْ الغَوْرافَه		
تَوْدْ أم أغامْ		
تَوْدْ أم الركوبْ		
تود أم المورده		
تولاد الكلبة		
تولاد الناقة		
جاك الحيد ابيدو		

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

جاك بديد إهمسس		
الخيمة امنين		
		دَمْراوْ
دية دوح		
دَيَّة دَيَّتْ مُسَّه		
رَدْ أم ارْوَياتْ/كالَّكْ ما كالَّكْ		
الزَّرْنَيْفَة (الخذروف)		
سادِ سادِ يا مدادِ		
سالَتْ ("التزحلق" على الكثبان)		
		السِّيكْ
شات		
	الشَّارَه (الرماية)	
شَدْ لَحْبَلْ		
صَلْبَطْ		
	ظامَتْ/اصْرَنْدْ	
عَيْشَه راحْلَه		
غارس كله		
غَمّيظْ أو دسيس (الغميضة)		
غَيْزْغازَة		
قاشْ		
كَمّيشْ بَعْرْ ابّيشْ		
	اللَّزْ (سباق الخيل والإبل والحمير)	
لَعْبْ ادْغوغَة (الأكعب)		
لعْبْ انْسورْ		

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

		لَكْزانَه
	لَكْطاعْ (المساجلات)	
		لَكْلاعْ
		لودَعْ
لَوْزارْ (الدمى التقليدية)		
	المبارزة	
		ندوة الشعر
نَيْروبَة جاتْ واللّ ماجاتْ		
هيب (دبلة)		
يا اغْنَيْمْتِي يا اغْنَيْمْتِي ماهْ ماهْ		
يا السحاب زيدي زيدي		
يا العكرب سليل اكراعي		
يا عسَّاسْ يا مَسَّاسْ		
	يَا وَيْلْ المدفعْ بَعْدَنْ طاحْ	

ANICH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

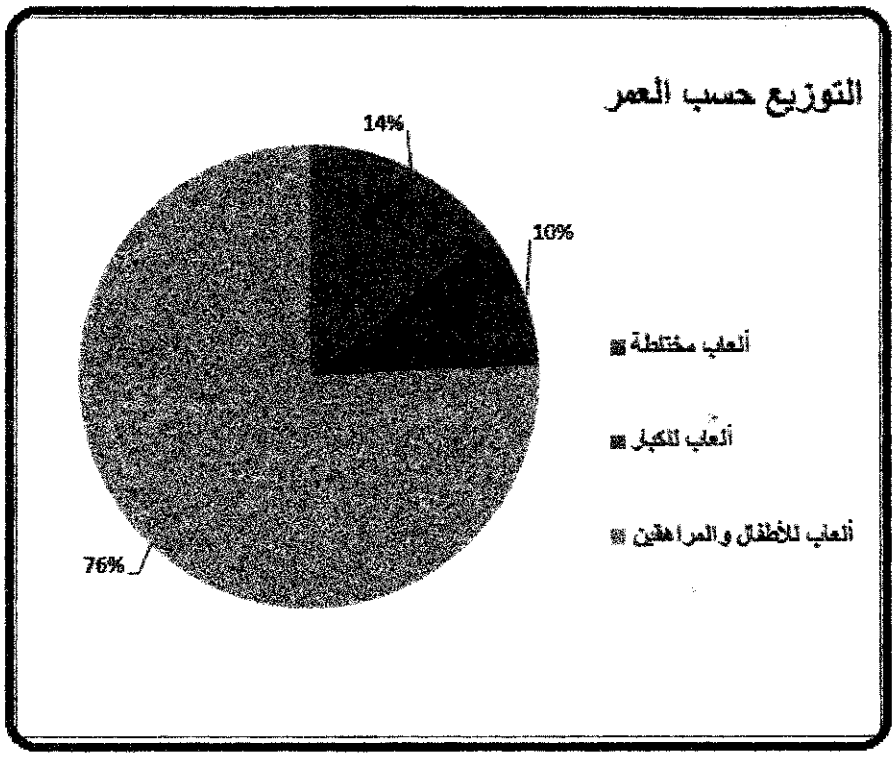

نلاحظ من خلال الجدول والرسم البياني أن ألعاب الأطفال والمراهقين تحتل الصدارة ضمن هذه العينة (53) وذلك بنسبة 76% تليها الألعاب المختلطة (10) بنسبة 14% في حين لا تتجاوز ألعاب الكبار (7) بنسبة 10% فقط.

وربما يرجع انخفاض نسبة ألعاب الكبار إلى طبيعة المجتمع وإلى النظرة التقليدية المحافظة التي أشرنا إليها قبل حين والتي تنظر إلى اللعب بصفته مجرد مضيعة للوقت ناهيك عن انشغال هؤلاء الكبار بمشاكل الحياة اليومية بما فيها تربية الأطفال في محيط طبيعي يمتاز بالشح والقساوة.

SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

II- من حيث جنس اللاعبين:

ألعاب ذكورية	ألعاب أنثوية	ألعاب مختلطة
		اتْحاج/حاجَيْتَكْ ماجَيْتَكْ (ألغاز)
اجَّرِي (العدو)		
		أحمد طوطو
		أحْمَيّرْ جَدُّو
		أحَوْدْ/ أم آحميديش
		اخْرَيْبَكَه
أرَيْذوخْ/أطَيْعوزْ/الـــــدَّزْ (المصارعة)		
		استغفر الله
أكوضْ (القوس)		
		الألغاز
أم أجريـــره (مـــن لعـــب الأعكب)		
أم اجْلَيْدَه (التخفي)		
أم اجْمَيْلات		
		أم آحْمَيْديشْ
	أم اسويكه	
	أم الدَيازْ/اكْروزْ	
أمْبَقْ/أمكلاع		
		انْكوطْ انْكوطْ انْتابَلّيتْ
أنَيْكوزْ/لعب الـدَّبُّوسْ/لعب العصا		
تَكْلابْ سَروالْ الْبُ		

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

تَتْيِيكِلَلْ/تنكارول (الأرجوحة)		
التَّنْقاشْ/التَّرْصافْ (القفز)		
التُّودْ (الكرة)		
تَوْدْ أغَيْمورْ		
تَوْدْ الغَوْرافَه		
تَوْدْ أم أَغامْ		
تَوْدْ أم الركوبْ		
تود أم الموردە		
	تولاد الكلبة	
	تولاد الناقة	
		جاك الحيد ابيدو
		جاك بديد إهمسس
		الخيمة امنين
دَمْراوْ		
		دية دوح
		دَيَّة دَيَّتْ مُسَّه
		رَدْ أم ارْوَياتْ/كالَّكْ ما كالَّكْ
الزَّرْنَيْفَة (الخذروف)		
		سادِ سادِ يا مدّادِ
		سالَتْ ("التزحلق" على الكثبان)
	السِّيكْ	
شات		
الشَّارَه (الرماية)		
		صَلْبَطْ
ظامَتْ/اصْرَنْدْ		

ANCH
المكتبة الالكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

	عَيْشَه راحْلَه	
غارس كله		
		غَمّيظْ أو دسيس (الغميضة)
غَيْزْغازَة		
قاشْ		
		كَمّيشْ بَعْرْ ابّيشْ
اللَّزْ (سباق الخيل والإبل والحمير)		
لَعْبْ ادْغوغَة (الأكعب)		
		لعْبَة انْسورْ
	لَكْزانَه	
لَكْطاعْ (المساجلات)		
	لَكْلاعْ	
	لودَعْ	
	لَـوْزارْ (الـدمى التقليدية)	
المبارزة		
		المعزاة والذئب والغصن
		ندوة الشعر
		نَيْروبَة جاتْ واللّ ماجاتْ
هيب (دبله)		
		يا اغْنَيْمْتِي يا اغْنَيْمْتِي ماهْ ماهْ
		يا السحاب زيدي زيدي
		يا العكرب سلّيل اكراعي
		يا عسّاسْ يا مَسّاسْ
يَا وَيْلْ المدفعْ بَعْدَنْ طاحْ		

ANCH المكتبة الرقمية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

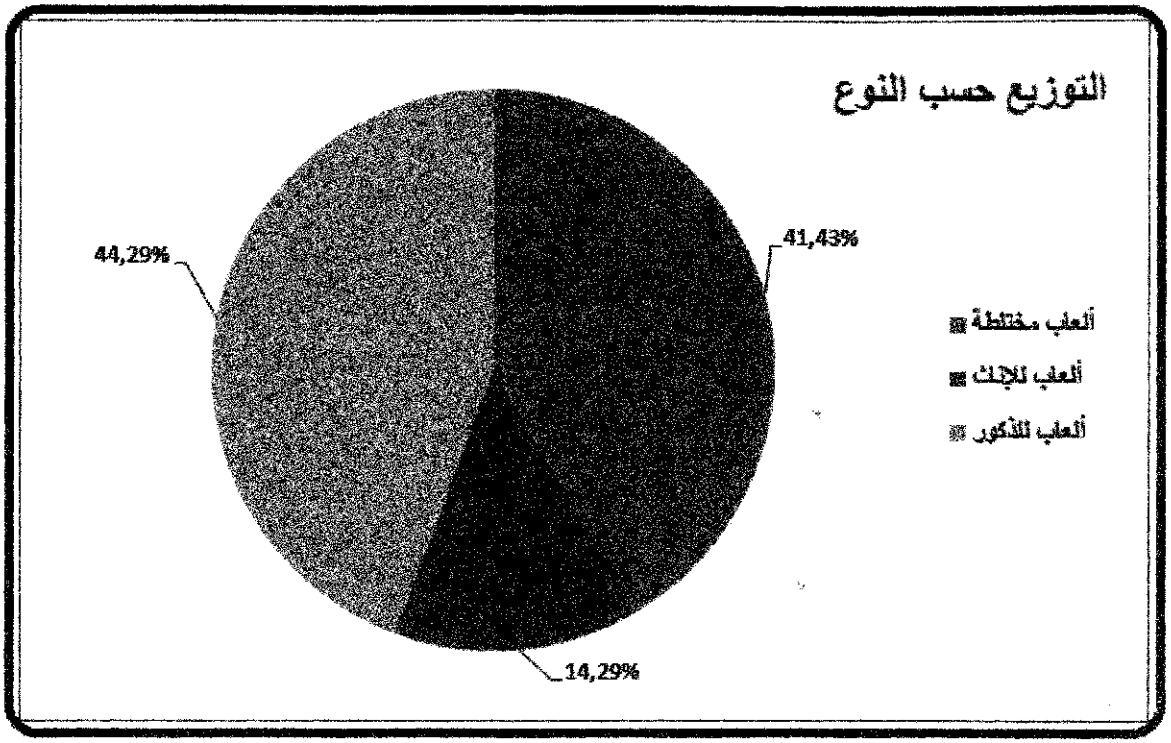

يتضح انطلاقا من الجدول والرسم البياني، أن القائمة تتصدرها الألعاب الذكورية (31) بنسبة 44.29% والألعاب المختلطة (29) بنسبة 41.43%. أما الألعاب الأنثوية البحتة فلا تتجاوز 10 بنسبة 14.00%.

ويجد ارتفاع نسبة الألعاب الذكورية تفسيره في طبيعة المجتمع البيضاني المسلم المحافظ، وهو مجتمع ذكوري كغيره من المجتمعات العربية. ورغم ذلك، فإن وجود نسبة 41.43% من الألعاب المختلطة التي يمارسها الذكور والإناث معا وفي الوقت نفسه يعطي فكرة عن ما ميّز المجتمع البيضاني عن غيره من المجتمعات المجاورة بخصوص التعامل مع المرأة. فالنساء في الصحراء -خاصة المرأة البيضانية- لم يكن ينظر إليهن بصفتهن مجرد سلعة قابعة في البيت وسجينة في الحريم يقتصر دورهن على إمتاع الرجل، بل إنهن كنّ مشاركات في الحياة في مختلف تجلياتها بما في ذلك ممارسة الألعاب.

III- من حيث وظيفة اللعب:

ألعاب تعليمية/ذهنية	ألعاب جسدية/عضلية	ألعاب ترفيهية بحتة
اتْحاجِ/حاجَيْتَـــــــكْ ماجَيْتَكْ (ألغاز)		
	اجَّرِي (العدو)	
		أحمد طوطو
		أحْمَيّرْ جَدُّو
		أحَوْدْ/ أم آحميديش
اخْرَيْبَكَه		
	أرَيْذوخْ/أطَيْعوزْ/الـــــدَّزْ (المصارعة)	
		استغفر الله
	أكوصْ (القوس)	
الألغاز		
		أم أجريره (من لعب الأعكب)
		أم اجْلَيْدَه (التخفي)
		أم اجْمَيْلاتْ
		أم آحْمَيْديشْ
		أم اسويكه
		أم الدَيارْ/اكْرورْ
		أمْبَقْ/أمكلاع
		انْكوطْ انْكوطْ انْتابَلّيتْ
	أنَيْكورْ/لعـــــــــب الدَّبُّوسْ/اللعب بالعصا	

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

	تاكَه كرة جلدية	
	تَكْلابْ سَروالْ الْبُ	
	تَنْبَيْكِلَلْ/تنكـــــــــارول (الأرجوحة)	
	التَّنْقاشْ/التَّرْصافْ (القفز)	
	التُّودْ (الكرة)	
	تَوْدْ أغَيْموزْ	
	تَوْدْ الغَوْرافَه	
	تَوْدْ أم أغامْ	
	تَوْدْ أم الركوبْ	
	تود أم المورده	
		تولاد الكلبة
		تولاد الناكة
		جاك الحيد ابيدو
		جاك بديد إهمسس
		الخيمة امنين
دَمْراوْ		
	دية دوح	
		دَيَّة دَيَّتْ مُسَّه
رَدْ أم ارْوَياتْ/كالَّكْ ما كالَّكْ		
		الزَّرْنَيْفَة (الخذروف)
		ساد ساد يا مداد
	سالَتْ ("الترحلق" على الكثبان)	
السِّيكْ		

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

	شات	
	الشَّارَه (الرماية)	
	شَدْ لَحْبَلْ	
	صَلْبَطْ	
ظامَتْ/اضرَنْدْ		
		عَيْشَه راحْلَه
	غارس كله	
	غَمّيظْ أو دسيس (الغميضة)	
	غَيْزْغازَة	
	قاشْ	
		كَمّيشْ بَعْرْ ابّيشْ
	اللَّزْ (سباق الخيل والإبل والحمير)	
	لَعْبْ ادْغوغَة (الأكعب)	
	لعبة الفردة (رمي الحذاء بالقدم)	
	لعبة المهراز	
		لعْبْ انْسوزْ
		لَكْزانَه
لَكْطاعْ (المساجلات)		
	لَكْلاعْ	
		لودَعْ
		لَوْزازْ (الدمى التقليدية)
	المبارزة	
ندوة الشعر		

		نَيْرويَة جاتْ واللَّ ماجاتْ
	هيب (دبله)	
		يا اغْتَيْمْتِي يا اغْتَيْمْتِي ماهْ ماهْ
		يا السحاب زيدي زيدي
		يا العكرب سليل اكراعي
		يا عسَّاسْ يا مَسَّاسْ
	يَا وَيْلْ المدفعْ بَعْدَنْ طاحْ	

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

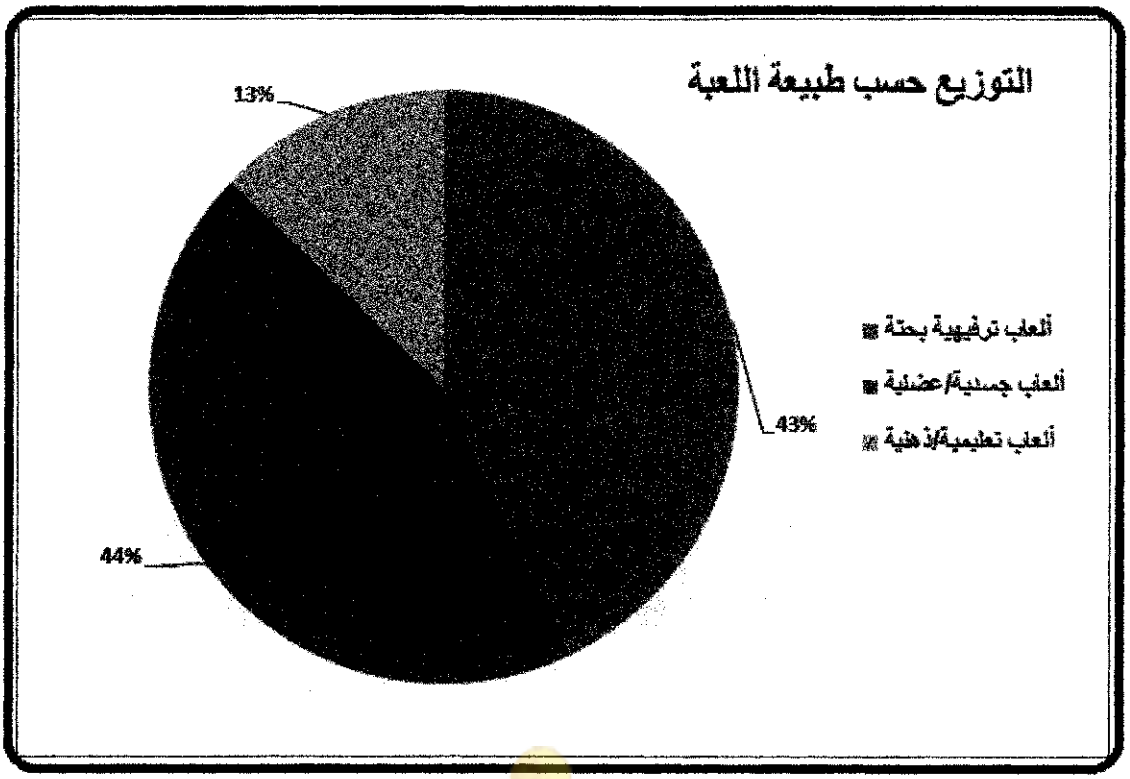

يظهر الجدول والرسم البياني أن الألعاب العضلية/الجسمية (31) بنسبة 44% والألعاب الترفيهية البحتة (30) بنسبة 43% تحتل الصدارة ضمن العينة المختارة، بينما لا تمثل الألعاب التعليمية/الذهنية سوى 9 من 70 أي بنسبة منخفضة جدا لا تتجاوز 13%.

3- عينة تمثيلية من الأمثال الشعبية

تضم هذه العينة أربعة نماذج مختلفة أولها ذهني/ترفيهي للذكور (أصرند) والثاني ذهني/ترفيهي للنساء (السيك) والثالث عضلي/حركي للذكور (أنيكور) والرابع ذهني/تعليمي مختلط للذكور والإناث والمراهقين وللكبار (ندوة الشعر).

I -لعبة "اصرند"

تقديم عام للعبة:

"اصْرنْدْ" لعبة شعبية منتشرة في مختلف أنحاء البلاد الموريتانية وتمارسها مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية وتسمى أيضا "ظامتْ" و"ظامَه".

وتتكون من لاعبيْن يتباريان، لدى أحدهما أربعون عودا ولدى الثاني

العدد نفسه من الحجارة الصغيرة أو من البعر موزعة بشكل منتظم ومتساوٍ على مربعات ومثلثات اللعبة. وهي لعبة ذهنية بامتياز، حيث تمرن العقل على التفكير والتخطيط والمناورة والحركة، إلخ.

فضاء اللعبة: **مكان اللعب:** داخل البيت أو أمامه، ساحة عامة، تحت شجرة، إلخ

أوقات اللعب: غير محددة: عموما أثناء أوقات الفراغ.

اللاعبون: **الجنس:** ذكور. **العمر:** كبار.

وظيفة اللعبة وطبيعتها: ذهنية، هادئة.

سير اللعب: ترسم في التراب 64 مربعا (8×8)، وتعمر نقط الزوايا والمربعات وهي (9 في 9) بأن تغرز في نصفها أربعون عودا أربعة منها إلى يمين النقطة المركزية وفي نصفها المقابل أربعون بعرة كذلك وتترك النقطة الوسطى خالية.

يبدأ اللاعب من جهة يساره بتقديم العود أو البعرة إلى النقطة الوسطى فيقتلها خصمه بوضع العود الذي يليها في اتجاهها في محلها ويختطفها، وهكذا يتبادلان القتال. يجوز للاعب السير إلى الأمام عموديا أو قطريا، ويحظر عليه السير أفقيا أو إلى الوراء، إلا عند القتل فيقتل في كل اتجاه ويقتل واحدة فأكثر كلما وجد النقطة خلف الهدف خالية.

وإذا بلغ اللاعب بالعود أو بالبعرة أي نقطة من الخط الأفقي الأقصى بالنسبة إليه تسمى العود أو البعرة سلطانا، وللسلطان حق السير في أي اتجاه والقفز وعلى طول الخط.

ANCH
المكتبة الرقمية الجزائرية
PAHRAWI DIGITAL LIBRARY

نماذج من لعبة إصرَنط[1]:

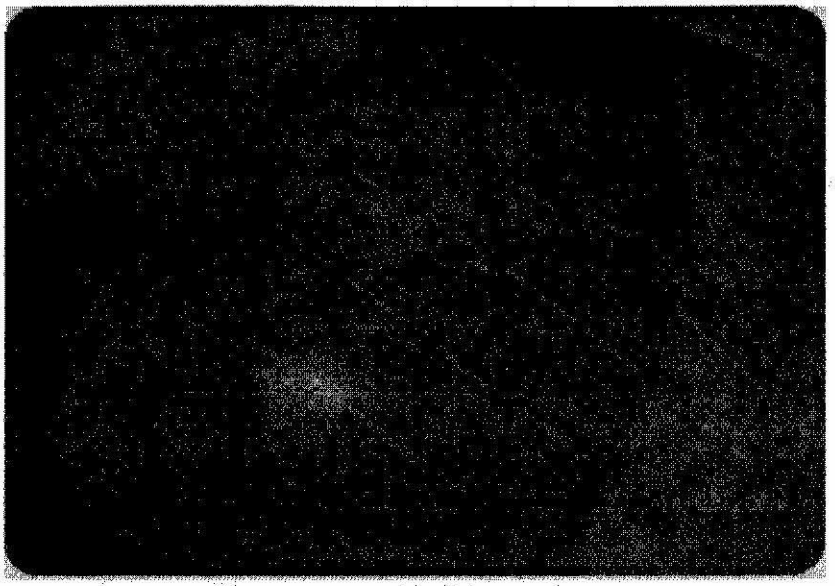

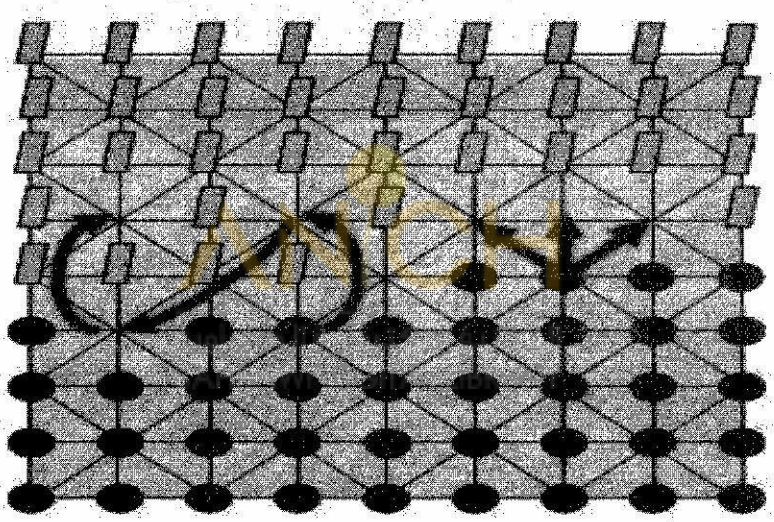

(1) هذه الصور أخذناها من بعض مواقع الشبكة العنكبوتية المهتمة بالتراث البيضاني.

II- لعبة "السّيك"

تقديم عام للعبة:

"السّيكْ" لعبة شعبية منتشرة بين صفوف مختلف فئات المجتمع وخاصة النساء البيضانيات. وهي تتكون من ثمانية أعواد تصنع من جذوع الأشجار، حيث يصقل وجهها حتى تكون بيضاء.

أما ظهرها فيزخرف ويسود بالنار وقد يصبغ أيضا ليكون مخالفا في اللون لوجهها (بني، أسود، إلخ).

فضاء اللعبة: **مكان اللعب**: داخل الخيمة أو البيت.

أوقات اللعب: تنتشر هذه اللعبة خاصة خلال شهر رمضان.

اللاعبون: الجنس: النساء. **العمر**: مختلف الأعمار.

وظيفة اللعبة وطبيعتها: ترفيهية/ذهنية.

سير اللعب: يتم رسم شكل يسمى "لَبْرَه"[1]. وهو خطوط ترسم على رمل ناتئ الوسط ومنحدر الطرفين يوضع في طرفه البعر وفي طرفه الآخر الأعواد. ويتبارى في لعبة "السيك" فريقان غير محددي العدد يكون البعر لأحدهما والأعواد للآخر.

وأثناء اللعب يقوم كل منهما بنقل عناصره في الرسم بعددِ ما يحصل عليه من "سيكٍ" أبيضَ حتى يصل إلى عناصر الخصم فيبدأ في قتلها. وكلما جاء اللاعب بأربعة يحق له مواصلة اللعب، غير أنه يخسرها إن جاء بعدها باثنتين وتسمى "الحمار".

وفي لعبة "السيك" مَا يسمى "الشيلَه" ويقتل بها اللاعب ما وراء عنصره بدلا من أمامه إذا حصل على ما ينقله إليه في "السيك". ويتم الفوز بالقتل النهائي لما لدى الخصم.

---

(1) انظر رسمه في ملحقات هذا البحث.

صور لنماذج من لعبة "السيك"[1]:

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

صورة "لَبْرَه" (ميدان لعبة "السيك"):

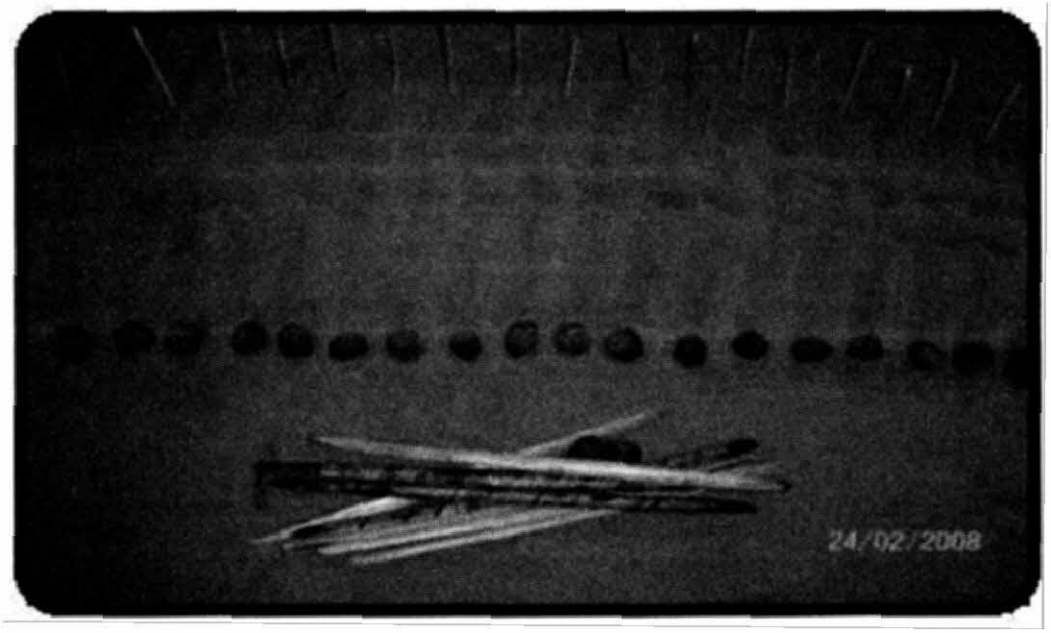

(1) هذه الصور أخذناها من بعض مواقع الشبكة العنكبوتية المهتمة بالتراث البيضاني.

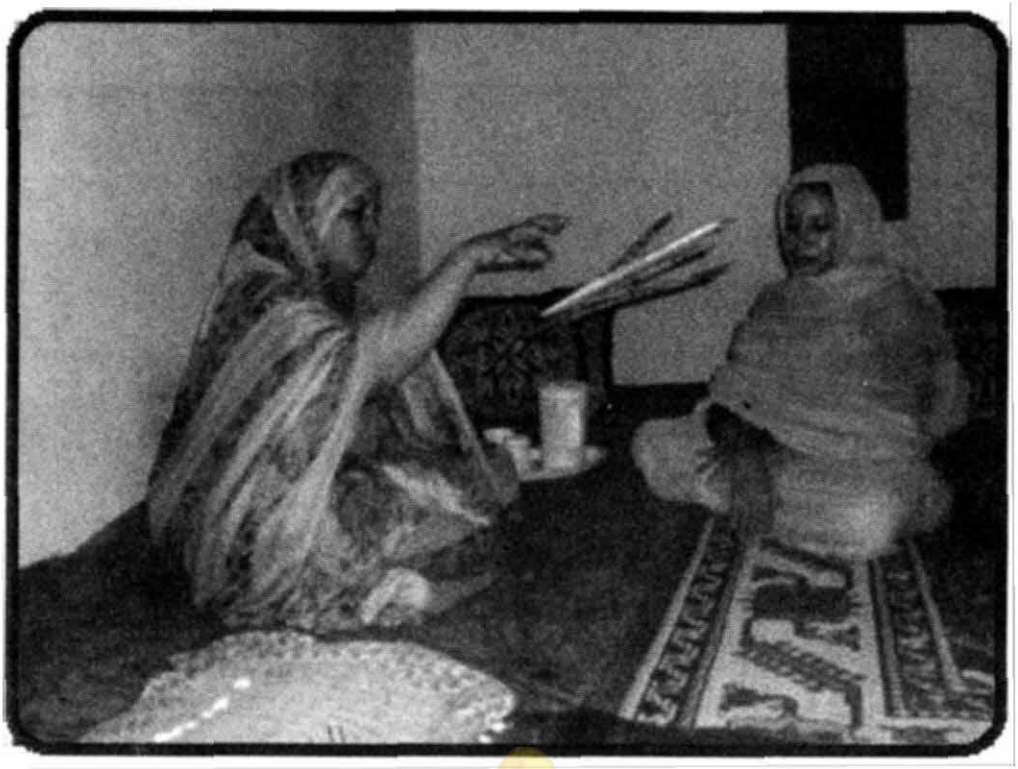

جلسة مختلطة من لعبة "السيبك":

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

III- لعبة "أَنَيْكوزْ"

تقديم عام للعبة:

تعد لعبة "أَنَيْكوزْ" أو "لعب الدبوس" من أشهر الألعاب التقليدية الموريتانية، وهي لعبة تحاكي المبارزة بالسيوف لكن المبارزة فيها تكون بالعصي.

وتقام هذه اللعبة بين متبارزيْن بالعصي في العادة، وقد يتبارز واحد مع اثنين أو ثلاثة حسب مهارته وقوته وسرعته.

فضاء اللعبة: **المكان:** ميدان في الهواء الطلق

التوقيت: الأعياد، مناسبات الزواج، التظاهرات الاحتفالية

اللاعبون: **الجنس:** ذكور. **العمر:** كبار غالبا وقد يكون من ضمنهم مراهقون.

وظيفة اللعبة وطبيعتها: جسمية/حركية.

سير اللعب: تجري لعبة "أَنَيْكوزْ" على إيقاع قرع الطبل وتصفيق وزغاريد وأغاني النساء مما يكسب المتبارين حماسا وقوة أكثر.(1)

ورغم أن هذه اللعبة تؤدي أحيانا إلى إصابة أحد المتبارين أو كليهما بجروح في أصابع اليد، إلا أن المباراة على العموم لا توقع ضحايا وتنتهي كما بدأت لا خاسر ولا منتصر فالهدف هو التسلية والترفيه لا أكثر ولا أقل.

ويحظى لاعبو "أَنَيْكوزْ" بمكانة هامة فيتسابق الناس إلى دعوتهم إلى المناسبات المهمة رغم أنهم لا يتكسبون من لعبتهم التي تتوفر على حضور كبير في الأعراس الحسانية وفي الاحتفالات الرسمية، فهي جزء من وجدان الشعب وتأخذ مكانا مهما في الألعاب الشعبية الموريتانية.

---

(1) تمكن مشاهدة نموذج من لعبة "أَنَيْكوزْ" على الرابط التالي:
http://ar.globalvoicesonline.org/2012/07/18/23908

نماذج من لعبة "أنيكور"[1]

(1) هذه الصور أخذناها من بعض مواقع الشبكة العنكبوتية المهتمة بالتراث البيضاني.

IV- لعبة "ندوة الشعر"

تقديم عام للعبة:

"ندوة الشعر" لعبة ثقافية أدبية ذهنية يتبارى فيها طلبة المحاضر في سرعة حفظ واستظهار النصوص الشعرية. ومن خلالها ينمون ملكاتهم الإبداعية وسرعة البديهة والاستظهار. وهي ميزة من ميزات الشناقطة الذين كثيرا ما رددوا بيتيْ الإمام الشافعي وعملوا بمقتضاهما:

علمي معي حيثما يممت يتبعني صدري وعاء له لا جوف صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

فضاء اللعبة: المكان: الكتّاب، المحضرة، الخيمة، البيت، إلخ.

التوقيت: المساء بعيد انقضاء الدروس اليومية.

اللاعبون: الجنس: ذكور وإناث. **العمر**: مراهقون وكبار.

وظيفة اللعبة وطبيعتها: ذهنية/تعليمية.

مجريات اللعب: يبدأ أحد المتبارين باختيار بيت من الشعر العربي الفصيح وعلى منافسه أن يسارع بتقديم بيت آخر يبدأ بآخر حرف من البيت الذي قدمه الخصم.

أمثلة:

إن اختار اللاعب الأول هذا البيت:

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات

يمكن لمنافسه مثلا اختيار:

تعلم فليس المرء يولد عالما وبادر حصول العلم قبل فواته

وهكذا دواليك إلى أن يعجز أحد المتنافسيْن عن الإتيان ببيت أو يتجاوز الوقت المحدد لاستظهار البيت المطلوب.

هكذا إذن، فإن المجتمع البيضاني رغم ظروف البداوة وحياة الترحال

والتنقل التي كانت تطبع حياته ورغم شح الموارد المتاحة في محيطه الصحراوي الضنين، قد تمكن -شأنه في ذلك شأن غيره من المجتمعات- من خلق وممارسة بعض أنماط اللعب المختلفة ساهمت في الانسجام الاجتماعي وفي التنشئة الأخلاقية وفي التربية الثقافية والجسمية.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

النص الثاني:

الأبعاد المعرفية والخلقية

في المأثورات الشعبية البيضانية

(قراءة في الأمثال الحسانية)[1]

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) قدم هذا البحث مشاركة في الملتقى الدولي: **ثقافة الصحراء ودورها في التوعية والتنمية** الذي نظمه مختبر ثقافة الصحراء بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك، جامعة الحسن الثاني المحمدية بالدار البيضاء يومي **28-29** إبريل **2010** وقد نشرته *مجلة مخبر أنتروبولوجيا الأديان ومقارنتها* التي تصدرها جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، العدد الحادي عشر، (صص**208-226**)، يناير **2012**.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

تمهيد

ينبع الاهتمام بالمأثورات الشعبية -بما فيها الحِكم والأمثال والحكايات والألغاز- من كونها من أكثر الوسائل ملاءمة لتناقل الأفكار وتوضيح التصورات وشرح الواقع بتجلياته المختلفة. ذلك ما جعلها تحتل مكانة مركزية بالنسبة لمختلف العلوم الإنسانية من تاريخ وأنتروبولوجيا ولسانيات، إلخ، حتى أن هذه المأثورات غدت نقطة تقاطع بين المهتمين بتلك العلوم.

وبالفعل فإن هذا الصنف من التراث الشعبي يمارس تأثيرا كبيرا في المنظومة الثقافية لمختلف الشعوب على المستويين الأفقي والعمودي.

وتعود قوة تأثير الأمثال والحكايات والأساطير -من بين أمور أخرى- إلى تصميمها الموجز وبنيتها التركيبية المحكمة وإيقاعاتها الموسيقية المتناسقة ولغتها الواضحة وبنيتها الحكائية السلسة، وكلها أمور تسهل استظهارها وتداولها بمرونة وانتقالها من جيل إلى جيل وعبر مختلف الأوساط والفئات الاجتماعية بغض النظر عن مستوياتها الثقافية والعلمية.

يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة في الأمثال الشعبية الحسانية من خلال مدونة مجتزأة ستركز على الخلفيات المعرفية والخلقية لهذا النمط من الثقافة الشعبية علَّ استنطاقَها يلقي مزيدا من الضوء على جوانب من تميز هذا المجتمع في نظرته لذاته وللأشياء من حوله، وفي إدارته للعلاقة بين مكوناته ضمن ديناميكية تطبعها القابلية الواضحة للتكيف مواكبةً للتحولات.

مضامين الأمثال الشعبية

سنتطرق في هذا الجزء من البحث لمفهوم الأمثال الشعبية ووظيفتها قبل إعطاء عينات ونماذج من مجالات استخداماتها.

1 -في المفهوم والوظيفة

تناول المعجميون العرب القدماء مفهوم المثل وما اعتراه من تحولات حسب سياقات عديدة. فورد في لسان العرب أن "مثل: كلمة تسوية، يُقال هذا مِثله ومَثله كما يُقال شِبْهه وشَبَهه [...] و المَثلُ: الشّيء الذّي يُضرب لشيءٍ مثلاً فيُجعل مثله [...] وقد يكون المثل بمعنى العبرة"(1).

وإذا اعتبرنا أن ابن منظور يمثل خلاصة المعجمية العربية القديمة، فإننا بالاعتماد على ما أورده، يمكن أن نلاحظ مدى اهتمام المعجميين العرب بضبط مفهوم المثل وعنايتهم بتحديد مشمولاته ووظائفه (الضرب "لشيء مثلا" وأخذ العبرة من شيء)، وهو اهتمام شمل فضلا عن المعجميين علماء اللغة على اختلاف مشاربهم، حيث ألفوا في الأمثال جمعا ودرسا(2)، فاعتبروها موضوعا جادا يستحق الدرس والعناية مثل غيرها من مجالات اللغة والأدب والفكر.

ولم يكن الموريتانيون -قديما ولا حديثا- بدعا من المؤلفين العرب فيما

---

(1) جمال الدين محمد أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرغشلي، بيروت، دار لسان العرب، 1970: مادة مثل.

(2) نكتفي هنا بذكر:

- ✓ الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، **المستقصي في أمثال العرب**، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 1925.
- ✓ الحسن بن عبد الله، أبي هلال العسكري، **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، مجلدان، الطبعة 2، دار الجيل، بيروت، 1988/1408.
- ✓ الميداني، أحمد بن محمد بن إبراهيم أبي الفضل النيسابوري، **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

يخص الاهتمام بالأمثال وتدوينها. ففي كتاب الوسيط[1] يفرد أحمد بن الأمين الشنقيطي بابا خاصا بالأمثال الشعبية أورد فيه حوالي 205 من الأمثال.[2]

وقد أتبع هذا الجهد بمجاميع من الأمثال الشعبية ظلت تتزايد خلال السنوات الأخيرة[3].

وليس من المستغرب أن ينال المثل كل هذا الاهتمام، فهو خزان تجارب الشعوب وعنوان هويتها وتعبير عن وعيها الجمعي وطريقتها في العيش وآلياتها لتحقيق التعايش داخل مكوناتها وكيفيات تأقلمها مع محيطها البشري والطبيعي، وهو مقياس لمرجعياتها الثقافية ومعتقداتها الدينية....

فالمثل ببنيته اللغوية المركزة البسيطة قد شكل قاعدة لبناء وعي الشعوب وأساسا لتوحيد منظوماتها المعرفية. فإذا كانت المعارف العلمية منغلقة إلا على من كان له حظ من التعليم والدرس، وبالتالي فإن إشعاعها يخترق البنية المجتمعية على المستوى العمودي فحسب، فإن المثل يستوي في حفظه واستظهاره، ومن ثم في استيعابه واستثماره، الأمي والمتعلم والعالم ومن هو دون ذلك. إنه يخترق المجتمع بصفة أفقية تخول الجميع الاستفادة من محصوله المعرفي وطاقته التعبيرية.

---

(1) يعتبر هذا الكتاب أول محاولة جمع تهدف إلى تقديم صورة للآخرين عن ثقافة البلاد الموريتانية بصفة شبه مفصلة (النظام التعليمي، العلوم الشرعية واللغوية، المدونات الشعرية، القبائل، إلخ).

(2) أحمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، القاهرة، مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر ومكتبة منير، نواكشوط/موريتانيا، الطبعة 4، **1989**، صص.**542-575**.

(3) نذكر منها على سبيل المثال:

- ✓ بكار ولد أحمدو، **الأمثال الحسانية**، تاريخ ومكان النشر غير مذكورين، وهو يضم **1157** من الأمثال الحسانية.
- ✓ اعزيزي ولد المامي، **موسوعة الأمثال الشعبية**، مطبعة الأطلس، نواكشوط، **1998**، ويشتمل على **2394** من الأمثال الحسانية.
- ✓ لعزيزة بنت البرناوي، **المرأة البيظانية من خلال الأمثال الشعبية**، نواكشوط، **2010**.
- ✓ عبد الرحمان ولد مناه، **مختارات من الأدب الحساني والأمثال الشعبية**، نواكشوط، **2010**.

وليس غريبا أن يخدم المثل المجموعة الثقافية المنتجة له، إذ هو خلاصة تجربة مجتمعية لا فردية، تجربة ليست خاصة بمجموعة من المجتمع دون أخرى.

ولا ينفي هذا بطبيعة الحال إمكانية فردية النشأة، ولكن ما يعطي المثل هويته بوصفه مثلا هو مبدأ المثلية الذي أشير إليه أعلاه في التعريف، فعبر هذه المثلية ينطلق المثل من منشئه (أو أصل مضربه الفردي) إلى أفق التجربة العامة (أي إلى حيث يغدو مثالا لكل حالة مشابهة).

وإذا كانت مختلف أشكال التعبير الثقافية للشعوب تحوي عناصر قابلة للاستثمار في الدفع بالتنمية والتحديث، فإن خاصية المأثورات الشعبية بوجه عام والأمثال بوجه أخص، عن غيرها من تجليات الثقافة، هي أنها ثمرة ناضجة لا تستدعي تأهيلا معرفيا يتطلب الوقت والجهد، إذ يشترك الجميع في فهمها واستثمارها في سياقاتها الصحيحة، وبالتالي يمكن التعويل على الثقافة الشعبية أكثر من غيرها بالنسبة للشرائح الأكثر استعصاء على الاندماج في حركة التغيير والتحديث.

ANCH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وتشكل الأمثال بالذات آلية متميزة في هذا السياق نظرا لاختصار عبارتها ووضوح دلالتها وعلوقها بالوجدان وانغراسها في اللاوعي الجمعي مما يسهل توظيفها واستخدامها.

2 - مجالات الإستعمال

لعل الاستجابة للهم الإيديولوجي التحديثي الذي نعتقد أن مهمة الباحث عنه، تستدعي في نظرنا الالتزام به والعمل انطلاقا منه تقتضي منا أن نستخرج من منظومة الأمثال الشعبية الحسانية في موريتانيا جملة من هذه العناصر التي يمكن استثمارها في الدفع بحركة المجتمع إلى الأمام.

وقد حاولنا جمع مدونة نوعية تضم أزيد من خمسين مثلا ارتأينا تبويب عناصرها على النحو التالي:

أولا. في مجال الحياة الاجتماعية

لقد كرسنا معالجتنا لهذا البعد على النصوص ذات الصلة بمنزلة المرأة ومكانة المسنين. ذلك أن طبيعة النظرة إلى فئتيْ النساء والمسنين شكلت على الدوام خصوصية من خصوصيات المجتمع البدوي البيضاني.

أ. النظرة إلى المرأة:

النماذج[1]:

1. الّ امْعاهْ لَمْرَة امْعاهْ مولانا[2]،
2. الّ باتتْ اعْليهْ اظْفيرَة تَصبحْ اعْليهْ اللّحيَة[3]،
3. لَعْلَياتْ اعمايمْ لَجْوادْ وانعايلْ لَكْلابْ[4]،
4. المرأة أَخَيرْ فالْهَا منْ احْجابْهَا[5]،
5. اعْطِ للّمرَأة اشْبرْ تَطّامَه اذْراعْ[6]،
6. الّ انْزادْ بأَكَافَه ما انْزادْ[7]،

---

(1) أوردنا النماذج في المتن بأصلها الحساني، ولكننا حاولنا في الهوامش شرح معانيها باللغة الفصحى لتقريبها من القارئ العربي الذي قد يستعصي عليه إدراك معنى المثل باللهجة الحسانية.

(2) "من كانت معه المرأة كان الله معه" (يضرب لبركة النساء أو لقوتهن في بيوتهن)، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، اللجنة الوطنية لجمع ونشر الثقافة الشعبية والمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، المثل رقم **609**، صفحة **103**. (سنشير إليه لاحقا بـ: **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق).

(3) "ينفذ الرجل (اللحية) نهارا ما تُقنعه به المرأة (الضفيرة) ليلا" (يضرب لتأثير المرأة على الرجل)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل **621**، ص. **105**.

(4) "النساء عمائم الأجواد ونعال الكلاب" (يضرب للحث على تكريم النساء)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1900**، صفحة **290**.

(5) "فأل المرأة خير من تدبيرها" (يضرب لحث المرأة على التفاؤل)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **2008**، صفحة **334**.

(6) "أعط المرأة قليلا تنتزع كثيرا" (يضرب لطموح المرأة الذي يصعب كبح جماحه)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **403**، صفحة **76**.

(7) "من ازداد بأنثى (أكَافَة وهو زي تجميلي تضعه المرأة على رأسها) فكأنه لم يزدد" (يعبر عن عدم ارتياح المجتمع بميلاد الطفلة، وهي عادة جاهلية قديمة ظلت موجودة في

7. المرأة زَربايَه[1]،

8. اتْواسي الطفلَة ألِّ أكْبرْ منْ اخْلاكَتْها[2].

تعكس هذه المجموعة من الأمثال الحسانية النظرة إلى المرأة البيضانية من زوايا مختلفة:

ففي النموذجين الأول (الِّ امْعاهْ المرأة امْعاهْ مولانا) والثاني (الِّ باتتْ اعْليهْ اظْفيرَة تَصبحْ اعْليهْ اللّحيَة) يتم التركيز على الدور الحيوي للمرأة في مجتمع بدوي ظل دائما يسند إليها أدوارا لا تضطلع بها النساء في فضاءات اجتماعية مجاورة، الشيء الذي جعل الرحالة ابن بطوطة، وقد زار مدينة ولاته في منتصف القرن 8هـ/ 14م ينبهر بالمكانة الاجتماعية التي تحظى بها النساء في المنطقة معتبرا أنهن "أعظم شأنا من الرجال"[3].

وفي النموذجين الثالث (لَعْلَياتْ اعمايمْ لَجْواذْ وانعايلْ لَكْلابْ) والرابع (المرأة أَخَيْرْ فالْهَا منْ احْجابْهَا) نجد تعبيرا عن مكانتها السامقة لدرجة تصل حد التفاؤل بما يصدر عنها من فأل، فكأنها مخلوق مبارك. ولا نريد أن نوغل هنا في استغلال معطيات التحليل النفسي، ولكن لنا أن نتساءل عن علاقة هذا الإحساس بما عرف في مراحل معينة ولدى أقوام بالذات من تقديس الأنثى وتأليهها؟!

وفي المثال الخامس (اعْطِ للّمرَأة اشْبرْ تَطّامَه اذْراعْ) ترتسم صورة الطموح غير المحدود لدى النساء في هذا الركن القصي من دار الإسلام.

المجتمعات العربية بعد الإسلام)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل **614**، ص. **104**.

(1) "المرأة بمثابة شجرة مقطوعة نريد جرها من اتجه نحوها أتعبته ومن أدبر عنها استطاع جرها"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **2414**، صفحة **335**.

(2) "تُقْدم البنت على فعل ما هو أشد وقعا (على الأهل) من ولادتها"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **64**، صفحة **36**.

(3) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار التراث، بيروت، **1968**. ص. **661**.

ونجد في المثالين السادس (الِّ انْزادْ بأَكَافَه ما انْزادْ) والسابع (المرأة زَربايَه) صورة ملتبسة تمكن قراءتها دون تمعن كما لو كانت نوعا من التبرم بالمرأة، غير أن نظرة متأنية تتجاوز معطيات الملفوظ المبتسرة وتنظر إليه في علاقته بسياقه يمكن أن تَستشف من هذه الصياغة نوعا من تعظيم المسؤولية عنها.

وفي المثال الثامن والأخير (اتْواسِي الطّفلَة ألِّ أكْبرْ منْ اخْلاكَتْها) نرصد نظرة مغايرة للنظرة الإيجابية السائدة إلى الأنثى باعتبارها عنصرا غير مرغوب فيه.

ويمكن هنا أن نلحظ من خلال هذا المثال ازدواجا غريبا بين الاحتفاء بالنساء وتقديرهن وإعطائهن الأهلية التامة، وبين النظرة السلبية لدى العديد من أوساط المجتمع إلى المولودة الأنثى، فلماذا ينظر المجتمع بريبة إلى الوليدة ويحتفي بها بعد أن تشب عن الطوق؟! أهو التسليم بالواقع أم الغيرة على المرأة والحرص والخوف من غدر الزمان؟ أم هو الإرث الجاهلي يحفر لنفسه مكانا مهما تضاءل في مخيلة البيضاني؟

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ب. مكانة المسنين:

النماذج:

1. الشّيْبْ وَقْرُه الله[1]
2. الشّيْبْ ما يحْمَلْ العيبْ[2]،
3. إشوفْ الشيخْ المتْكي الِّ ما شافْ أفَكْراشْ الواكفْ[3].

تبرز هذه النماذج -على قلتها- نظرة المجتمع الموريتاني إلى المسن من حيث قيمته في المجتمع ودوره في توجيهه وترشيده والحفاظ على لحمته.

---

(1) "الشيب وقره الله"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1702**، صفحة **246**.

(2) "لا ينبغي للمسنِّ أن يفعل ما يعاب به، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1701**، صفحة **246**.

(3) "يرى الشيخ المضطجع ما لا يرى الشاب الواقف"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **333**، صفحة **67**.

فالنموذجان الأول (الشّيْبْ وَقْرُه الله) والثاني (الشّيْبْ ما يحْمَلْ العيبْ) يركزان على المهابة التي يتمتع بها المسن لمجرد أنه كذلك. وفي حين يسند النموذج الأول مصدر هذه الهيبة إلى القوة الإلهية التي لا معقب لأحكامها، يبيّن الثاني تساميّ الشيب (العلامة المميزة للشيخوخة) عن العيب بشكل مطلق.

أما النموذج الثالث (إشوفْ الشيخْ المتْكي الِّ ما شافْ أفَكْراشْ الواكفْ) فيبرز الأساس الموضوعي لهذه المكانة، وهي مكانة تستند إلى أهمية التجارب التي جعلت الشيخ موسوعة معارف مفتوحة. وليس من الصعب أن نعيد هذه النظرة إلى مرجعياتها من التراث الديني الإسلامي من جهة، ومن التراث الإفريقي المحلي، حيث يضطلع المسنون بأدوار اجتماعية وروحية وتربوية مهمة.

ثانيا. في مجال الحياة الثقافية

النماذج:

1. أحْذكْ من لَكْتوبْ[1]،
2. أصَلْ ماهُ قَوْلْ مالكْ في المدونَة[2]،
3. الِّ يعرفْ الرسالَة ما تغلبُه امْسالَه[3]،
4. الِّ اخْطَأ النّصْ يبكَ يطّمّصْ[4]،
5. لَكْرايَه في الرّاصْ ماهِ اف فاسْ ألا مكناسْ[5]

(1) "أحصف من الكتب"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **95**، صفحة **40**.

(2) "ما أبعد هذا القول من قول مالك بن أنس في المدونة"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **358**، صفحة **70**.

(3) "من يعرف رسالة ابن أبي زيد القيرواني لن تعجزه أية مسألة"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **822**، صفحة **132**.

(4) "من أخطأ النص فقد تاه"، ومعناه أن من لم يستظهر النص ويحفظه بقي جاهلا، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل **560**، صفحة **96**.

(5) " توجد المعرفة الحقة في الذاكرة (الرأس) وليست في فاس ولا في مكناس" (يضرب لضرورة تحصيل ما في الصدور والعناية بالحفظ والاستظهار)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **2047**، صفحة **289**.

6. ديرْهَا اعْلَ ركْبَة عالمْ وامْركْها سالمْ[1]،
7. العالمْ اتْبعْ أقْوالُه لا تتبَعْ أفْعالُه[2].

إن أول ما يلفت المتتبع لهذه النماذج هو تلك المفارقة التي استوقفت الدارسين في أكثر من حقل وهي المتعلقة بالعلاقة بين العلم والاستقرار من جهة، وبينه وبين رفاه العيش من جهة ثانية. فإذا كان في حكم البدهي أن العلم مدني، وأن إنتاجه يستدعي فائضا في المال والوقت[3]، فإن هذه البدهية تصطدم بالبادية العالمة في بلاد شنقيط. ولعل في هذه النماذج ما يغني.

ففي الأمثلة الأول (أحْذكْ منْ لَكْتوبْ) والثاني (أصَلْ ماهُ قَوْلْ مالكْ في المدونَة) والثالث (الّ يعرفْ الرسالَة ما تغلبُه امْسالَه)، تتضح العلاقة الحميمة بين المتن العلمي الرصين مجسدا في عموم الكتاب أولا (النموذج الأول)، وفي المراجع المعتمدة في عموم المنطقة بعناوينها الصريحة (النموذجان الثاني والثالث) وبين المأثور الشعبي. ثم إن صيغة النموذجين تشي بمستوى الثقة في المتون الرسمية (ممثلة في "المدونة" و"الرسالة") حيث تصل حد الغاية التي لا مزيد عليها.

أما في النموذجين الرابع (الّ اخْطَأ النصْ يبكَ يطّمّصْ) والخامس (لَكْرايَه في الرّاصْ ماهِ اف فاسْ ألا مكناسْ)، فإننا أمام المعطى العلمي مصحوبا بآلية التحصيل المعتمدة في المنطقة بدافع الوضع الاقتصادي الهش للسكان وهم رعاة يتبعون الأنعام سحابة يومهم، ونتيجة ندرة وغلاء الورق في المنطقة. إنه منهج

(1) "أرجع المسألة إلى قول العالم تسلم منها"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1448**، صفحة **214**.

(2) "اتبعْ أقوال العالم لا أفعاله"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **560**، صفحة **96**.

(3) يقول فرنان بروديل: "لا بد لكل ثقافة من فائض اقتصادي طالما أن الثقافة استهلاك، بل هي إسراف"، راجع:

Fernand Braudel, **Ecrits sur l'histoire**, Flammarion, Paris, **1984**, p. **298**.

الحفظ والاستظهار والتعويل على الذاكرة بدل الوثيقة المكتوبة. وهو منهج غير غريب على الثقافة العربية الإسلامية على كل حال. ولنتذكر قول الشافعي:

علمي معي حيث ما يممت يتبعني قلبي وعاء له لا جوف صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

ولكن للحافظة كآلية لتحصيل العلوم أصالتها الخاصة لدى سكان هذا الجزء من الصحراء الكبرى.

أما في النموذجين السادس (ديرْهَا اعْلَى ركْبَة عالمْ وامْركْها سالمْ) والسابع (العالمْ اتْبعْ أقْوالُه لا تتبَعْ أفْعالُه)، فنحن أمام النتيجة المترتبة على ما سبقها. فإذا كان الكتاب هو رفيق ساكن الصحراء في باديته وأنيسه في خلوته، فلا يستغرب أن ينتصب العالم في فضاء السيبة هذا مرجعا يعود إليه الناس بملء إرادتهم ويتبعون فتاواه وأحكامه برضى. فيذعن له من لا يعرف سلطة يذعن لها، ويرضى بأقواله متخاصمون لا تحملهم سلطة على ذلك.

ثالثا. في مجال التربية

المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

النماذج:

1. الشّوكَة مَنْ سغْرتْهَا امْحدَّه[1]،
2. العشاء أُلَكْرايَة ما ينْقْضاوْ[2]،
3. بوصومْ ألاَّ مَنْ الكْومْ واللاَّ ما اعْليهْ اللّومْ[3]،
4. الحاذك بو غَمْزَة والفاسدْ بو دَبْزَه[4]،

---

(1) "الشوكة تبدو حادة منذ نشأتها" (يضرب في كون علامات النبوغ تظهر مبكرا)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1699**، صفحة **246**.

(2) "التغذية الجسمية (الأكل) والروحية (الدروس اليومية) لا يمكن تعويضهما" (يضرب للحث على مواصلة التعلم وعدم هدر الوقت)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1873**، صفحة **267**.

(3) "إذا بلغ الإنسان الحلم ولم ينجح في أخذ موقعه في المجتمع، فهو غير مخاطب فلا لوم عليه"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1124**، صفحة **171**.

(4) "الحاذق يُغمز والأحمق يُضرب"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق،

5. العلمْ ما فيهْ سحْوَة[1].

بتمعن هذه الأمثال يمكن استخلاص الملاحظات التالية:

على مستوى النموذجين الأول (الشّوكَة مَنْ سغْرتْهَا امْحدَّه) والثاني (العشاء أُلَكْرايَة ما ينْقْضاق) نجد تفطنا إلى أهمية المراحل الأولى من حياة الطفل في العملية التعليمية، وتنبيها على أن أي إهمال قد يقع في تلك المراحل لا يمكن تعويضه.

وفي النموذجين الثالث (بوصومْ ألاَّ مَنْ الكْومْ واللاَّ ما اعْليهْ اللّومْ) والرابع (الحاذك بو غَمْزَة والفاسدْ بو دَبْزَه) ينصَبّ الاهتمام على الأسلوب الأنجع في العملية التربوية سواء استهدفت المجال العلمي أو اقتصرت على تعديل السلوك الاجتماعي.

ومن الوارد هنا أن نلاحظ تفطن المثل لاختلاف الوسيلة تبعا لطبيعة الحالة التي يتوجه إليها الفعل التربوي، فهناك تدرج يمتد من الإيماءة الخفية (بو غَمْزَة) فالتعريض الخفيف (ألاَّ مَنْ الكْومْ واللاَّ ما اعْليهْ اللّومْ) إلى أن يصل حده الأقصى والأعنف متجسدا في الضرب المبرح (بو دَبْزَه).

وفي النموذج الخامس والأخير (العلمْ ما فيهْ سحْوَة) نصل إلى هدف العملية التربوية الأسمى وهو تحصيل العلم حيث تخرق النواميس وتتبدل العادة الصارمة. فإذا كانت السحوة (وتعني احترام مواضعات اجتماعية بعينها تنظم العلاقة بين أفراد المجموعة الاجتماعية) علامةَ الرشد وقوة التكيف والتأقلم مع نواميس الجماعة، وهي بذلك شرط القبول الاجتماعي، فإنها بالنسبة للمتعلم غير مطلوبة. إن مجال العلم هنا يصبح مجالا اجتماعيا مختلفا له مواضعاته ومحدداته التي تسمو على كل محددات أخرى. إنها مرة أخرى روح التعلق بالمعرفة، وجعلها قيمة تسمو على مختلف القيم.

المثل رقم **1269**، صفحة **191**.

(1) "لا استحياء في العلم"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1896**، صفحة **270**.

رابعا. في المجال الاقتصادي

النماذج:

1. إلى جارْ اعْليكْ الدّهرْ جورْ اعْلَ الترابْ[1]،
2. الّ ارْدمْ زرعُه ارْدمْ راصُه[2]،
3. الّ ما ارْعاها خظْرَة ما يوكلهَا حمْرَة[3]،
4. الّ ما يحْلبْ بَيْدُه ما يبياظْ اخْدَيدُه[4]،
5. اتْفرْكُوا اتْعيشُوا[5]،
6. أَخَيرْ كوَّامْ مَنْ جيَّابْ[6]،
7. أوكيةْ في الكفْ ألا ميَّة في السلَفْ[7]،
8. يومْ ارْفودْ الدَّينْ يومْ هَزْ لَكْفَفْ أيومْ اخْلاصُه يومْ عظْ اشْفَفْ[8].

يتضح من المثالين الأول (إلى جارْ اعْليكْ الدّهرْ جورْ اعْلى الترابْ)

---

(1) "إذا جار عليك الدهر فلتجرْ على الأرض" أي إذا أصابتك الشدائد فأزرع الأرض واستغلها، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، المثل رقم **638**، صفحة **107**.

(2) "من بذر زرعه فقد ربط نفسه بالأرض" (يضرب لارتباط المزارع بالأرض)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **568**، صفحة **97**.

(3) "من لم يرعها خضراء (أي النخلة) لن يأكلها حمراء (أي تمرا)"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **752**، صفحة **123**.

(4) مأخوذ من البيئة البدوية ومعناه أن "من لم يخدم نفسه (يحلب بيده) لن تتحسن حاله (لن يبْيضّ خدّه)"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مص. سا.، المثل رقم **784**، ص. **127**.

(5) "انتشروا في الأرض، تعيشوا" (يضرب في الحث على طلب الرزق)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **53**، صفحة **34**.

(6) "أن تحافظ على الثروة أولى من أن تبحث عن ثروة جديدة" أي أن "حفظ الموجود أولى من طلب المفقود" كما في المثل الفصيح، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **180**، صفحة **50**.

(7) "أوقية واحدة متوفرة خيرٌ من مائة أوقية في ذمة مَدين"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **534**، صفحة **93**.

(8) "يوم تَحمُّلِ الدين تُهز اللممُ (فرحا) ويوم قضائه تُعضّ الشفاه (أسفا)" (يضرب لفرحة أخذ الدين ولحسرة قضائه)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **2736**، صفحة **375**.

والثاني (الّ ارْدمْ زرعُه ارْدمْ راصُه) أن مصدر الرزق الأول هو في الأرض. ولعل في ذلك بعض المفارقة بالنسبة لمنطقة معظم سكانها من البدو المتنقلين خلف مساقط الغيث يعولون على السماء أكثر مما يعولون على الأرض، وبالتالي على الأمطار وما تنبت من عشب بري أو تضفيه على الأشجار البرية أيضا من خضرة وما تكسوها من ورق يشكل مصدر غذاء للحيوانات التي عليها يقتات البدوي. ولكن تجارب الدهر بينت لهؤلاء -حسب منطوق المثل- أن الزراعة هي الموئل الأكيد حين تطغى نوبات الجفاف فتهلك النسل ولا يبقى إلا الحرث. وحينها تتبدل علاقة الإنسان بالأرض فلا يملك عنها انفكاكا (فهو مردوم حيث ردم بذوره). إن الأرض هنا تتحول من مجال فسيح يتيح للإنسان خيارات انتقال واسعة تبعا لمتغيرات السماء (الأنواء والسحب) إلى مرتكز قار.

وفي النماذج الثالث (الّ ما ارْعاها خظْرَة ما يوكلهَا حمْرَة) والرابع (الّ ما يحْلبْ بَيْدُه ما يبياظْ اخْدَيدُه) والخامس (اتْفرْكُوا اتْعيشُوا) نعاين نظرة السكان إلى الجهد بوجوهه المختلفة (في مجالات الفلاحة والرعي والتجارة)، وتثمينهم له. فعلى الجهد في هذه النماذج يتوقف المحصول، ويتحدد المردود المادي والمعنوي.

وتبيّن النماذج السادس (أَخَيرْ كوَّامْ مَنْ جيَّابْ) والسابع (أوكيةْ في الكفْ ألا ميَّة في السلَفْ) والثامن (يومْ ارْفودْ الدَّينْ يومْ هَزْ لَكْفَفْ أيومْ اخْلاصُه يومْ عظْ اشْفَفْ) تصورَ القوم عن كيفية نشوء الثروة وأنها لا تتوقف على عنصر الكد والإنتاج، بل هناك عنصر آخر لا يتحقق التراكم إلا عن طريق الأخذ به ألا وهو التدبير والاقتصاد في الإنفاق. وفي هذا النطاق ينتصب الدين بوصفه عدو المال ومرادف الفاقة والعجز. ونظرا لطبيعة المديونية المنافية -في هذه الرؤية- للوفرة المالية فإن منظومة الأمثال تنظر إليها من زاويتي المدين والدائن حيث يحذر الأول من استسهال نشوة القبض (هَزْ لَكْفَفْ) بوصفها مخرجا مؤقتا من حالة صعبة، لأن هذا المخرج سيؤول بالدائن إلى حالة أصعب (عظْ اشْفَفْ).

أما الدائن فتدعوه إلى التبصر والاكتفاء بما تيسر من ثمن مقبوض (أوكيةْ

في الكفْ)، وعدم الانخداع بالأرباح الخيالية التي يقبل المدينون تحملها (ميَّة في السلَفْ). وهي نظرة يسهل فهمها في فضاء لا توجد فيه سلطة متغلبة تنصف الناس بعضهم من بعض. وحتى إذا وجدت هذه السلطة فإن الفقر المنتشر يعجز أغلب السكان عن الوفاء بديونهم.

إن هذه النماذج تمنحنا تصورا كاملا عن "الفلسفة" الاقتصادية في هذا المحيط البدوي الشحيح. وهي فلسفة ترتكز على تصور متكامل عن مصادر تكون الثروة من أرض وجهد وتدبير، وعن آليات الحفاظ عليها تكيفا مع البيئة القاسية.

خامسا. في التكيف مع المحيط

من المعروف أن التكيف خاصية جميع البشر. وبما أن المحيط الصحراوي معروف بالقسوة، فلا بد أن يكون الإنسان الصحراوي سريع التكيف مع مختلف الظروف. وتمكن معاينة هذا التكيف عبر مدونة الأمثال الحسانية من خلال الأمثلة التالية:

النماذج:

1. الِّ ادْخلْ غابَة يزْوِي زيْ اطْيورْهَا[1]،
2. الِّ اصْبرْ يلحْكُه الظَّلْ[2]،
3. اتْمسْكَنْ إلى تَتْمتَّنْ[3]،
4. الِّ ما اصْبَرْ نوبَه إعودْ اعْليهْ الدَّهرْ نوباتْ[4].

إن هذه النماذج الأربعة توضح ضرورة التكيف مع المحيط الذي يعيش

(1) "من دخل غابة قلّد أصوات طيورها"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **565**، صفحة **97**.

(2) "من صبر وصل إليه الظل"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **576**، صفحة **99**.

(3) "تمسكنْ (تظاهر بالمسكنة) حتى تتقوى"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **294**، صفحة **63**.

(4) "من لم يتحمل قسوة الأيام مدة محدودة كانت أيامه كلها معاناة وشحا"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **754**، صفحة **123**.

فيه الإنسان وضرورة تعديل سلوكه حتى يتلاءم مع بيئته المستجدة.

ففي النموذجين الأول (الّ ادْخلْ غابَة يزْوِي زيْ اطْيورْهَا) والثاني (الّ اصْبرْ يلحْكُه الظَّلْ) تبرز قيمة التكيف من خلال استعارة عناصر من الطبيعة (الطير والشجر) حيث يسند إلى الأول فعل تكييف اللغة التي يصدح بها مع ما تقوم به بقية طيور الغابة (البيئة المستجدة)، بينما يسند فعل التكيف إلى الإنسان صريحا في علاقته بالشجرة الثابت البيئي من خلال تمجيد قيمة الصبر انتظارا لتحول الظل إليه.

أما النموذجان الثالث (اتْمسْكَنْ إلى تَتْمتَّنْ) والرابع (الّ ما اصْبَرْ نوبَه إعودْ اعْليهْ الدَّهرْ نوباتْ) فهما صريحان في اعتبار التكيف مفتاح النجاح في الحياة، فعبر الصبر على الأوضاع الصعبة (المسْكنَة) يبدّل المرء وضعه فينتهي إلى وضعية التمكُّن.

وفي الوجه المقابل يبرز النموذجان أن من لم يعتمد طريق التحمل ومعالجة الأمور بالمرونة والتأني والصبر انتهى به الأمر إلى وضعية يتحول فيها الدهر ضده (نوبات عليه).

ANCH
المكتبة الالكترونية الصحراوية
AHMED NOUH LIBRARY

إن التكيف هنا ليس خيارا من الخيارات التي تتيحها الحياة بل ضرورة تمليها الظروف. فهو والحياة صنوان، أو قل هو تدبير الحياة.

سادسا. في تدبير الأمور أو سياسة الحياة

تبدو سياسة أو تدبير شؤون الحياة من أهم ما تناوله المثل الشعبي، سواء على المستوى الكمي، إذ يلاحظ الدارس تواتر الشواهد التي تتناول هذا الموضوع، أو على مستوى الكيف حيث تتعدد زوايا النظر. وتمكن معاينة ذلك على أربعة مستويات هي:

I. اليقظة والتأني في الأمور

النماذج:

1. اتْفَكْريشْ يعْطَبْ[1]،

(1) "التهور مدعاة للعطب"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم 55، صفحة 35.

2. اتْفَكْريشْ اغْروزْ[1]،
3. أَخيرْ الِّ يرْعاهَا سابكْ تلحكُه[2]،
4. أحْكَمْ أحْكَمْ الاَّ اتْزيدْ احْكيمْ[3]،
5. اشْروطْ الشَّحْ يلْتَكْطُه في الرخَه[4].

تتوزع هذه النماذج على محورين أساسيين:

أولهما يجسده المثالان الأول (اتْفَكْريشْ يعْطَبْ) والثاني (اتْفَكْريشْ اغْروزْ) ويتعلق بالتنبيه على خطورة التهور وعلى عواقبه غير المحمودة غالبا. حيث الطيش في المثل الأول مضر (يعْطَبْ)، وفي المثل الثاني خطير (اغْروزْ) قد يقضي على كل شيء.

أما المحور الثاني فهو خاص بمراعاة الحيطة والاستعداد لجميع الظروف والمستجدات. فبالنظر إلى النماذج الثالث (أَخيرْ الِّ يرْعاهَا سابك تلحكُه) والرابع (أحْكَمْ أحْكَمْ الاَّ اتْزيدْ احْكيمْ) والخامس (اشْروطْ الشَّحْ يلْتَكْطُه في الرخَه)، نجد تشديدا على أن توقع الأمور واستشراف الأحداث قبل وقوعها ضروري للنجاح في معالجتها بشكل صحيح، وأن التأكيد على اليقظة بشكل مستمر ليس حشوا بل هو سبيل ترسيخ انتهاج طريق الحذر والترقب في بيئة يمكنها أن تداهم الإنسان من كل الاتجاهات وفي مختلف الأوقات مما يستدعي فضلا عن الحذر ضرورة التعاون والتنسيق.

---

(1) "التهور خطير"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **56**، صفحة **35**.

(2) "تفادي الأمر قبل وقوعه أسلم"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **177**، صفحة **50**.

(3) "حضُّك الإنسانَ على التمسك بما لديه لن يزيده إلا تمسكا به"، موسى ولد ابنو (وآخرون)، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **109**، صفحة **41**.

(4) "متطلبات أيام الشدة تجمع في فترات الرخاء"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **318**، صفحة **66**.

II. التشاور والتعاون

النماذج:

1. أخير الّ وَساهَا بَجْماعْتُه أُخَسْرَتْ امْنْ الّ وَساهَا وَحْدُه أُصَلْحتْ[1]،
2. الّ اخْزاتُه اجْماعتُه انْخْزَ[2]،
3. حمْلْ الجماعَة ريشْ[3]،
4. اتْفاكْ رحْمَة[4].

ترسم هذه الأمثال علاقة الفرد بالجماعة حيث ينصهر فيها ويخضع لها خضوعا مطلقا، إذ هي في الآن نفسه مصدر القوة ومالكة السلطة.

فالنموذجان الأول (أخير الّ وَساهَا بَجْماعْتُه أُخَسْرَتْ امْنْ الّ وَساهَا وَحْدُه أُصَلْحتْ) والثاني (الّ اخْزاتُه اجْماعتُه انْخْزَ) يبرزان محدودية قيمة الفرد أمام جماعته من خلال أفضلية النتيجة السلبية المتأتية عن الخيار الجماعي على النتيجة الإيجابية المترتبة على الفعل الفردي من جهة، ثم بإبراز قدرة الجماعة على تحديد موقع الفرد وقيمته، فهي التي تضفي عليه الصفة اللازمة وتمنحه النعت الملائم حسب سلوكه تجاهها وتبعا لامتثاله لضوابطها وقيمها.

أما النموذجان الثالث (حمْلْ الجماعَة ريشْ) والرابع (اتْفاكْ رحْمَة) فيفسران سيطرة المجموعة على الفرد بحاجته إلى منظومة تقدم له العون متى احتاجه وتمنحه إمكانية الحياة. إنه منطق التكافل الاجتماعي في بيئة يعول فيها كل فرد على عون الآخر خاصة إذا تعلق الأمر بالجماعة أو بالزعيم.

---

(1) "أن تخطئ مع الجماعة أفضل من أن تصيب وحدك"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **176**، صفحة **50**.

(2) "من خذله قومه فقد خُذل"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **559**، صفحة **96**.

(3) "حمل الجماعة خفيف مثل الريش"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **1331**، صفحة **199**.

(4) "الرفقة رحمة"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مص.سا.، المثل رقم **51**، ص. **34**.

III. احترام الزعامة

النماذج:

1. الّ بْلا اكْبيرْ بْلا آدْبيرْ[1]،
2. أرايْ اكْبِيرَكْ لا اتْعانْدُه[2]،
3. اكْلامْ اكْبِيرَكْ لا اتْخالْفُه[3]،
4. إشوفْ الشيخْ المتْكِي الّ ما شافْ أفَكْراشْ الواكَفْ[4].

تكاد النماذج الأول (الّ بْلا اكْبيرْ بْلا آدْبيرْ) والثاني (أرايْ اكْبِيرَكْ لا اتْعانْدُه) والثالث (اكْلامْ اكْبِيرَكْ لا اتْخالْفُه) تتحد في الفكرة وإن اختلفت في التعبير بين المثل الأول الذي يركز على دور الزعيم كضامن لإحكام استراتيجيات العمل (آدْبيرْ)، وبين المثلين (الثاني والثالث) اللذين يكادان يتحدان في الصياغة وإن اختلفا في معظم المفردات. ففي هذين النموذجين يصوغ المثل أمرا أو نصيحة تترتب على مضمون المثل الأول. فما دام "آدبير"- بمنطوق المثل- لا يوجد إلا عند هذا "الكبير"، فإن أي عناد أو مخالفة له يترتب عليهما بالضرورة ما لا تحمد عقباه.

ويقدم النموذج الرابع (إشوفْ الشيخْ المتْكِي الّ ما شافْ أفَكْراشْ الواكَفْ) تعليلا للنهي والنفي في المجموعة الثلاثية السابقة يعتمد على التجربة في اكتساب الحنكة وصحة تصور السيناريوهات المحتملة. إن الكبير هنا منجم للمعارف التي انبنت عبر تراكم التجارب وطول المراس.

---

(1) "من لا كبير له لا تدبير له"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **537**، صفحة **93**.

(2) "لا تخالف رأي كبيرك"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **217**، صفحة **54**.

(3) لا تخالف كلام كبيرك"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **497**، صفحة **88**.

(4) "يرى الشيخ المضطجع ما لا يراه الشاب الواقف"، **الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، مصدر سابق، المثل رقم **333**، صفحة **67**.

ولعل مما أسهم في تكريس هذه النظرة إلى الزعماء الطريقة التي بها يتبوأون مكانتهم. ففي القبيلة يتم اختيار الزعيم من بين أبرز القوم وأسنهم وأكثرهم بلاء واستعدادا للبذل والعطاء والتضحية. ويترتب على "الانتخاب" أن يقوم الزعيم في شؤون الصغير والكبير والعظيم والحقير.

IV. اليقظة تجاه العدو

النماذج:

1. الَعْدُو ما يُرَبَّاوْا[1]،
2. قليلُ العداوةِ يضرُّ[2]،
3. بابَتْ أَركاجْ يَفْلَشْ اعْدوهْ[3]،
4. ليْلَةْ فلْشَكْ هي ليْلَةْ حزْمَكْ وكذلك ليْلَتكْ من الفَلْشْ إلى ارْكَدْتْهَا تَنْتْفَشْ[4]،
5. الِّ اطْرحْ دبُّوسه تَنْكَبْظْلُه[5].

تتوزع هذه النماذج ثلاثة أفكار رئيسة.

فالنموذجان الأول (الَعْدُو ما يُرَبَّاوْا) والثاني (قليلُ العداوةِ يضرُّ) يحضان على عدم الاستهانة بالعدو مهما كانت درجة عداوته. وفي حين يركز النموذج الأول الحساني صياغة ومضمونا على التدرج في العداوة انطلاقا من المرحلة

---

(1) "لا تربي عدوا"، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 1859، صفحة 265.

(2) مثل فصيح يضرب لعدم الاستهزاء بالعداوة ولو قلت، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 2034، صفحة 287.

(3) "ذلك جزاء من يأمن شر عدوه"، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 1158، صفحة 175.

(4) "ليلة اطمئنانك هي ليلة حذرك"، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 2240، صفحة 313.

(5) "من فارق عصاه استخدمت ضده"، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية، مصدر سابق، المثل رقم 577، صفحة 99.

ANOH
المكتبة الرقمية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

العمرية (وهو ما تشير إليه عبارة "يربى" التي تعني أنه بعدُ صغير)، يركز المثل الثاني -وهو مثل عربي تم توطينه في اللهجة الحسانية بحيث يرد على ألسنة العامة والخاصة معا- على التفاوت في مستويات العداوة (قليل العداوة). فالعدو مهما كانت سنه أو درجة عداوته "يضر".

وفي النماذج الثالث (بابَتْ أَركاجْ يَفْلَشْ اعْدوهْ) والرابع (لِيْلَةْ فلْشَكْ هي لِيْلَةْ حزْمَكْ والخامس (لِيْلَتكْ من الفَلْشْ إلى ارْكَدْتْهَا تَنْتْفَشْ) تركز الصياغة على سذاجة من يأمن صولة ومكر عدو مهما بدت للعين العادية ظروف الأمان متوفرة. وما بين التشفي بمن يأمن العدو وبين الإلحاح على حتمية انتهائه إلى ما لا تحمد عقباه، تتباين الصياغات والمعنى واحد أو متقارب على الأقل.

وينفرد النموذج السادس (الِّ اطْرحْ دبُّوسُه تَنْكْبظْلُه) بتنمية الدلالة في اتجاه تعميم فكرة التمسك بالسلاح، وهو هنا العصا (الدبوس) لا تجاه العدو فقط، وإنما تجاه الجميع لأن من يلقي سلاحه يستخدم ضده!. إنها الصياغة الحسانية لمقولة زهير بن أبي سلمى القديمة: "من لا يظلم الناس يظلم"؛ فهل هو منطق السيبة في صحراء لا يأمن الناس فيها إلا "تحت كتاب أو ركاب"؟! كما يقول المثل الشعبي أم هو الاستعداد الدائم للدفاع عن النفس في محيط موسوم بالقساوة والضراوة؟

وختاما فإن نظرة سريعة إلى هذه المدونة الجزئية تقدم للدارس فكرة -ولو مجتزأة- عن جوانب من تميز المجتمع الموريتاني في نظرته لذاته وللأشياء من حوله، وفي إدارته للعلاقة بين مكوناته المختلفة.

وعسانا بتحليل نماذج هذه المدونة نكون قد وفقنا في إلقاء بعض الضوء على سر ديناميكية هذا المجتمع وقابليته الكبيرة لمواكبة التحولات والتكيف مع المستجدات والتأقلم مع الظرفيات. وهي ميزات يمكن -إذا ما توفرت الإرادات الخالصة الخيرة والآليات المؤسسية المناسبة والكفاءات البشرية المتميزة- أن تستثمر في اتجاه التسريع بوتيرة بناء وعصرنة الدولة. كما يمكن -في ظروف الفقر والتخلف المعرفي وفساد الإدارة- أن تستغل في تفكيك

منظومة هذا المجتمع القيمية وانفراط ارتباطاته الاجتماعية، وانجرافه -وربما انجراف المنطقة من حوله- لا قدر الله في منزلقات يصعب التنبؤ باتجاهاتها وبنتائجها.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

النص الثالث:

المكتبات الأهلية في موريتانيا

وتحديات البقاء

(مكتبات مدينة شنقيط نموذجا)[1]

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) قدم هذا البحث في الأصل مشاركة في ندوة دولية بعنوان: ملتقى الطرق الصحراوية (Carrefours Sahariens) نظمها المعهد الأمريكي للدراسات المغاربية (AIMS) وجمعية الأبحاث حول الغرب الإفريقي (WARA) بمدينة طنجة من 6 إلى 8 يونيو 2009.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

تمهيد

اهتم الموريتانيون خلال القرون الماضية بالتأليف واقتناء الكتب والمخطوطات شراء واستنساخا فتشكلت في نقاط عديدة من البلاد -خاصة في المدن التاريخية- مكتبات أهلية ضمت آلاف الوثائق المخطوطة والمطبوعة.

وبعيد الاستقلال رأت النور المكتبة الوطنية (1962) ومكتبات المدرسة الوطنية للإدارة (1966) والمدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين (1973) وجامعة نواكشوط (1981) والمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية (1981)، هذا فضلا عن قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي (1974) ومكتبات أهلية عديدة[1].

وظلت هذه المكتبات توفر خدمات مهمة للباحثين والطلبة والمهتمين من خلال مخزونها الوثائقي المخطوط والمرقون والمطبوع والمسموع بما في ذلك ما يقدمه المشرفون عليها من معلومات، فذاكرة بعض هؤلاء عبارة عن مكتبات موازية. غير أن هذه المكتبات اليوم (خصوصية كانت أو عمومية) تعاني جملة من المشاكل البنيوية والظرفية تهدد مستقبلها.

وقد ارتأينا أن نؤجل الحديث عن المكتبات العمومية إلى فرصة أخرى وأن نخصص هذه المداخلة للمكتبات الأهلية.

---

(1) أصبحت نواكشوط العاصمة تحتضن بعض المكتبات الأهلية والوقفية مثل مكتبة العرفان ومكتبات بعض الزوايا (الشيخ سيدي المختار الكنتي، الشيخ محمد المامي، الشيخ محمد اليدالي، إلخ.).

أولا. أسباب اختيار المكتبات الأهلية

يعود اختيارنا لهذه المكتبات إلى جملة اعتبارات لعل من أهمها:

✓ كون المكتبات الأهلية توجد تقريبا في عموم التراب الوطني،

✓ اشتمال هذه المكتبات على كثير من المخطوطات التي تتناول موضوعات متنوعة والتيْ تشكل تراثا مشتركا بين الموريتانيين وجيرانهم من العرب والأفارقة،

✓ خصوصية الظروف التي أفرزت هذه المكتبات، فقد امتازت المخطوطات الموريتانية المحفوظة بها بكونها ألفت أو استنسخت وحفظت تحت الخيمة أو داخل الكوخ أو العريش، بل تحت ظل الشجرة أحيانا، أي في ظروف حفظ بالغة السوء، مما يجعلها تعاني أكثر من غيرها من الوثائق مخاطر جمة سنستعرضها في مرحلة لاحقة من هذا البحث،

✓ كون هذه المخطوطات، وهي غالبية مخزون المكتبات الأهلية، تشكل موردا ثرا لعلم التاريخ والعلوم المساعدة. ذلك أن علم الآثار المتعلق بالمخطوطات (codicologie) وثيق الصلة بالتاريخ. فالمخطوطات وعاء لتاريخ وفكر وفن الأسلاف وذاكرة للأمم وإخبار عن الإنسان وعلاقاته بالبيئة، وهي إلى ذلك أصول الكتب المطبوعة لأن كل كتاب مطبوع كان يوما ما مخطوطا،

✓ تنوع مؤلفي هذه المخطوطات (علماء وفقهاء ومفتون ورحالة وحجاج وشعراء وأدباء ومؤرخون وجغرافيون وتجار ودبلوماسيون وساسة)، مما يثري وينوع محتوياتها،

✓ اشتمال هذه المخطوطات، بغض النظر عن موضوعاتها، على إشارات مفيدة للمؤرخ كالتكميلات والإهداء والشراء والعقود وتاريخ النسخ واسم الناسخ ونوعية الخط والورق ومصدر المخطوط، إلخ.

ثانيا. المكتبات الأهلية: التعريف والنشأة

نعني بالمكتبات الأهلية المكتبات الشخصية أو الأسرية أو الوقفية الموجودة:

- ✓ في المدن التاريخية (تيشيت، شنقيط، وادان، ولاته،)،
- ✓ في المراكز الحضرية العريقة (تجكجه، النعمة، بوتلميت، إلخ.)،
- ✓ في منطقة حوض نهر السنغال،
- ✓ في قرى ومخيمات وأحياء منتشرة بأنحاء البلاد الموريتانية،
- ✓ لدى هيئات أهلية (زاوية الشيخ سيدي المختار الكنتي، زاوية الشيخ محمد المامي، زاوية الشيخ محمد اليدالي، زاوية سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، إلخ)،
- ✓ في خارج موريتانيا[1] مثل مكتبة العلامة محمد محمود بن التلاميد (ت. 1904 بالقاهرة) الذي قام برحلات علمية متعددة إلى الحجاز ومصر وتركيا وإسبانيا جمع خلالها مكتبة تضم مئات الكتب المخطوطة والمطبوعة[2].

وتقدر المكتبات الأهلية في موريتانيا بحوالي 300 مكتبة وقفية أو خصوصية[3] متفرقة في مدن وقرى وأرياف موريتانيا. وتختزن هذه المكتبات

---

(1) اعتبرنا ما جمعه علماء شناقطة مهاجرون في الخارج وما حصلوه نقلا وشراء وسهروا الليالي لاستنساخه وقطعوا المسافات الشاسعة سعيا إلى الحصول عليه مخطوطات موريتانية ولو كان يوجد بأماكن متعددة خارج البلد (مصر، مالي، فرنسا، إلخ.).

(2) كان من ضمن مقتنيات هذه المكتبة مخطوطات تحتوي خصوصا على:

- ✓ نسخة من القاموس المحيط للفيروز آبادي،
- ✓ نسخ نادرة من دواوين الشعر وكتب اللغة والأدب.

(3) أحمد ولد محمد يحيى، "المخطوطات العربية والإسلامية في دول الساحل"، *مجلة الموكب الثقافي*، اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، العددان، 2 و3، نواكشوط، 1995، صص. 34-44، ص. 39.

تراثا مخطوطايعتقد أنه يبلغ حوالي أربعين ألف (40.000)[1] مخطوط تتناول موضوعات شتى.

وربما يستغرب المرء للوهلة الأولى ارتفاع هذه الأرقام بالنظر إلى قلة عدد سكان البلاد، غير أن ذلك الاستغراب يرتفع حين يلاحظ أن وجود هذا الكم الكبير نسبيا من المكتبات الأهلية والمخطوطات يجد تفسيره في النهضة الثقافية والنشاط المعرفي اللذين ميزا بلاد شنقيط خلال القرون الثلاثة الأخيرة، حيث كثرت التآليف ونشط اقتناء المخطوطات، فقلّ أن تجد مدينة أو قرية أو حتى نقطة تجمع لحي بدوي إلا وبها مكتبة أو مكتبات أهلية.

يتحدث البروفيسور الألماني أولرش ريبشتوك (Ulrich Rebstock)، وهو من أبرز المختصين بتاريخ الآداب الموريتانية عن هذا التراث المخطوط قائلا: "إن إنتاجه تطلب قرابة خمسة قرون، حيث قامت نخب تنتمي إلى أربعين جيلا بوصف الحياة المادية والفكرية عن طريق الكتابة. وقد مكنت هذه الجهود التاريخية من حفظ المخطوطات بأعداد كبيرة. فخلال المهمات التي قمت بها داخل موريتانيا رأيت بأم عيني في أكثر من ثلاثمائة مكتبة مختلفة الأشكال والأحجام زرتها مخطوطاتٍ قدرتها بما يتجاوز كثيرا ثلاثين ألف وثيقة. أضف إلى ذلك أن المؤلفات المجهولة وتلك التي أتلفتها عاديات الزمن تثري منتوج الموريتانيين الثقافي..."[2].

وقد لاحظ المستشرق الفرنسي بول ديبيى (Paul DUBIÉ) المتوفى سنة 1358هـ/1939 اعتناء الموريتانيين بالوثائق المكتوبة حين أكد "أن العديد من العلماء الموريتانيين يمتلكون مكتبات غنية. ويقوم بعضهم أحيانا برحلات إلى إفريقيا الشمالية وإلى الديار المقدسة. وهم يتوفرون على مستوى رفيع في

(1) أحمد ولد محمد يحيى، "**المخطوطات العربية والإسلامية...**"، المرجع السابق، ص. **39**. غير أن هذا العدد يتعلق فقط بجزء المخطوطات الموريتانية الموجود داخل البلاد.

(2) أولرخ ريبشتوك، **مخزون المخطوطات في موريتانيا: انطباعات، تجارب شخصية وآفاق**، مداخلة مقدمة في ندوة دولية حول المخطوطات الموريتانية، برلين سبتمبر **2015**.

مجال العلوم الدينية والشرعية"[1].

ومن الطريف أن الحصول على الكتاب لدى الموريتانيين كان من باب "الضرورات التي تبيح المحظورات". فقد أثر عن الموريتانيين قولهم: إن الضنّ بأي شيء عن الهبة عيب إلا الكتب، وإن كل سؤال يُعد عيبا إلا سؤال الكتب، وإن السرقة فعل مجرم في الدين والعرف إلا إذا كان المسروق كتابا، إلخ.

وقد أسس الموريتانيون مكتباتهم الأهلية معتمدين على مصادر متعددة لعل من أهمها الشراء والتأليف والاستنساخ والإهداء.

وكان من النادر أن يسافر أحد الشناقطة إلى المشرق أو إلى المغرب العربيين إلا وعاد ببعض الكتب والمخطوطات المجموعة شراء أو استنساخا أو إهداء. فهاهو الطالب أحمد ولد اطوير الجنة الحاجي الوادادي (ت. سنة 1265هـ/1849) يعود من رحلته إلى الحج بأحمال من الكتب.

ويسرد العلامة محمد يحيى الولاتي (ت. سنة 1330هـ/1912) قائمة تربو على 100 كتاب أهديت له في تونس أثناء عودته من رحلة الحج.[2]

ويشير العالم الموريتاني بابَه بن أحمد ببيَه (ت.1276هـ/1859) إلى كثرة الكتب التي رجع بها الشيخ سيديا الكبير (ت. سنة 1284هـ/1868) من رحلته إلى المغرب قائلا:

أضاءت بلاد الغرب لمَّا أتيتها وأصبح يبكي عند ترحالك الغرب

وجئت بكتب يعجز العيس حملها وعندك علم لا تحيط به الكتب

ويبدو أن الموريتانيين نقلوا تعلقهم بالمتون إلى تلامذتهم، فهاهو السنغالي ابن المقداد دودو سك (ت.سنة 1362هـ/1943) عند وفاة والده المختار سك سنة 1299هـ/1882 يختار نصيبه من التركة كتاب الذهب الإبريز

(1) Paul Dubié, **La vie matérielle des Maures**, Mémoires de l'Institut Français de l'Afrique Noire (I.F.AN.), n°**23**, Dakar, **1953**, pp. **111-252**, p., p. **119**.

(2) محمد يحيى الولاتي، **الرحلة الحجازية**، تخريج وتعليق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ومعهد الدراسات الإفريقية، الرباط، **1990**، صص. **275-276**.

في تفسير كتاب الله العزيز للشيخ محمد اليدالي (ت. سنة 1753/1166)، فيقول مخاطبا إخوته بهذا الشأن:

أقول إذ نظرت عيني إلى كتبٍ نفيسة إذ مضى عبد الإله أبي

بالدُّورِ يا إخوتي فوزوا وبالذهب فحسبيَ الذهب الإبريز من ذهب

وتجدر الإشارة إلى أن جزءا كبيرا من المخطوطات الموريتانية الموجود ضمن المكتبات الأهلية في طول البلاد وعرضها لم تصله بعد أيدي الباحثين مما يجعله تراثا بكرا قد لا يخلو من ثراء وقيمة تاريخية، وبالتالي فإن البحث عنه وإضافته إلى التراث المكتبي الموريتاني وانتشاله من المخاطر يعتبر مهمة ملحة.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ثالثا. العناية بالمكتبات الأهلية

سنقصر الحديث في هذا المجال على الفترة الاستعمارية وفترة الاستقلال حيث نتوفر على بعض المعلومات المتعلقة بهذه العناية.

1 -أثناء الفترة الإستعمارية:

اهتم بعض الباحثين –خاصة من الفرنسيين- بهذه المكتبات الأهلية منذ مطلع القرن العشرين، أي بعيد إخضاع البلاد للاستعمار الفرنسي.

وكان المستشرق الفرنسي لويس ماسينون[1](Louis Massignon) المتوفى سنة 1382هـ/1962م من أوائل الفرنسيين الذين اعتنوا بالتراث الموريتاني المكتوب، فقد نشر سنة 1909 تقديما لمكتبة الشيخ سيديا الكبير تضمن قائمة بـ 1195 مخطوطا.

وفي سنة 1916 نشر الفرنسي بول مارتي[2](Paul Marty) المتوفى سنة 1356هـ/1938 ضمن كتابه الإسلام في بلاد البيضان (L'Islam Maure) جردا لمكتبة الشيخ أحمد بن سليمان (تـ سنة 1363هـ-1944م) يحتوي 240 كتابا من ضمنها 174 مخطوط.

واعتنى الفرنسيون كذلك بصنف بالغ الأهمية من المخطوطات الموريتانية هو حوليات المدن التاريخية حيث ترجم بول مارتي ونشر حوليات مدينتيْ ولاتة والنعمة[3].

كما ترجم المستشرق فينصانه مونتايْ (Vincent Monteil) المتوفى سنة

---

(1) Louis Massignon, "**Une bibliothèque saharienne**", Revue du Monde Musulman, n°8, **1909**.

(2) Paul Marty, **L'Islam maure**,

(3) **Chroniques de Oualata et de Nema**, Traduit par Paul Marty, *Revue des Etudes Islamiques*, t. 1, Cahiers 3 et 4, Librairie Orientaliste Paul Geuthner.

1426هـ/2005 ونشر حوليات مدينة تيشيت[1].

وفي سنة 1950 نشر الأستاذ المختار بن حامد (ت. سنة 1414هـ/ 1993م) والباحث الفرنسي آلبير لريش (Albert Leriche) جردا بيبليوغرافيا للمخطوطات الشنقيطية[2].

2 -بعد الإستقلال:

في منتصف الستينيات قام الباحث المختار بن حامد والخبير الدولي آدمْ هيموفسكي (Adam Heymowski) المتوفى سنة 1415هـ/1995 بوضع فهرس مؤقت للمخطوطات ضمَّناه أزيد من 2000 مخطوط لحواليْ 394 مؤلفا موريتانيا[3].

ثم أنجز المختار بن حامد قائمة للمخطوطات الفقهية الموريتانية تتضمن اسم المؤلف وتاريخ وفاته وعنوان المخطوط ومظنة وجوده[4].

وفي سنة 1965 نشر الفرنسي فينصان مونتاي بحثا بعنوان "المخطوطات التاريخية العربية الإفريقية"[5].

وحين رأى المعهد الموريتاني للبحث العلمي النور سنة 1974، أسندت إليه مهمة العناية بالمخطوطات فتم إنشاء قسم خاص بالتراث الموريتاني المخطوط.

---

(1) **Chroniques de Tichit**, Traduit par le Lieutenant Vincent Monteil, *Bulletin de l'IFAN*, t. **1**, **1939**, n°**1**.

(2) Albert Leriche et Moktar Hamidoun, "**Curiosités et bibliothèques de Chinguetti**", *Notes Africaines*, numéro **48** (**1950**), pp **109-112**.

(3) المختار بن حامد وآدم هيموفسكي، **الفهرس المؤقت للمخطوطات العربية الموريتانية المحفوظة في موريتانيا**، نواكشوط وستوكهولم **1965-1966**.

(4) نشره الأستاذ محمد المختار بن اباه ملحقا بكتابه، **دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي**، منشورات الجامعة التونسية، تونس، صص.**99-127**، **1981**.

(5) Vincent Monteil, "**Les manuscrits historiques arabo-africains**", *Bulletin de l'IFAN*, t.XXVII, n°**3** et **4**, **1965**, pp. **531-543** et t.XXVIII, n°**3** et **4**, **1966**, pp. **670-675**.

وبعد مرور أزيد من أربعة عقود عرف هذا المعهد خلالها فترات من النجاح والإخفاق أصبح يمتلك عن طريق التصوير والشراء مخزون مخطوطات يربو على ستة آلاف وثيقة موزعة على النحو التالي:

- ✓ مخطوطات منظمة ومفهرسة تبلغ 3628 منها 260 مخطوطا مرمما،
- ✓ وثائق وعقود ومراسلات تاريخية تبلغ 1500، وهي تحتاج الحفظ والتنظيم،
- ✓ دواوين شعرية تبلغ 440، وتحتاج المراجعة والتحقيق،
- ✓ نوازل فقهية تبلغ 150، وتحتاج المراجعة والتحقيق،
- ✓ مخطوطات غير منظمة أو مجهولة المؤلف أو ناقصة البداية أو النهاية، وهي في حاجة ماسة إلى العناية.

ومن ضمن هذا المخزون الوثائقي 800 وثيقة مصورة على الميكروفيلم و250 على الميكروفيش تم اختيارها على أساس الندرة والقيمة التاريخية والعلمية من 200 مكتبة أهلية موزعة على 80 بلدة في مختلف مدن وقرى وأرياف موريتانيا.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

كما تمكن المعهد في إطار التعاون الخارجي[1] من إنجاز فهرس لمكتبة أهل الشيخ سيديا بمدينة أبي تلميت[2] ونشر فهارس لجزء من المخطوطات العربية بموريتانيا[3] وأخرى لمخطوطات المعهد الموريتاني للبحث العلمي[4] ومخطوطات شنقيط ووادان[5] .....

---

(1) شمل هذا التعاون شخصيات أو مؤسسات إسلامية وأوروبية وأمريكية.

(2) **فهرس مكتبة أهل الشيخ سيديا** بمدينة أبي تلميت، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، **1987**.

(3) **فهرس المخطوطات العربية في موريتانيا**، نشر بدعم من التعاون الألماني وبعناية أولرخ ريبشتوك، ورينير أوسوالد وأحمدو عبد القادر، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، **1988**.

(4) **فهرس مخطوطات المعهد الموريتاني للبحث العلمي**، نواكشوط، **1988**.

(5) **فهرس مخطوطات شنقيط ووادان**، إعداد أحمد ولد محمد يحيى وتحقيق أولرخ ريبشتوك، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، **1997**.

ومخطوطات النعمة وولاتة[1].

كما نشر المعهد مؤخرا فهارس مخطوطات مدن تيشيت[2] وولاته[3] وشنقيط[4] ووادان[5]، هذا فضلا عن تجهيز فهرس مخطوطات النعمة للنشر.

وكانت مساهمة التعاون الألماني قيمة في مجال التراث الثقافي وخاصة المخطوطات، ففي نهاية المطاف قادت جهود وتضحيات البروفيسور أولرش ريبشتوك (Ulrich Rebstock) وزميله الأستاذ رينير أوسوالد (Rainer Osswald) المتمثلة في تصوير المخطوطات الموريتانية ووضعها على ميكروفيلم؛ قادت تلك الجهود الحميدة إلى إطلاق موقع "عمر"[6] (Site Oumar) بجامعة فرايبورخ الألمانية وهو خاص بالمخطوطات الموريتانية ويتيح الاستفادة المجانية من حوالي 2600 مخطوط موريتاني، تم تصويرها خلال رحلات بحثية قام بها هذا الأستاذ عبر موريتانيا وامتدت لما يناهز عشرين سنة ثم وضعت على ميكروفيلم قبل رقمنتها وإدراجها ضمن الموقع المذكور[7].

---

(1) فهرس مخطوطات نعمة وولاتة (موريتانيا)، بعناية أحمد ولد محمد يحيى وأولرخ ريبشتوك وإبراهيم شبوح، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2003.

(2) فهرس مخطوطات تيشيت، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، الجزء الأول (517 صفحة) الجزء الثاني (421 صفحة)، نواكشوط، 2013.

(3) فهرس مخطوطات ولاتة، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 2014.

(4) فهرس مخطوطات شنقيط، منشورات المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث، الجزء الأول (498 صفحة) الجزء الثاني (508 صفحة)، نواكشوط، 2015.

(5) فهرس مخطوطات وادان، منشورات المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث، نواكشوط، 2016.

(6) يمكن الاطلاع على هذا الموقع عبر الرابط التالي:
http://omar.ub.uni-freiburg.de/index.php?id=databankfullview

(7) يمكن أيضا الرجوع إلى الدراسة القيمة التي نشرها هذا الأستاذ حول تاريخ الآداب الموريتانية:
Ulrich Rebsock, **Mauriche Literaturges**, band 1, Ergonverlag, **2001**.
وكذلك إلى العمل الجاد الذي أنجزته الباحثة الألمانية كراف كينهيلد حول كتاب الأعداد لأحمدو ولد أحبيب:

وبفضل هذا التعاون الألماني أيضا تم نشر ثمانية أجزاء من موسوعة "حياة موريتانيا" للأستاذ المختار ولد حامد، صدرت أربعة منها[1] سنة 2009 ونشرت الأجزاء الأربعة الأخرى[2] سنة 2013.

وفي سنة 2000 رأى النور مشروع صيانة وتثمين التراث الثقافي الموريتاني، وذلك بموجب اتفاقية قرض موقعة بين الحكومة الموريتانية والبنك الدولي في أكتوبر 2000 تمنح هذه المؤسسة المالية بمقتضاها قرضا بمبلغ ستة ملايين (6.000.000) دولار أمريكي (حوالي 1,57 مليار أوقية في ذلك الوقت) لموريتانيا موجهة لصالح التراث الثقافي للبلد.

وكان هدف هذا المشروع الأساسي هو وضع استراتيجية موريتانية في مجال التراث الثقافي بما فيه المخطوطات.

وقد نظم المشروع خلال إبريل 2002 ندوة دولية حول المخطوطات

Graf, Gunhild. *Kitāb al-aʿdād al-musammāsullam al-ʿilmwa l-ādābwa-miʿrāğ al-hikma wa-faṣl al-ḫitāb: EinemaurischeEnzyklopädie des islamischenWissensausdem 20. Jahrhundert, Ğuzʾ 1-6, von Ahmad b. Ahbaiyib, Vol I: Einleitung; Vol. II: Edition.* CodicesArabiciantiqui **13/1-2**. Wiesbaden: Harrassowitz, **2014**.

(1) يتعلق الأمر بالأجزاء السادس (تجكانت)، والسادس عشر (بعض المجموعات الشمشوية)، والسادس والعشرون (بنو حسان) والثلاثون (ممالك السودان وأعلامهم)، تصحيح ومقابلة: يحيى ولد البراء والحسين بن محنض، منشورات الزمن، الرباط، **2009**.

(2) هذه الأجزاء التي صدرت عن دار الزمن بالرباط هي:

- ✓ الجزء الثالث عشر (المدلش)، إشراف: محمدو محمدن أميّن وألريش ريبشتوك، مراجعة الأستاذ محمد يحيى ولد سيد أحمد وتصحيح ومقابلة أمين بن محمدن بن حامدن.
- ✓ الجزء الخامس عشر: (إدوداي)، إشراف: محمدو محمدن أميّن ومحمد ولد مولود ولد داداه وألريش ريبشتوك، مراجعة وتعليق: أحمدو بن اتّاه بن حمينّ والراجل بن أحمد سالم، تصحيح ومقابلة أمين بن محمدن بن حامدن.
- ✓ الجزء الثاني والثلاثون (وفيات الأعيان)، تحقيق سيد أحمد ولد أحمد سالم، أحمد مولود ولد أيده ومحمدو محمدن أمين.
- ✓ جزء إدوعيش، تحقيق سيدي أحمد ولد أحمد سالم ومراجعة محمد ولد الدي.

الموريتانية بهدف:

✓ تعميق التفكير حول إشكالية هذه المخطوطات وسبل ووسائل توجيه وتنسيق المعالجة والحفظ والتثمين على الصعيد الوطني.

✓ إعداد سياسة وطنية وخطط وبرامج لحماية وتثمين المخطوطات الموريتانية بالاشتراك مع ملاك المخطوطات.

وقد خرجت هذه الندوة بجملة من الاقتراحات لعل من أبرزها:

✓ تحسيس الرأي العام بقيمة هذه المخطوطات مضمونا وشكلا،

✓ إعداد خريطة وطنية شاملة للمكتبات الخصوصية التي تحتوي على بعض المخطوطات،

✓ خلق إطار فني لجرد وفهرسة المخطوطات،

✓ إعداد ونشر فهارس مكتبات المخطوطات العامة والخاصة،

✓ إنشاء شبكة وطنية للرابطات الموريتانية المهتمة بالمخطوطات،

✓ إعداد مشروع قانون لحماية المخطوطات[1].

وقد قام المشروع بعملية جرد للمخطوطات على الصعيد الوطني أسفرت عن حصر أزيد من 23 ألف مخطوط وضعت ضمن قاعدة بيانات شملت مختلف المعلومات المتعلقة بالمخطوط (المكان، النوع، الموضوع، المؤلف، التاريخ، الدعامة، الحالة الراهنة، الصفحات، إلخ).

وفي مجال حفظ المخطوطات اقتنى المشروع أربعين ألف (40.000) حاوية خاصة صممها فني بالمكتبة الوطنية بباريس، وهي تراعي القواعد العلمية الجديدة للحفظ وتضع في عين الاعتبار الحرارة والرطوبة والتهوية ضمانا لمقاومة تقلبات الطقس والمناخ. كما أن هذه الحاويات خالية من المواد الحمضية والملوثة ومحكمة الإغلاق، وبالتالي فهي مضادة للتآكل والصدأ. وكان من المقرر أن توزعها إدارة المشروع مجانا على ملاك

(1) راجع: أعمال الندوة الدولية حول المخطوطات الموريتانية، منشورات مشروع صيانة وتثمين التراث الثقافي الموريتاني، نواكشوط (موريتانيا)، **2002**.

المخطوطات لحفظها. وبعد أن قبعت هذه الحاويات عدة سنوات في مخازن ميناء نواكشوط تمكن المعهد الموريتاني للبحث العلمي أخيرا من "فك أسرها" لتوزع على ملاك المخطوطات.

كما مول المشروع إنجاز دار عمومية للمخطوطات في مدينة شنقيط، لم يكن الهدف من بنائها مجرد حفظ المخطوطات، وإنما استثمارها أيضا في نطاق السياحة الثقافية.

ومراعاة للطرق الحديثة في حفظ وعرض المخطوطات المتبعة في العالم استقدم المشروع لتأسيس هذه الدار مهندسين مختصين في الفن المعماري وفي حفظ المخطوطات وتخزينها وعرضها المغري. ورغم أن الجناح (أ) من هذه الدار قد اكتمل بناؤه فعليا منذ عدة سنوات، فإن أصحاب المكتبات الأهلية بشنقيط يرفضون حتى اليوم نقل مخطوطاتهم إليه[1] مع أنه سيساهم مساهمة فعالة في حفظها من عوادي الزمن وغيرها من التحديات المحدقة.

المكتبة الرقمية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) ربما يعود ذلك إلى بعض الخلافات في صفوف ملاك المخطوط يمكن التغلب عليها بالحكمة والمرونة وإقناعهم باختيار من يثقون فيه من بينهم ليتولى تسيير الدار أو تسييرها بطريقة مشتركة أو عن طريق التناوب.

رابعا. المكتبات الأهلية أمام التحديات

تواجه المكتبات الأهلية في موريتانيا جملة من التحديات تهددها في الصميم، بعضها ناجم عن الظروف الطبيعية للبلد وبعضها الآخر متعلق بالظروف الاقتصادية والاجتماعية والمؤهلات العلمية والمهنية لمن يتولون حيازتها والإشراف عليها.

1 -التحديات الطبيعية:

تمتاز الظروف الطبيعية في البلاد عموما بالقسوة، حيث تعاقب البرودة والحرارة واتساع المدى الحراري في الصحراء.

وكثيرا ما تتعرض المنطقة لبعض الكوارث الطبيعية من فيضانات وجفاف وتصحر وحرائق وأمراض معدية وأوبئة، الشيء الذي يلحق الضرر بالمحيط الطبيعي والبشري بصفة عامة مما يؤثر سلبا على ملاك المخطوطات وعلى تراثهم المكتوب في أحيان كثيرة.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وليس الضرر الناتج عن الكوارث الطبيعية بأقل من التلف العائد إلى تأثير الآفات الحيوانية الضارة (الأرضة، السوس، العثة، الفئران، الصراصير، إلخ) التي تلحق أضرارا بالغة بالمخطوطات.

ولا تساعد ظروف "حفظ" المخطوطات في حمايتها من هذه الآفات، إذ أنها في معظم الأحيان موضوعة في حاويات غير ملائمة (صناديق خشبية أو معدنية مهترئة، أوعية جلدية)، بل إنها قد تكون معرضة مباشرة لتأثيرات الطقس المتقلب وللحشرات الضارة دون حماية لأن من بين ملاك هذه المخطوطات من لا تسمح إمكانياته المادية بالحصول على وسائل لحفظها.

2 -التحديات البشرية:

لا يساعد نمط حياة ملاك المخطوطات، وكانوا -في الغالب- بداة متنقلين خوفا من خطر محدق أو بحثا عن الماء والكلأ للمواشي التي يعتمدون عليها

في حياتهم، على حفظ وصيانة هذه المخطوطات، فكثيرا ما كان بعض هؤلاء الملاك يضطر أثناء التنقلات إلى ترك مخطوطاتهم في أماكن غير آمنة، فقد يعمدون إلى ردمها قرب شجرة كبيرة أو في كهف مميز أو على مسافة معينة من بئر معروفة تسهيلا للاهتداء إليها متى ما سنحت الظروف التي قد لا تساعد في العودة إليها مطلقا.

وعندما خفت وطأة الفوضى بعد خضوع البلاد للاستعمار في مطلع القرن العشرين ازداد الطين بلة، إذ تعرضت المخطوطات للنهب والاستحواذ وربما الإتلاف، حيث تذكر الروايات[1] أن ضابطا فرنسيا أشعل النار في مكتبات أهلية بمنطقة غيديماغَه عقابا لشيوخ محاضر مقاومين للتوسع الفرنسي داخل البلاد الموريتانية.[2]

وجراء التدهور المستمر لأحوالهم المادية، أصبح معظم ملاك المخطوطات يعانون الفقر ومحدودية الإمكانات فضلا عن النقص الكبير في الخبرة وعدم وعي بعضهم بأهمية المخطوطات وجهل طرق صيانتها ناهيك عن أساليب تأهيلها...، وكلها عوامل تزيد من المخاطر المحدقة بهذا التراث الثقافي القيم.

وهناك آفة معاصرة هي سرقة وتهريب المخطوطات إلى الخارج، ففي غياب نصوص قانونية واضحة وصارمة ورادعة أصبح السماسرة والتجار يستحوذون على المخطوطات بمختلف الطرق، لتهريبها وبيعها خارج البلاد مستفيدين من الظروف المتدهورة لبعض ملاك المخطوطات الذين قد لا يعطونها من العناية والأهمية ما كان لها عند آبائهم وأجدادهم.

ثم إن طبيعة نمط السكن المنتشر عبر مختلف أنحاء البلاد الموريتانية

---

(1) عبد الله ولد الشيخ المحفوظ ولد بيه، "**المحاظر: مكانتها التاريخية ودورها المستقبلي المطلوب**"، (صص. **26-34**) ضمن: "**فعاليات الندوة الدولية الأولى حول التراث الثقافي الموريتاني**"، المطبعة السريعة، نواكشوط، **2000**، ص. **28**.

(2) محمد المحجوب ولد بيّه **المقاومة السونينكيه للاستعمار في كيدي ماغه**، منشورات مكتبة **21/15**، نواكشوط، **2010**.

(الخيمة، الكوخ، العريش، إلخ) ليست مناسبة لحفظ المخطوطات.[1]

إن هذه العوامل الطبيعية والبشرية، مع عوامل أخرى عديدة لا يسمح المقام بسردها، جعلت المكتبات الأهلية بموريتانيا في خطر جسيم. وبما أن السياق لا يسمح باستعراض هذه المكتبات المنتشرة في عموم موريتانيا، فقد اقتصرنا في هذه العجالة على المكتبات الأهلية في مدينة شنقيط، مركزين الاهتمام على مكتبة أهل حبت الوقفية بوجه خاص.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) ما زلت أتذكر تعليق المستشرق الفرنسي الشيخ داود (Denis GRIL) من جامعة بروفانص أكس-مارسيليا 2 (Aix Marseille-II) أثناء زيارة قمنا بها خلال شهر مايو **2001** لمكتبة زاوية الشيخ محمد اليدالي في ضواحي نواكشوط حين قال في تأثر عميق وهو يرى الظروف التي "تحفظ" فيها محتويات هذه المكتبة: "لا يستطيع المرء إلا أن يذرف الدموع، وهو يشاهد هذا التراث الثقافي الثري، في وضعية يرثى لها".

خامسا. مكتبات مدينة شنقيط

اضطلعت مدينة شنقيط بأدوار علمية وثقافية ودينية وتجارية مهمة مما بوأها مكانة متميزة في تاريخ البلاد الثقافي[1] لدرجة أصبحت معها هذه الربوع خلال فترة من الزمن تحمل اسم "بلاد شنقيط" من باب "تسمية الشيء باسم بعضه"[2]. وربما كان لانطلاق ركب الحجاج الشنقيطي من هذه المدينة متجها إلى الديار المقدسة عبر أقطار شمال إفريقيا ومصر فالحجاز،صلة بهذه التسمية التي يعتقد أنها ظهرت أول ما ظهرت في المشرق.[3]

وكان لركب الحج الشنقيطي وتصميم العلماء والفقهاء على اقتناء الكتب من مختلف الحواضر العربية والإسلامية التي يمرون بها أثناء حجهم دور مهم في انتشار المكتبات بمدينة شنقيط، حيث تذكر بعض الروايات وجود مكتبة

---

(1) راجع كلا من:

- ✓ ددود ولد عبد الله، **الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر** (17 - 18م)، منشورات مركز الدراسات الصحراوية بجامعة محمد الخامس، الرباط (المغرب)، **2015**.
- ✓ محمد الأمين الناتي، **الحياة العقلية في مدينة شنقيط خلال قرون ثلاثة قبل حلول الفرنسيين (1630-1930)**، بحث لنيل ديبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، الرباط، **1997**.

(2) يقول صاحب الوسيط: "وشنقيط في الأصل: تطلق على مدينة من مدن آدرار، واقعة فوق جبل، في جهة غرب الصحراء الكبرى،ثم سمي بها القطر كله"، راجع: أحمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر ومؤسسة منير، نواكشوط/موريتانيا، الطبعة **4**، **1989**، ص. **422**.

(3) يذكر سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم أن قافلة الحج كانت تنطلق سنويا من شنقيط (المدينة) وتضم حجاجا قادمين من جميع الأنحاء مضيفا "أن سكان هذه البلاد، أعني من الساقية إلى السودان إلى أروان يعرفون عند أهل المشرق إلى الآن بالشناقطة"، راجع: **صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمد غل**، تحقيق التجاني ولد عبد الحميد، منشورات وحدة المنارة للدراسات والبحوث والتحقيق، جامعة نواكشوط، **2016**، ص.**12**.

أهلية في كل دار أو خيمة بهذه المدينة.[1]

ولا نستغرب أن يكون للنهضة الثقافية والعلمية التي عرفتها المدينة علاقة بالازدهار الاقتصادي الناجم عن دورها في التجارة عبر الصحراء. غير أن الاضطرابات التي شهدتها البلاد -خاصة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر- والانعكاسات السلبية للسيطرة الاستعمارية[2] وتتابع فترات الجفاف والتصحر التي أرغمت كثيرا من سكان المدينة على النزوح منها إلى مدن أخرى فضلا عن وفاة العلماء والمشايخ الكبار الذين أسسوا واحتضنوا تلك المكتبات وأصروا على حمايتها وتغذيتها بالكتب والمصنفات تأليفا وشراء واستنساخا؛ كل ذلك جعل مكتبات المدينة تعرف تراجعا ملحوظا كرسه أكثر انقطاع الناس عن التعليم الأصلي وهجرانهم لمكتباته، إذ يذكر رئيس قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي أن عدد هذه المكتبات بالمدينة في بداية ثمانينيات القرن المنصرم كان يقارب عشرين مكتبة عاين شخصيا 15 منها واطلع على مقتنياتها[3] مشيرا إلى أن هذا العدد انخفض سنة 1994 إلى ست مكتبات توجد في ظروف صعبة للغاية ولا تتوفر على أي وسائل للحفظ والصيانة..."[4]

ANCH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) أحمد ولد محمد يحيى، "**المخطوطات العربية والإسلامية...**"، مرجع سابق، ص. **42**.

(2) يدخل في هذا النطاق ثأر الفرنسيين من بعض رجال المقاومة عن طريق حرق بعض المخطوطات الذي أشرنا إليه قبل حين وهجرة بعض العلماء والفقهاء بعيدا عن مكتباتهم بدعوى وجوب الهجرة من أرض تحكم فيها الكافر المتغلب. وتعتبر هجرة سيدي أحمد ولد حبت (ت. سنة **1373** هـ/ **1954**) مثالا في هذا الصدد تطبيقا لتأليفه: "مهدية الحيارى إلى حكم من غلب على وطنه النصارى" حيث ألحقت هجرته أضرارا كبيرة بمكتبته.

(3) يتعلق الأمر بمكتبات: أهل حبت، أهل فال، أهل عبد الحميد، أهل أحمد محمود، أهل محمد ولد لوداعة، أهل الخرشي، زاوية الشيخ حماه الله، أهل عبد الرحيم بن الطلبة، أهل حامني، أهل السبتي، أهل الديدي، أهل أحمد شريف، أهل بدي وأهل الحاج بن أحمد البشير. راجع: أحمد ولد محمد يحيى، "**المخطوطات العربية والإسلامية...**"، ص. **42**.

(4) يضيف أنه أشرف شخصيا على وضع فهارس لها، وهي مكتبات: أهل حبت، أهل أحمد شريف أهل حامني أهل عبد الحميد، أهل لوداعة وأهل السبتي. راجع: أحمد ولد محمد يحيى، "**المخطوطات العربية والإسلامية...**"، مرجع سابق، ص. **42**.

ويبدو أن وضعية المكتبات في المدينة عرفت بعض الانتعاش -على الأقل من حيث العدد- خلال السنوات الأخيرة، ذلك أن بحثا حديثا[1] يورد قائمة تضم اثنتين وعشرين مكتبة أهلية بمدينة شنقيط في مقدمتها مكتبة أهل حبت.

مكتبة أهل حبت

لقد ارتأينا أن نقدم هذه المكتبة نموذجا للمكتبات الأهلية في شنقيط لصعوبة استعراض مختلف مكتبات هذه المدينة.

1 -مسوغات الإختيار:

يجد اختيارنا لهذه المكتبة -نموذجا لمكتبات مدينة شنقيط- مسوغاته في كونها:

- ✓ **من حيث تاريخ التأسيس**: تعتبر من أقدم المكتبات في مدينة شنقيط،
- ✓ **ومن حيث الكم**: تحتوي على أكبر مخزون وثائقي مخطوط في المدينة (1400 مخطوط)،
- ✓ **ومن حيث النوع**: تحتضن مخطوطات نادرة من ضمنها أقدم مخطوط في البلاد[2]،
- ✓ **ومن حيث المقر**: صممت بشكل يجعلها من أكثر المكتبات المحلية توفرا على المواصفات الفنية الضرورية للمكتبة، إذ يتألف هذا المقر من دار قديمة رممت لتتلاءم مع متطلبات المكتبة، وتشتمل على:
  - قاعة لحفظ المخطوطات،

ANOH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) محمد عبد الله ولد محمد الولي، **مكتبات شنقيط: دورها العلمي وإشعاعها الثقافي**، بحث لنيل شهادة المتريز، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، **2008**، صص. **13 14**، أي أنه ذكر المكتبات **15** التي كانت موجودة في المدينة في بداية الثمانينيات وأضاف إليها سبع مكتبات جديدة هي: مكتبة الأصالة، مكتبة المنارة، مكتبة أهل الإمام، مكتبة أهل ونان، مكتبة أهل البشير ومكتبة أهل بهيه ومكتبة بلاهي ولد الطالب.

(2) النسخة الأصلية من **تصحيح الوجوه والنظائر في تفسير القرءان** لأبي هلال الحسين بن عبد الله العسكري البغدادي، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة **480هـ/1087م**.

- قاعة للمطالعة،
- قاعة للاجتماعات،
- محضرة لتدريس القرآن،
- نواة لمتحف أثري.

2 -النشأة:

تأسست هذه المكتبة على يد الفقيه سيدي محمد بن سيدي أحمد بن محم بن حبت، المولود في حدود 1190هـ/1776. وقد تمكن هذا العالم من تشييد هذه المكتبة وتغذيتها بمؤلفاته الخاصة[1] ومن الكتب والمخطوطات التي جمعها شراء واستنساخا في مدينة شنقيط أو خلال رحلاته العلمية والدينية.

وكان سيدي محمد ولد حبت ثريا مما ساعده على اقتناء الكتب بشتى الوسائل[2] إثراء لهذه المكتبة التي كانت تضم إبان وفاته سنة 1287هـ/1871 حواليْ 1400 مخطوط في مختلف الفنون.

وضمانا لاستمرارية المكتبة وتيسيرا لاستفادة الجمهور منها فقد حبسها حبسا معقبا على أبنائه الذكور بالشروط التالية:

- ✓ أن يكون المشرف عليها أحد أبنائه ممن يتصف بالتقى وحسن السلوك والرشد،
- ✓ أن تفتح أمام جميع الراغبين في الاستفادة منها،
- ✓ أن لا تنقل خارج مدينة شنقيط.

3 -محتويات المكتبة:

تضم مكتبة أهل حبت حواليْ 2000 عنوان من ضمنها 1400 مخطوط تتناول علوم القرءان الكريم والحديث الشريف والتوحيد والسيرة النبوية

(1) ناهزت هذه المؤلفات **30** مصنفا في القرءان وعلومه والفقه وأصوله واللغة العربية وآدابها، أنظر: محمد عبد الله ولد محمد الولي، **مكتبات شنقيط**، مرجع سابق، ص. **28**.

(2) محمد عبد الله ولد محمد الولي، **مكتبات شنقيط**، مرجع سابق، ص. **23**.

والتصوف والفقه واللغة العربية وآدابها والحساب والطب والفلك والحكمة والتاريخ.

وقد تمت لحد الساعة فهرسة حوالي 1300 عنوان من محتويات هذه المكتبة، موزعة بين أربعة أجزاء على النحو التالي[1]:

الجزء الأول: يضم هذا الجزء 288 عنوانا على النحو التالي:

القرآن الكريم	23	مصحفا
علوم القرآن	87	مصنفا
الحديث وعلومه	61	مصنفا
التوحيد	117	مصنفا

الجزء الثاني: يختص هذا الجزء بالفقه وأصوله ويضم:

أصول الفقه	409	مصنفا وفتوى

الجزء الثالث: يشتمل على 356 مؤلفا توزع على النحو التالي:

السيرة النبوية	75	تأليفا
التصوف	81	تأليفا
اللغة العربية وآدابها	200	تأليفا

الجزء الرابع: يضم هذا الجزء 247 تأليفا كما يلي:

النحو والصرف	163	تأليفا
التاريخ	43	تأليفا
الحكمة	27	تأليفا
الحساب	14	تأليفا

يتضح إذن من خلال هذه المعطيات الكمية تنوع وثراء هذا المخزون الوثائقي. ورغم ذلك فإن محتويات هذه المكتبة- وهي من أحسن المكتبات الأهلية ظروفا- توجد في وضعية أقل ما يمكن أن توصف به أنها جد خطيرة

(1) نقلنا هذه المعطيات عن: محمد عبد الله ولد محمد الولي، **مكتبات شنقيط**، مرجع سابق، ص. 27.

تفاجئ الزائر مهما كان وتتطلب حلولا مستعجلة.

سادسا. الحلول المقترحة

إن العناية بالمخطوطات الموريتانية مسؤولية تتجاوز إمكانيات وصلاحيات أصحابها لأن هذا التراث المخطوط تراث وطني، بل إن من ضمنه ما يمكن اعتباره تراثا إنسانيا. ولهذا فإن هذه المسؤولية مشتركة ويجب أن تساهم فيها أطراف عديدة لعل من أهمها:

1 -السلطات العمومية:

- ✓ سلطة الوصاية (وزارة الثقافة والصناعة التقليدية)،
- ✓ السلطات المحلية: الولاة والحكام ورؤساء المراكز الإدارية،
- ✓ المنتخبون المحليون: العمد والمجالس البلدية والنواب.

2 -المجتمع العلمي:

- ✓ المؤسسات الجامعية (جامعة نواكشوط العصرية، جامعة لعيون الإسلامية، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، المدرسة الوطنية للإدارة والصحافة والقضاء إلخ)،
- ✓ الأساتذة والباحثون والطلبة.

3 -المجتمع المدني:

- ✓ رابطات أصحاب المكتبات،
- ✓ رابطات ملاك المخطوطات،
- ✓ المنظمات غير الحكومية، النوادي، الهيئات...
- ✓ الفاعلون الاقتصاديون (رجال الأعمال)،
- ✓ الإعلاميون،
- ✓ فاعلو الخير الموريتانيون.

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

4 -الشركاء الأجانب:

✓ المنظمات المعنية بالتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو، الآلكسو، الإيسيسكو، المنظمة الدولية الفرانكفونية، إلخ)،

✓ المراكز الثقافية الأجنبية في موريتانيا،

✓ الملحقيات الثقافية الأجنبية في موريتانيا،

✓ الممولون الأجانب،

✓ فاعلو الخير الأجانب، إلخ.

ونظرا لجسامة المخاطر التي تهدد المخطوطات الموريتانية، فإن خطة عمل إنقاذها في تصورنا يمكن أن تنقسم إلى مرحلتين أساسيتين:

أ -على المدى القريب:

✓ تشكيل هيئة وطنية تعنى بالمخطوطات تضم باحثين مختصين وممثلين عن الجهات المعنية (المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والمكتبة الوطنية وإدارة الأرشيف الوطني ومخابر الدراسات والبحوث ومدارس الدكتوراه وشعب الماستر، وأقسام التاريخ، إلخ.)،

✓ القيام بحملة تحسيس واسعة النطاق لتوعية الرأي العام بقيمة هذه المخطوطات،

✓ دعم تجربة جامعة نواكشوط العصرية بإنشاء شعب مهنية في مجال المكتبات والتوثيق والسياحة وتشجيع خلق شعبة خاصة بالمخطوطات (التحقيق، الترميم والتجليد إلخ.).

ب -على المديْن المتوسط والبعيد:

✓ إعداد سياسية وطنية وخطط وبرامج لحماية وتثمين المكتبات الأهلية لصيانة وتثمين ما تكتنزه من تراث مخطوط، وذلك بالتعاون مع الشركاء الأجانب وبالاشتراك مع ملاك المخطوطات وعلى أساس التجارب المحلية والدولية،

✓ إشراك الباحثين وهيئات المجتمع المدني والفاعلين الاقتصاديين

والإعلاميين في مشاريع إنقاذ وحماية المخطوطات الموريتانية،

✓ إكمال وتصحيح ونشر فهارس المكتبات العامة والخاصة وإضافتها لقاعدة البيانات الخاصة بالمخطوطات حتى تشمل معطيات مفصلة عن المكتبات المحلية في مختلف أصقاع البلاد،

✓ إعداد مشروع قانون لحماية المخطوطات وردع المتاجرين بها من سماسرة ومهربين،

✓ الإسراع بإعداد خريطة وطنية شاملة للمكتبات الخصوصية والعمومية خاصة تلك التي تحتوي على بعض المخطوطات.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

الخاتمة

لقد اهتم الموريتانيون منذ القديم بالكتاب باعتباره الحامل الأساسي للمعرفة. وكان لهذا الاهتمام الدور الحاسم في الثروة الكبيرة من الوثائق التي جمعها هؤلاء وكان لها إسهام مشهود فيما ميز صورة الموريتاني من ارتباط بالعلم والمعرفة عكسا لما عليه الحال في المجتمعات البدوية. غير أن المصاعب المادية والكوارث المناخية والنكسات التي منيت بها المحضرة (فضاء إنتاج واستثمار المعارف التقليدية) بفعل الأحداث المتسارعة التي عرفتها البلاد، جعلت الاهتمام بهذا التراث يتراجع شيئا فشيئا لصالح نوع آخر من الوسائط والمعارف المرتبطة بسياق مختلف.

وهكذا انتهت تلك المكتبات اليوم إلى وضعية متردية رغم غناها وتنوع مضمونها الذي عايناه من خلال الحالة المدروسة.

وإذا كان المردود الرمزي لإنتاج واحتضان المعارف التي تضمها تلك المكتبات، وراء ما بذله قدماء الموريتانيين في سبيل جمع ذلك الكم من الوثائق، فإن انتشال هذه الثروة الوطنية اليوم يمر حتما بإعادة الاعتبار إليها من خلال تحسين ظروف القيمين عليها وتثمين عملهم ومدهم بالخبرة والموارد الكفيلة بترقية عملهم، وهي مسؤولية لا يمكن في نظرنا أن ينهض بها البلد وحده. ذلك أن المكتبات الأهلية -بما تختزنه من معارف وخبرات تتجاوز المجتمعات التي تحتضنها- تشكل فضاء متميزا للتلاقي والتقاطع والتكامل بين شعوب وأقوام ومذاهب ونحل متعددة. وهو ما يجعل النهوض بهذه المؤسسات مسؤولية ملقاة على الجميع، وعلى الجميع رفع تحدياتها.

نماذج من المخطوطات الموريتانية[1]

(1) هذه النماذج أخذناها من الشبكة العنكبوتية

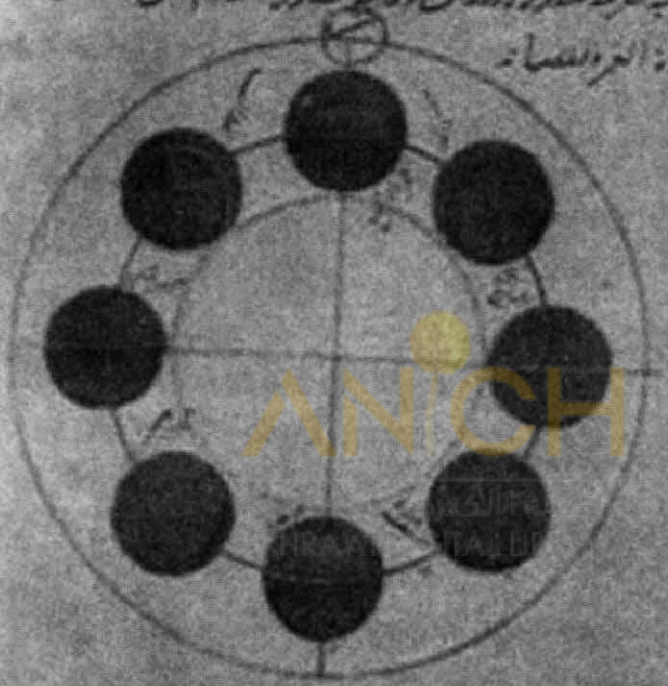

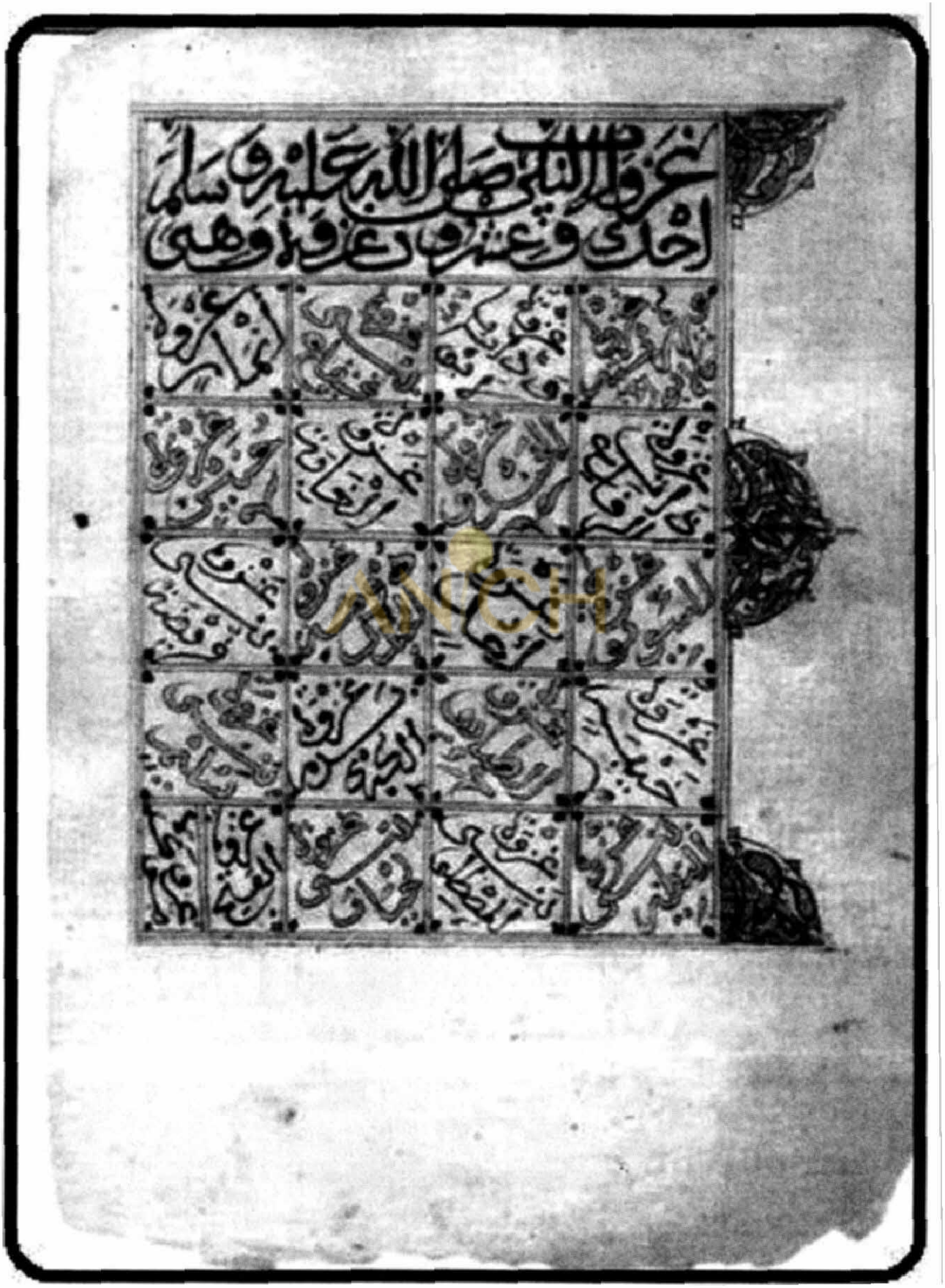
غزوات النبي صلى الله عليه وسلم
احدى وعشرون غزوة وهي

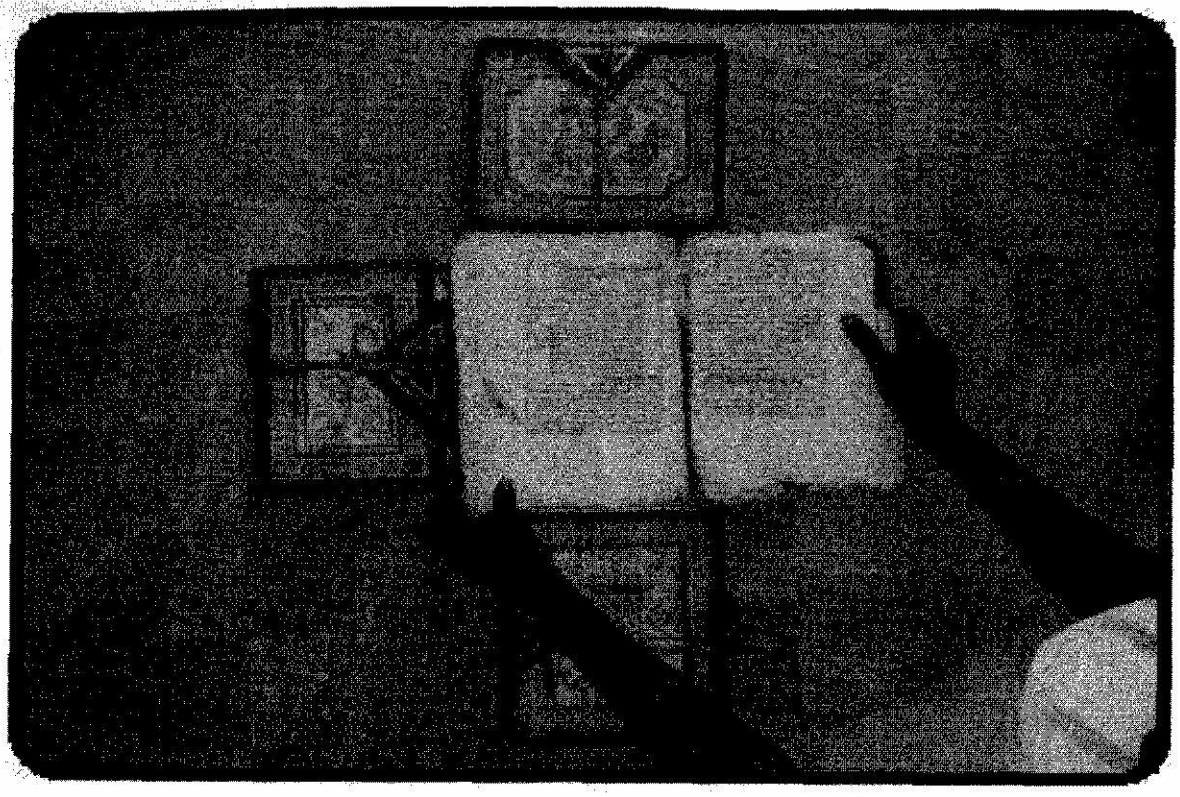

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

النص الرابع:

مؤسسة المحضرة الموريتانية ومواجهة التوغل الفرنسي في المنطقة[1]

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) قدم هذا البحث في الأصل درسا لطلبة المدرسة العسكرية للأركان في نواكشوط خلال شهر إبريل **2009** وللدفعة الموالية بالمدرسة نفسها خلال شهر يناير **2010**، ثم أدخلت عليه تعديلات لتكييفه مع النشر حيث تم نشره في مجلة *روافد* الصادرة عن المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة/تونس، العدد **17**، (صص**87-122**)، تونس، **2012**.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

تمهيد

تسعى هذه المساهمة إلى إبراز وتحليل جوانب من المقاومة الثقافية التي واجه بها الموريتانيون التوغل الفرنسي داخل البلد والتي اضطلعت المؤسسات المحضرية بدور حاسم فيها.

وسيسلط هذا البحث الأضواء على هذا الجزء من تاريخ موريتانيا الثقافي الذي لم يحظ لحد الساعة بما يستحقه من دراسة وتمحيص. لذلك فإننا سنمحض جزءا مهما من هذا البحث للحديث عن المؤسسة المحضرية من حيث التصنيف والنشأة والتطور والسمات العامة قبل أن نتناول الأدوار التي اضطلعت بها ومن ضمنها المقاومة الثقافية هذا فضلا عن استعراض التحديات التي تواجه هذه المؤسسات وإبداء بعض المقترحات بخصوص ما يمكن أن تؤديه من أدوار في الظروف الحالية.

أولا. المحضرة: التعريف والتصنيف

المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI ELECTRONIC LIBRARY

1 -التعريف:

نقصد بالتعليم الأصلي أو المحضري ذلك النمط من التعليم الذي يتم في مدارس أهلية طوعية قرآنية أو فقهية. وقد ظلت هذه المحاضر[1] وهي

---

(1) للمزيد من التفاصيل عن مدلول هذه التسمية وأدوار هذه المؤسسات الثقافية، تمكن مراجعة:

- ✓ الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة.. والرباط. عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة** (المحاضر)، تونس، **1987**، صص. **48** وما بعدها.
- ✓ المختار بن حامد، **حياة موريتانيا، الحياة الثقافية**، الدار العربية للكتاب، تونس، **1990**، صص. **197** وما بعدها.
- ✓ **ددود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17 - 18م)**،منشورات مركز الدراسات الصحراوية بجامعة محمد الخامس، الرباط (المغرب)، **2015**.، صص. **86-90** وما بعدها.

=

مؤسسات ذات وظائف متعددة (اجتماعية وثقافية وتربوية) تنشر المعارف العربية والإسلامية في ربوع الصحراء ومنها في المناطق الإفريقية المجاورة، وما تزال المحضرة تضطلع بهذه المهمة في نقاط عديدة من موريتانيا مستقبلة طلابا موريتانيين وغير موريتانيين يفدون إليها من كل فج رغم شح مواردها وقسوة ظروف الدرس بها وقوة اكتساح منافستها المدرسة النظامية.

والمحضرة أو "المحظرة" في اشتقاقها اللغوي اسم مكان (مفعلة) يحتمل تفسيرات ايتيمولوجية عديدة لعل من أكثرها وجاهة:

أ -أن تكون مشتقة من فعل حظر:

أي منع بوسيلة مادية أو معنوية، فهي ماديا الحظيرة التي كثيرا ما كانت تحيط بخيمة شيخ المحظرة ومصلاه وعرائش طلبته لحمايتها من الحيوانات وغيرها. وتقام هذه الحظائر عادة فور حلول المخيم بأي مكان جديد يتم النزول فيه. أما من الناحية المعنوية فقد يتصل هذا الاشتقاق بالحظر الذي يمارسه الشيخ على الطالب المحظري بمنعه من التجوال داخل الحي والاختلاط بأهله والانغماس في مشاغلهم الدنيوية وإلزامه بالإقامة في أعرشة الطلبة والتفرغ للعلم؛ أو هو متأت من الهيبة والحماية الروحية التي يتمتع بها شيخ المحظرة ومؤسسته وحتى طلابه. وتقتضي هذه الحماية حظر ارتكاب المخالفات بحرم المحظرة وحماية من لجأ إليها بحيث يكون في مأمن من النهب والسلب وغيرهما من الممارسات التي كانت شائعة في المنطقة خلال القرون الماضية. وبالعودة إلى القواميس نجد لفظ احتظر بكذا تعني احتمى به[1]. وقد كانت المحظرة منذ نشأتها ملجأ الخائف وملاذ المستضعَف من

✓ عبد الله ولد الشيخ المحفوظ ولد بيّه، المحاضر: مكانتها التاريخية ودورها المستقبلي المطلوب، (صص. 26-34) ضمن: فعاليات الندوة الدولية الأولى حول التراث الثقافي الموريتاني، المطبعة السريعة، نواكشوط، 2000.

✓ محمدو محمدن أمين، المحاضر الموريتانية (الجامعات البدوية المتنقلة)، *مجلة التاريخ العربي*، العدد الثاني والعشرون، الرباط، 2002، صص. 339-361.

(1) إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، المكتبة العلمية، طهران، بدون تاريخ، مادة حظر.

غارات النهابين والظلمة.

ب - أن تكون مشتقة من فعل حضر:

أي مكان حضور المحاضرة، وقد يكون هذا الحضور كذلك ماديا أو معنويا، فهو مادي لأن الطالب يحضر بجسمه محاضرة الأستاذ، ومعنوي لأن فيه تجردا من الدنيا وهمومها وإقبالا على التعلم والتعليم خالصا لوجه الله تعالى.[1] وقد كان هذا الانسلاخ عن مشاغل الحياة الدنيا والحضور المادي والمعنوي للعلم الشرعي لصيقا بالمقصد من وراء إقامة التعليم الديني أصلا بهذا "المنكب البرزخي"[2].

ويدعم هذا الاشتقاقَ الأخير ورودُ كلمة محضرة في بعض كتب التراث العربي الإسلامي دالة على معنى المدرسة مثل ما هو الشأن في رحلة ابن جبير.[3] ومعيار الونشريسي.[4] ولذلك فقد فضلنا في هذه الدراسة استخدام المحضرة على المحظرة.

2 -التصنيف:

يمكن تقسيم هذا النوع من التعليم الأهلي في موريتانيا إلى صنفين رئيسيين هما:

---

(1) للمزيد من المعلومات التفصيلية يمكن الرجوع إلى:

- ✓ محمد الصوفي ولد محمد الأمين، **المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني**، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، **1406**؛
- ✓ محمد عبد الحي، **مقدمة عن المحضرة**، نشر بدعم من مؤسسة العرفان بالمغرب وكرسي معهد العالم العربي في باريس، **2017**؛
- ✓ محمد المصطفى ولد الندى، **دور المحاضر في موريتانيا**، مذكرة تخرج، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط، **1986**.

(2) إحدى التسميات التي عرفت بها البلاد الموريتانية دلالة على توسطها بين المجتمعات ذات التنظيم المركزي شمال وجنوب الصحراء.

(3) محمد بن أحمد بن سعيد بن جبير، **الرحلة**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، **1964**.

(4) أحمد الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، **1401**هـ، ج.7، ص. **156**.

ANCH SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

I -المدارس القرآنية:

وتنحصر وظيفتها في تعليم القراءة والكتابة للمبتدئين وتحفيظ النص القرآني لا أكثر. ونحن نرى ضرورة إخراج هذه المدارس من التصنيف المحضري مراعاة للاصطلاح المحلي الذي يخرجها من دائرة هذا التعليم المحضري ويميزها بمصطلح "قراءة اللوح" أو "اللوح" المختلف عن المحضرة في:

- ✓ قسرية برنامج التعليم،
- ✓ فردية التعليم،
- ✓ صغر سن المتعلمين غالبا.

ويمتاز هذا الصنف من المدارس بانتشاره الواسع في البلاد بحيث لا يخلو حي بدوي من مدرسة أو مدارس منه مما يعكس مدى إسهامه في نشر مستوى أولي من التعليم بين سكان هذه الربوع.

II -المحاضر:

ويمكن تصنيفها تبعا لمحتوى المادة العلمية المدرّسة ومؤهلات الشيخ العلمية ونوعية الطلاب إلى مستويين اثنين هما:

أ. المحضرة الفقهية

وتختص بتدريس علوم القرآن والفقه والعقيدة، فشيخها قادر على تدريس علوم الغاية دون سواها. وهذا الصنف من المحاضر هو الذي يستحق حسب اعتقادنا صفة المحضرة المتخصصة، سواء تحدثنا عن تخصص عمودي يراعي مستوى الدرس بهذه المحضرة أو عن تخصص أفقي ينطلق من حصر المضمون المعرفي.

ب. المحضرة الجامعة

وهي التي تجمع بين علوم الغاية وعلوم الآلة معا (تجويد، تفسير، حديث، أصول، نحو، بلاغة، حساب، منطق، إلخ.)، ولا ينتصب للتدريس في هذه المحاضر إلا شيخ متبحّر في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية[1].

---

(1) ويسمونه في بعض نواحي الوطن "امرابط مشي"، وهو الذي يستطيع تدريس مختلف الفنون ولمختلف المستويات.

وهذا الصنف من المحاضر هو الذي أعطى هذا الركنَ القصي من ديار الإسلام صيتَه العلمي بما احتضن من جدالات خصبة وبما أنتج من تآليف أصيلة تنزل الأحكامَ الشرعية على الوقائع اليومية لحياة البداوة[1] والسيبة وبما أصدر من خريجين ذاع صيتهم في العالم الإسلامي.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) من أكثر الأمثلة تعبيرا عن ربط الفقه المحضري بالحياة البدوية كتاب البادية الذي يؤسس لفقه البادية. انظر: الشيخ محمد المامي (ت. سنة **1292**هـ/**1875**)، **كتاب البادية**. وللاستزادة تمكن مراجعة كتاب زميلنا محمد أحمد البرناوي، **الخلاف والاختلاف والاستخلاف أو العرف والشرع والسلطة السياسية في الجنوب الغربي للغرب الإسلامي بداية القرن التاسع عشر: محاولة حفر حول فكر الشيخ محمد المامي (1780-1865)**، منشورات معهد سيدي عبد الله ولد الفاضل، نواكشوط، **2010**.

ثانيا. النشاة والتطور

إن فهم الدور الذي يمكن أن يضطلع به التعليم المحضري في نشر المعرفة أفقيا داخل البلاد خدمة لمتطلبات التنمية يقتضي النظر إلى ظروف نشأته والمراحل التي مر بها.

ولا يُستبعد احتمال ظهور مستوى ما من التعليم الديني في صحراء الملثمين مع دخول الإسلام إليها أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي.

ويُفترض أن يكون التجار المسلمون قد اضطلعوا بدور بارز في هذا الصدد حيث تمكنوا من ترسيخ الاهتمام بالقراءة والكتابة وبث الوعي الديني والخلقي[1].

وبغض النظر عن رباط عبد الله بن ياسين (ت. سنة 451هـ/1059) التعليمي فإن الشائع في الروايات الشفهية المتداولة حتى الآن أن الأمير اللمتوني أبا بكر بن عمر (ت. سنة 480هـ/1087) بعد انفصاله عن ابن تاشفين (ت. سنة 500هـ/1106) بالمغرب وعودته إلى الصحراء جاء معه بفقهاء[2] لتأسيس مدارس في هذه المنطقة ربما تكون هي البذور الأولى للمؤسسات المحضرية التي ميزت التاريخ الموريتاني منذ ذلك الحين وإلى يوم الناس هذا.

وتسمح المعطيات المتوفرة حتى الآن باعتماد تحقيب أولي قد لا يخلو من تخمين لتاريخ هذا التعليم نوجزه في ما يلي:

---

(1) Ghislaine LYDON, **On Trans-Saharan Trails. Islamic Law, Trade Networks, and Cross-Cultural Exchange in Nineteenth-Century Western Africa**, Université UCLA, Californie, (Etats-Unis d'Amérique), **2008**.

(2) هؤلاء الفقهاء هم: الحضرمي المرادي، إبراهيم الأموي وعبد الرحمن الركاز.

1- مرحلة المدن

يعتقد بعض الدارسين[1] أن النشأة الفعلية للمحاضر بصحراء الملثمين تعود إلى ظهور الدعوة المرابطية بها، إذ "كان العلم حضريا في عهد المرابطين وقرونا من بعدهم"[2] كما يقول الأستاذ الخليل النحوي الذي اختار لهذه المرحلة عنوانا له دلالته الخاصة هو "الحواضر مهد المحاضر"[3]، ذلك أن حواضر مثل أوداغست وتينكي وولاته وتيشيت ووادان وشنقيط كانت مراكز علم مهمة احتضنت المؤسسات المحضرية الأولى في هذه "البلاد السائبة"[4].

وكانت معظم تلك المدن واحات نخيل ومراكز تجارية اضطلعت أيضا بأدوار تجارية كبيرة، إذ كانت من المحطات الهامة في مسالك التجارة الصحراوية.[5]

وقد عرفت هذه الحواضر فترات ازدهار اقتصادي ليس من المستبعد أن تكون لها صلة بالنهضة العلمية والأدبية بها "**إذ لا بد لكل ثقافة من فائض**

ANCH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) نذكر منهم:
- ✓ المختار ولد حامد، **حياة موريتانيا، الحياة الثقافية**، مرجع سابق،
- ✓ الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة والرباط**، مرجع سابق.

(2) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط**، مرجع سابق، ص.**66**.

(3) المرجع والصفحة ذاتهما.

(4) "البلاد السائبة" أو "بلاد الفترة" من التسميات المحلية التي أطلقت على البلاد الموريتانية خلال القرون الماضية إشارة إلى غياب السلطة المركزية وانتشار الفوضى في هذه الأصقاع. وممن استخدموا هذه التسمية:
- ✓ الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، **الرسالة الغلاوية**، تحقيق حماه الله ولد السالم، مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، الرباط، **2007**.
- ✓ الشيخ سيدي الكبير، **الميزان القويم والصراط المستقيم**، مخطوط.
- ✓ الشيخ محمد المامي، **كتاب البادية**، مصدر سابق.

(5) الناني ولد الحسين، **صحراء الملثمين: دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط**، بيروت، دار المدار الإسلامي، **2007**.

اقتصادي" طالما أن الثقافة "استهلاك، بل هي إسراف"[1] حسب تعبير المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل (Fernand BRAUDEL) المتوفى سنة 1406هـ/ 1985م، وحسبما كان صاحب المقدمة قد أشار إليه حين اعتبر ضعف العمران وانقطاع الدعم عاملا في الركود الثقافي على عهده. يقول: "وقد كسدت لهذا العصر أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم"[2].

2- مرحلة البادية

إذا كانت المحضرة قد نشأت -منذ المرحلة المرابطية على الأقل- في الحواضر، فإنها سرعان ما أصبحت مؤسسة تعليمية بدوية من حيث الأساس، إذ انتشرت من المدن إلى الأرياف مغطية المجال الشنقيطي الفسيح من ضفاف المحيط الأطلسي إلى منطقة أزواد ومن نهر السنغال إلى الحدود الجزائرية والمغربية.

وفي أرجاء الصحراء الموريتانية المترامية الأطراف وعلى ضفاف المحيط والنهر تكاثرت المحاضر وتشعبت مما دفع بعض الباحثين إلى اعتبارها "جامعات بدويةً متنقلة"[3] على ظهور العيس تَعرف نوعا من الإبداع والإنتاج المعرفي والأدبي في محيط بدوي لا عهد له بالدولة المركزية ولا وجود فيه تقريبا للعمران.

وهكذا عُرفت -لأول مرة في التاريخ على ما يُعتقد- أولُ بادية تتعاطى الثقافة العالمة درسا وتأليفا، إذ احتضنت هذه البادية "مجموعة البداة الوحيدة التي تملك تقاليد ثقافية مكتوبة بينما يعيش الآخرون [أهل البوادي الأخرى]

---

(1) النص الفرنسي لهذه القولة هو:

«Il faut à toute culture un excédent, un surplus économique. La culture est consommation, voire gaspillage», Fernand BRAUDEL, **Ecrits sur l'histoire**, Flammarion, Paris, **1984**, p. **298**.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د.ت.، ص. **484**.

(3) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط**، مرجع سابق.

عالةً على أهل المدن"[1].

وقد لاحظ بعض الدارسين هذه الخصوصية التي ميزت سكان الصحراء الموريتانية عن غيرهم من سكان المنطقة حين تحدثوا عن مظاهر من الثقافة العالمة في هذه البادية. يقول الرحالة الفرنسي كاميْ دولس (Camille DOULS) المتوفى سنة 1306هـ/1889م: "**إن البيضان يتخذون من خيامهم أكاديمياتٍ حقيقيةً**"[2]. ويمضي هذا الرحالة الذي زار المنطقة سنة 1887 قائلا: "إن جميع هؤلاء البداة تقريبا يتعاطون كتابة العربية" مؤكدا أن "المعرفة والذكاء اللذين يميزان هؤلاء البدو يبلغان درجة من التطور تُعدّ مفارقةً لما يطبع المسلمين المقيمين بإفريقيا الشمالية".

وينحو المستشرق الفرنسي رني باسي (René BASSET) المتوفى سنة 1342هـ/1924م المنحى نفسَه حين يجزم "بأن لدى البيضان ثقافة أدبية أرقى مما لدى جل سكان الجزائر"[3]. ولا يخامر هذا المستشرق شك في "أن بيضان السنغال[4] لديهم ثقافة أدبية أكثر تطورا من جل سكان الجزائر وأن هؤلاء البيضان يتعاطون بشغف الشعر العربي الجاهلي"[5].

---

(1) محمد ولد مولود ولد داداه نقلا عن محمد المختار ولد السعد، **شربه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني**، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، **1993**، ص. **53**.

(2) Camille DOULS, **Cinq mois chez les Maures nomades du Sahara Occidental**, op.cit., p. **206**.

(3) نقلا عن:

FAIDHERBE, **Le Sénégal et La France dans l'Afrique Occidentale**, op.cit., p. **45**.

(4) من تسميات البلاد الموريتانية أثناء القرن التاسع عشر، راجع:

محمدّو محمدن أميّن، **المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)**، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب، **2001**، صص. **23** وما بعدها.

(5) نقلا عن:

FAIDHERBE, **Le Sénégal et La France**., op.cit.p. **45**.

ويضيف هذا المستشرق الذي أرسلته الحكومة الفرنسية إلى السنغال لإجراء دراسات لغوية وألسنية متحدثا عن ثقافة البيضان ومستواهم الشعري: "كثيرا ما تسمع أحد هؤلاء البداة يحفظ قصائد امرئ القيس والنابغة وطرفة وحتى الحماسة وديوان الأعشى، حتى يخيل إلى نظرك أنك أمام أحد صعاليك الجزيرة العربية"(1).

ويمضي باسي في مقارناته بين البيضان والشعراء الجاهليين فيقول: "إنني أشك في أن للشنفرى حضورا أكثر تميزا من بيضاننا التروزيين"(2).

ويتحدث مستشرق فرنسي آخر هو بول ديبيي (Paul Dubié) عن بعض جوانب الثقافة البيضانية العالمة قائلا: "إن المراكز الإسلامية في موريتانيا حيوية جدا. فالعديد من العلماء يمتلكون مكتبات غنية. ويقوم بعض هؤلاء أحيانا برحلات إلى إفريقيا الشمالية وإلى الديار المقدسة. وهم يتوفرون على مستوى رفيع في مجال العلوم الدينية والثقافية. ولا شك أنهم يمثلون بؤرة العروبة والإسلام الأكثر حيوية في إفريقيا الغربية"(3).

وهكذا فإذا كانت البادية في عرف الدارسين -منذ ابن خلدون وإلى اليوم- تعتبر بيئة غير صالحة للإنتاج الفكري ناهيك عن الازدهار العلمي والفني فإن واقع المحاضر التي ميزت بوادي موريتانيا منذ القرن السابع عشر وواقع الحواضر الإسلامية في الفترة نفسها يُبيّن أن البادية ليست دائما رديفة الجهل والأمية كما أن المدينة لا تساوي بالضرورة الازدهار المعرفي. فما هي سمات تلك المدارس البدوية؟

(1) Idem

(2) Idem

(3) Paul DUBIE, **La vie matérielle des Maures**, Mémoires de l'IFAN, n°23, Dakar, 1953, pp. 111-252, p.119.

ثالثا. السمات العامة للمحضرة

تميزت المدارس التقليدية في موريتانيا بميزات وفرت لطلبتها ظروفا مشجعة على الدراسة بها، لعل من أبرزها:

1 -الحرية:

يتمتع الطالب المحضري بحرية اختيار:

- ✓ المحضرة التي سينتسب إليها،
- ✓ الشيخ الذي سيدرس عنده،
- ✓ المادة والمتن اللذين يرغب في دراستهما،
- ✓ الفترة الزمنية الملائمة لدراسته.

وتسمح هذه المساحة الواسعة من الحرية بمستوى من تحقيق الذات يجعل جل الطلاب يتعاطفون تعاطفا وجدانيا مع محيطهم المحضري.

2 -المساواة:

تكاد المحضرة تكون الفضاء الوحيد الذي تذوب فيه مختلف أشكال التمايز الطبقي والعرقي، إذ يتحدد الانتساب إليها بالرغبة والاستعداد دون اعتبار المكانة الاجتماعية أو فوارق السن، فالرجل الطاعن في السن قد يدرس مع الشباب كما أن الشاب اليافع قد يتولى تدريس من هم أسنّ منه.

هذا فضلا عن عدم اعتبار المستوى المادي، إذ لا فرق بين غني وفقير، بل إن المحضرة طورت آليات تبناها المجتمع مع اختلافات جزئية بين نواحي البلاد لعل من أهمها:

- ✓ "التأبيد" الذي يقتضي التكفل بالطالب المغترب أو المعدِم،
- ✓ "الختمة" التي تُوجب تقديمَ هدايا للتلاميذ كلما تقدموا مراحل معينة في دراستهم،
- ✓ "شاة التلاميذ": رأس من الغنم أو البقر يقدم لتلامذة المحضرة في مناسبات اجتماعية معينة (الزواج، العقيقة).

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وتجسد هذه "الحقوق" مستوى ما من التكافل يضمن التعليم لمن يرغب فيه.

3 -المجانية:

تبدو هذه السمة في المسائل التالية:

- ✓ الانتساب إلى المحاضر لا يتطلب رسوما،
- ✓ الميسورون يدرسون على نفقة ذويهم،
- ✓ المعدِمون ينفق عليهم شيخ المحضرة، أو بقية الحيّ أو يتقاسمون مع زملائهم الميسورين.

وتجسد هذه "المجانية" درجة ما من التآزر الاجتماعي ساهمت في تسهيل التعلم.

غير أن هذه المزايا يجب أن لا تحجب عنا جملة من المآخذ على التعليم المحضري يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- ✓ عدم العناية غالبا بلغة التدريس، فمع أن أساتذة المحاضر متمكنون من اللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة، فمن النادر أن نجد من بينهم من يستطيع إلقاء خطاب منسجم بالفصحى وذلك ناجم عن تعودهم تقديم الدروس باللهجة العامية.
- ✓ الإذعان، في الأغلب، للوثيقة المكتوبة وإعطاؤها قدسية تحول دون نقدها،
- ✓ ندرة التأليف والتركيز على الشروح وعلى عقد النصوص النثرية بالنظم،
- ✓ التسرع أحيانا وعدم النسبية في رؤية المسائل التي تحتمل تفسيرات وأوجها متعددة.

رابعا. الأدوار التي اضطلعت بها المحضرة

تعتبر الوظيفة الأساسية لهذه المدارس هي نشر العلوم والأخلاق الإسلامية بما يقتضيه ذلك من التركيز على ما يعرف بعلوم الغاية (القرآن، الفقه، العقيدة، الحديث)، غير أن استيعاب هذه العلوم يستدعي بالضرورة معرفة بعلوم الآلة وخاصة العلوم اللغوية التي يتوقف على معرفتها فهم النص الديني من قرآن وسنة.

وقد أدرك الموريتانيون ما لعلوم الآلة من قيمة في استيعاب العلوم الشرعية، ففضل بعضهم الاشتغال بها على الاشتغال بالعبادة. يقول الشيخ محمذن فال بن متالي التندغي (ت. سنة 1287 هـ/1871) بهذا الشأن:

تعلمَ اللغة شرعا فضل على التخلي لعبادة الجلي
يؤخذ ذا من قوله وعلما آدم الأسماء الزم التعلما[1]

غير أن للمحضرة أدوارا أخرى تتعدد بتعدد وظائف شيوخ المحاضر وغيرهم من علماء وفقهاء هذه البلاد الذين يقومون في الوقت نفسه بوظائف التدريس والإمامة والتوجيه والدعوة والوعظ والتربية الروحية (مشايخ طرق صوفية) والقضاء والإفتاء.

وهم إلى ذلك يضطلعون بمهام:

- ✓ مستشارين لدى الأمراء،
- ✓ كتبة للأمراء، وتظهر غالبا بصماتهم على مختلف مراسلات هؤلاء الأمراء[2]،

---

(1) محمذن فال بن متالي، **فتح الحق في حقوق الخالق والخلق**، تحقيق أحمدو ولد فال، ص. **18**.

(2) راجع ملفات المراسلات:

Archives Nationales du Sénégal: Série B: Correspondances générales (**1779-1895**).

- ✓ وسطاء في النزاعات والحروب الداخلية،
- ✓ سياسيين يدعون إلى إقامة السلطة الإسلامية[1]،
- ✓ مجاهدين ضد احتلال النصارى للمسلمين.[2]

وانطلاقا من وظائف المحضرة الشنقيطية المشار إليها سابقا كانت هذه المؤسسة في وقت واحد أداة لصيانة التراث وقلعة للدفاع عن الأرض والعرض.

1 -المحضرة أداة لصيانة التراث:

كانت المحضرة رمز الثقافة العربية الإسلامية، فهي المنبع الروحي الأوحد الذي يحترمه العدو والصديق ويهابه السارق واللص والمسالم والمتجبّر والفقيه العابد والأمير الجائر، على حد سواء. وذلك ما جعل حكم الفقيه في المنازعات ماضيا -في الغالب- يخضع له الجميع.[3]

ورغم قوة منافستها المدرسة الجديدة التي روجت لثقافة المستعمر الوافدة، فإن المحضرة كانت وسيلة للدفاع عن التراث وحمايته، وحسب اعتراف الفرنسيين أنفسهم "مثلت المحاضر خلال الفترة الاستعمارية قلعة حصينة للصمود والمناعة الثقافية". وظلت المحضرة حاملة مشعل الثقافة العربية الإسلامية في البلاد الموريتانية تنشرها وتدرّسها وتدافع عنها. يقول

---

(1) راجع: أحمد ولد الحسن، جمال، **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري. مساهمة في وصف الأساليب**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، **1995**.

(2) راجع كلا من:

- ✓ المختار ولد أحمد، **الشعر السياسي الإصلاحي الموريتاني في القرن الثالث عشر** (الهجري)، مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، نواكشوط، **1984**.
- ✓ المصطفى ولد اعلمبطالب، **الأرستقراطية الدينية والأوضاع السياسية في موريتانيا في القرن الثالث عشر الهجري**، مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، نواكشوط، **1985**.

(3) محمد بن عبد الحي، **المحضرة**، مرجع سابق.

آندري لكورتوا (André Lecourtois): "لقد انتصب في مواجهتهم [يعني الفرنسيين] عدو قديم وقوي هو تعليم المحاضر الذي يتطلب قهره تبني سياسة مدرسية حكيمة وبذل مجهودات كبيرة".(1)

وهكذا فبفضل التنشئة المحضرية ورواج أطروحات هذه المؤسسات الثقافية امتاز الموريتانيون بالتشبث بقيم دينهم والتمسك بموروثهم الثقافي والاعتزاز بتاريخهم وثقافتهم والاحتفاظ بهويتهم المميزة. والفرنسيون أنفسهم يؤكدون هذه الحقيقة. يقول أحد الإداريين الفرنسيين في هذا السياق: "لقد وجدنا [في موريتانيا] شعبا له ماض من الأمجاد والفتوح لم يغب بعد عن ذاكرته، ومؤسساتٍ اجتماعيةً لا نستطيع أن نتجاهلها. إن علاقات تضامن وثيق تسود بينهم رغم بداوتهم وتمزقهم".(2)

وقد ساعد الدرس المحضري وما يتطلبه من متون دينية وما يتحلّى به القيّمون عليه من أخلاقيات على حفظ وصيانة التراث العربي الإسلامي في هذه الثغور الشنقيطية المرابطة. ذلك ما يؤكده الدكتور محيي الدين صابر حين يقول: "إن الثقافة العربية التي أُثرت عن المدن التاريخية الموريتانية إلى عهد قريب كفلت للتراث الإسلامي العربي البقاء والاستمرار من خلال المؤسسات التي ينتجها المجتمع الموريتاني سواء في المراكز العلمية المستقرة أو المتنقلة والتي يمثلها نظام المحاضر".(3)

ويعترف أحد الفرنسيين الذين حكموا موريتانيا إبان الفترة الاستعمارية بنجاح المحضرة في تأدية رسالتها الحضارية مؤكدا أن "المحاضر قد تمكنت،

---

(1) André LECOURTOIS, **Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel en Mauritanie**, Entreprises et développement, **1978**, p. **32**.

(2) الأرشيف الوطني الموريتاني، نواكشوط، **تقرير من الحاكم الفرنسي العام لغرب إفريقيا إلى وزير المستعمرات الفرنسي**، الملف رقم **E1/8**، يتعلق بمهمة كوبولاني في منطقة الترارزَه بالجنوب الغربي الموريتاني (يناير/كانون الأول **1902**).

(3) محيي الدين صابر، *جريدة الشعب*، العدد رقم **1702**، الصادر في **18** فبراير **1981**، نواكشوط.

على العموم، من الصمود في وجه الغزو الثقافي الأجنبي واضطلعت برسالتها المتمثلة في صيانة تراث ثقافي يمثل بالنسبة لها مدعاة فخر واعتزاز".[1]

ويتأكد هذا الفخر والاعتزاز في بيتيْ العلامة المختار بن بونه (ت.سنة 1218هـ/1804) الشهيرين اللذين مثلا شعار هذه المدارس المتنقلة على ظهور الإبل:

ونحن ركب من الأشراف معتكف أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بها نبين دين الله تبيانا

وطبيعي أن تمثل التعاليم الدينية والأخلاقية التي بثتها المحاضر وعممتها داخل هذا القطر -وفي الأقطار الإفريقية المجاورة أحيانا- صمامَ أمان ضد مخاطر الغزو الثقافي الأجنبي وذلك بما ترسخه من مناعة ضد ثقافة المستعمر وحضارته المادية الغازية وبالتالي ضد مدرسته البديلة، ذلك ما يصرح به الفرنسيون أنفسهم على لسان رئيس مصلحة التعليم الابتدائي شينو (Chaigneau) في تقرير بتاريخ غرة أكتوبر سنة 1934 حين يقول: "إن البيضان، وقد اعتنقوا الإسلام منذ عدة قرون، كان من بينهم وما زال علماء وفقهاء معروفون في جميع البلاد الناطقة بالعربية. ونحن نتفهم كونهم -غيرة على ماضيهم- لا ينظرون إلى حضارتنا بحماس، فالثقة بيننا معدومة الآن".[2]

2 -المحضرة قلعة لمقاومة التوغل الإستعماري:

تعود جذور المقاومة الثقافية إلى بدايات الاحتكاك مع الفرنسيين، إذ نجد لوي مورو دو شامبو نو (Louis Moreau de Chambonneau) المعاصر لحرب شربه[3] التي عرفتها المنطقة خلال النصف الثاني من القرن السابع

---

(1) André LECOURTOIS, **Etude expérimentale sur l'enseignement islamique**, op.cit.

(2) تقرير رقم **795**، **1934/10/01**، الأرشيف الوطني، نواكشوط/موريتانيا، ملف رقم **E2/44**. (نقلا عن: الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة والرباط..**، مرجع سابق.)

(3) حول هذه الحرب تمكن مراجعة كل من:

عشر يعترف ببعض تجليات هذه المقاومة حين يقول: "أما رجال الدين فيفخرون بتجنبهم لنا [...] كما أنهم يزدروننا كثيرا بسبب الاختلاف بين ديننا وشعوذتهم موهمين قومهم أننا نشتري العبيد لكي نأكلهم. ومنذ أن سيطروا على البلاد فإن عبدا واحدا لم يصل إلى سفننا".(1)

وكثيرا ما تمتزج وتتزامن تجليات المقاومة الثقافية مع العسكرية والسياسية مجسدة الإطار الديني والخلفية الإيديولوجية لمواجهة الاستعمار. فهذا الأمير البركنّي المختار ولد سيدي(2) عندما اختطفه الفرنسيون سنة 1259هـ/1843 ونفوه إلى قرية نائية في الغابون ينشط بصفته "مرابطا" يدعو إلى الله وينشر الإسلام حتى بسط نفوذه الروحي على القرية.(3)

ولقد استشعرت النخب الدينية والعسكرية خطورة الموقف منذ البداية وحاولت أن ترسم في وعيها صورة لما سيكون عليه الأمر ما لم يبادر القوم بالتصدي للغزو الذي بات في حكم المحقق.

وقد شعرت الأرستقراطية الدينية -وهي المسيرة للمحاضر والمشرفة عليها- مبكرا (على الأقل منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر) بخطر

ANCH المكتبة الرقمية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

- ✓ Carson I. A. Ritchie, **Deux textes sur le Sénégal 1673-1677**, Dakar, *BIFAN*, Série B, t.-XXX, n°**1**, **1968**.
- ✓ Geneviève Desiré-Vuillemin, **La guerre de Char Bouba, Sahara Occidental. Fin du XVII^{ème} siècle**, Paris, *Le Saharien*, n°**56**, **1er** et **2ème** trimestres, **1971**, pp. **20-25**.
- ✓ محمد المختار بن السعد، **حرب شربه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني**، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، **1993**
- ✓ أحمد جمال بن الحسن، **حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا**، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، جامعة نواكشوط، العدد الأول، **1989**، صص. **5-17**.

(1) نقلا عن الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة.. والرباط**، مرجع سابق، ص.**305**.

(2) تولى إمارة البراكنة بين سنتيْ **1841** و**1843**، رفض التعامل مع الفرنسيين فنفوه إلى الغابون حيث توفي بمنفاه.

(3) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة.. والرباط**، مرجع سابق، ص.**321**.

التوسع الفرنسي المتزايد في حوض نهر السنغال، فاضطلع شيوخ المحاضر وخريجوها من فقهاء وعلماء بدور كبير في التحذير من هذا الخطر المحدق ودعوا إلى مواجهته بالوسائل المتاحة قبل فوات الأوان.

ويمكن أن نسوق نماذج من مواقف زعماء هذه الأرستقراطية المناهضة لمسار التوغل الفرنسي داخل البلاد. وقد تجلت تلك المعارضة خصوصا من خلال:

أ -عرقلة الإستكشافات الفرنسية:

تجسدت هذه العرقلة في تجليات متعددة لعل من أوضحها موقف القوم من الرحالة الفرنسي رني كايّي (René CAILLIÉ) المتوفى سنة 1357هـ/ 1838م أثناء تجواله في منطقة البراكنَه بالوسط الجنوبي من البلاد الموريتانية سنتيْ 1824 و1825، إذ لم ينج هذا المستكشف من موت محتوم لو لم يوهم السكان أنه يدعى عبد الله وأنه مولود في مصر من أسرة عربية وأن فرنسيين شاركوا في حملة نابليون على مصر عادوا به إلى فرنسا، وهو حينها ما يزال صبيا، وأن سيده الفرنسي أرسله في بعثات تجارية إلى السنغال وأعتقه مكافأة له على خدماته، وبما أنه استعاد حريته، فهو يسعى إلى العودة إلى وطنه مصر للقاء أهله وممارسة شعائر دينه(1).

ورغم تظاهر "عبد الله" باعتناق الإسلام وادعائه الانتماء إلى أصول عربية، فقد ظل ذلك الرحالة الفرنسي مثار شك، واتهم أكثر من مرة بأنه جاسوس للفرنسيين جاء ليحمل إليهم أسرار البلاد والعباد.(2)

كما أن رجال الدينَ قد أفشلوا، خلال ربيع 1860، مهمة نقيب الأركان العامة المستكشف هانري فينصان (Henri Vincent) مبعوث الوالي الفرنسي على السنغال الجنرال فيدرب (Faidherbe) إلى منطقة آدرار بالشمال

(1) René Caillié, **Voyage à Tombouctou**, Paris, **1989**, Editions La Découverte, pp. **37** et suivantes.

(2) Idem

الموريتاني بغية جمع المعلومات عنها ومحاولة الوصول إلى مدنها التاريخية وتوقيع اتفاقية تجارية مع أميرها، بل إن المشايخ اقترحوا على الأمير قتل هذا الضابط الفرنسي.[1]

ب -محاولة توحيد الجبهة الداخلية ضد الخطر الأجنبي:

حذر شيوخ المحاضر مبكرا من احتمال غزو "النصارى" ودعوا إلى التعبئة وإلى الجهاد ضد هذا الغزو، بل إن من بينهم من حاولوا تنسيق جهود مختلف جيوب المقاومة.

وتدخل في هذا النطاق مساعي الشيخ سيدي الكبير (ت. سنة 1284هـ/ 1868م) التي توجت باجتماع تندوجَه[2] سنة 1856، وقد حضره أمراء البراكنَه والترارزَه وآدرار وممثل عن إمارة إدوعيش، وهي الإمارات الأربع التي كانت تتقاسم وقتئذ السيادة على البلاد الموريتانية الحالية.

وجاءت مبادرة عقد هذا الاجتماع بعد اندلاع الحرب بين أمير الترارزَه محمد الحبيب (ت. سنة 1277هـ/1860) والوالي الفرنسي على السنغال الجنرال فيدرب، وهي الحرب التي سعى الفرنسيون من ورائها إلى بسط نفوذهم على الضفة اليسرى لنهر السنغال وتغيير شروط التبادل مع البيضان بالضفة اليمنى.

ولم يكتف الشيخ سيدي الكبير بجمع الأمراء ومحاولة إقناعهم بإصلاح ذات البين وتوحيد الصف ضد الفرنسيين، بل إنه عمل على توفير العتاد للمقاومة محاولا تصنيع البارود محليا. وما تزال الذاكرة الشعبية تحتفظ بتسمية "عْليب البارود" إشارة إلى المكان (الكثيب) الذي تمت فيه تلك المحاولة. كما

---

(1) Henri, Vincent, "**Voyage et expédition au Sénégal et dans les contrées voisines. Voyages dans l'Adrar et retour Saint-Louis**", Paris, *Tour du Monde*, **1860**, pp. **17-33** et pp. **49-64**, p.

(2) بئر تقع إلى الشمال من مدينة أبي تلميت التي تبعد حوالي **150** كلم إلى الشرق من مدينة نواكشوط.

طلب هذا الشيخ من سلطان المغرب المعاصر له سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام العلوي تزويده بالأسلحة.[1] وفضلا عن ذلك فإن بعض المشايخ قد دفع الأمراء إلى مقاومة الغزو الفرنسي.

ج -تشجيع ودعم الأمراء على مواجهة الفرنسيين:

شجع العلماء أمراء البلاد على التصدي للفرنسيين وأفتوا بوجوب دعم ومساندة هؤلاء الأمراء بالمال والفتاوي بوصفهم أهل الشوكة ورأس الحربة في أية مواجهة ممكنة مع الغزاة الغرباء.

وقد استفادت من هذا الدعم بجوانبه المادية والمعنوية الأرستقراطية العسكرية في مختلف أنحاء الوطن، إذ تمكن الأمير البركنّي محمد بن سيدي (ت. سنة 1274هـ/1858) في معركة الركبه[2] من هزيمة تحالف ضم ابنَ عمه ومنافسَه على الإمارة سيدي علي الثاني (ت. سنة 1310هـ/1893) والفرنسيين وحلفاءَهم من أهل والو[3]، رغم أن الفرنسيين -وحسب مصادرهم الأرشيفية ذاتها-[4] رموا بثقلهم في المعركة ضد خصمهم محمد بن سيدي الذي كان مدعوما -في هذه المعركة- ماديا ومعنويا بوجود الشيخ سيدي الكبير وتلامذته بالمعسكر، فكانت نتيجة هذه المعركة هزيمة واضحة للفرنسيين وحلفائهم.

---

(1) راجع تفاصيل المراسلات المتعلقة بهذا الطلب عند: سيدي أحمد ولد أحمد سالم، التسلح في موريتانيا في القرن 19.. مكاسب التجارة ومخاوف السياسة، ضمن سيدي أحمد ولد الأمير، المجال الموريتاني: مقالات في التاريخ والثقافة، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2014.

(2) موضع يبعد حوالي 50 كلم إلى الغرب من مدينة بوغي عاصمة ولاية البراكنه بالوسط الجنوبي للبلاد الموريتانية.

(3) والو: تسمية تطلق أصلا باللهجة الولفية على السهل الفيضي الممتد على ضفتيْ نهر السنغال.

(4) بخصوص هذه المعركة وتفاصيلها تمكن مراجعة الأرشيف السنغالي:

Série D: Affaires militaires (1763-1920): Sous Série 1 D: **Opérations militaires**, Sénégal et Dépendances (1823-1894), Expédition contre les Maures, 1854-1856.

وفي إمارة الترارزَه المجاورة، يؤكد الشيخ سيدي الكبير دعمه للأمير التروزي محمد الحبيب في حربه ضد الجنرال فيدرب الطامح إلى بسط النفوذ الفرنسي بالمنطقة. يقول هذا الشيخ في رسالة موجهة إلى الأمير: "هذا وإنه من عبد ربه الغني به سيدي بن المختار بن الهيبَه إلى سيد أقرانه ومقدّم أهل زمانه محمد الحبيب بن أعمر بن المختار نضر الله أيامه ونصر أعلامه وأعانه على إقامة الدين ومكنه من نواصي أرباب الكفر المعتدين [...] وبعد فإنا نوصيك بتقوى الله العظيم واقتفاء سنة نبيه الكريم ونؤكد عليك في الوصية بثلاثة أمور أحدها أن تحسن نيتك في مجاهدتك للكفرة الذين أنت بصدد مجاهدتهم بأن تنوي بمجاهدتك لهم أداء فرض الكفاية [...]. وأعلم أيضا أننا معك بهمتنا ودعائنا وعنايتنا ورعايتنا في جميع ما أنت فيه من نصرة دين الله وإعلاء كلمة الله وإسفال كلمة الكفر بالله والمعصية...".[1]

ويحذر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا (ت. سنة 1869/1285) من مخاطر الغزو الأوروبي المحدق محرضا على مواجهته قبل فوات الأوان في قصيدة الشهيرة الطويلة. يقول:

رُوَيْـــدَكَ إِنَّنِـــي شَـــبَّهْتُ دَارَا ... عَلَـــى أَمْثَالِهَـــا تَقِـــفُ الْمَهَـــارَى ...

وَلَـــوْ فِـــي الْمُسْـــلِمِينَ الْيَـــوْمَ حُـــرٌّ ... يَفُـــكُّ الْأَسْـــرَ أَوْ يَحْمِـــي الـــذِّمَارَا

لَفَكُّـــوا دِيـــنَهُمْ وَحَمَـــوْهُ لَمَّـــا ... أَرَادَ الكَـــافِرُونَ بِـــهِ الصَّـــغَارَا

وَسَـــامُوا أَهْلَـــهُ خُطَّـــاتِ خَسْـــفٍ ... يُشَـــيِّبُ وَقْـــعُ أَصْـــغَرِهَا الصِّـــغَارَا

حُمَـــاةَ الـــدِّينِ إِنَّ الـــدِّينَ صَـــارَا ... أَسِـــيرًا لِلْحُصُـــوصِ وَلِلنَّصَـــارَى

فَـــإِن بَـــادَرْتُمُوهُ تُـــدَارِكُوهُ ... وَإِلَّا يَسْـــبِقِ السَّـــيْفُ الْبِـــدَارَا ...

(1) راجع: رسائل الشيخ سيدي، مخطوط.

بِـــأَن تَسْتَنصِـــرُوا مَـــوْلَى نَصِـــيرًا ... لِمَـــن وَالَـــى وَمَـــن طَلَـــبَ انتِصَـــارَا
مُجِيبًـــا دَعْـــوَةَ الـــدَّاعِي مُجِيـــرًا ... مِـــنَ الْأَسْـــوَاءِ كُـــلَّ مَـــنِ اسْـــتَجَارَا
وَأَن تَسْـــتَنفِرُوا جَمْعًـــا لُهَامًـــا ... تَغَـــصُّ بِـــهِ السَّبَاسِـــبُ وَالصَّـــحَارَى
تَمُـــرُّ عَلَـــى الْأَمَـــاعِزِ وَالثَّنَايَـــا ... قَنَابِلُـــهُ فَتَتْرُكُهَـــا غُبَـــارَا

...

وَرُومٌ عَـــايَنُوا فِـــي الـــدِّينِ ضُـــعْفًا ... فَرَامُـــوا كُـــلَّ مَـــا رَامُـــوا اخْتِبَـــارَا
فَـــإِنْ أَنـــتُمْ سَـــعَيْتُمْ وَانتَـــدَبْتُمْ ... بِـــرَغْمٍ مِـــنْهُمُ ازْدَجَـــرُوا ازْدِجَـــارَا
وَإِنْ أَنـــتُمْ تَكَاسَـــلْتُمْ وَخِمْـــتُمْ ... بِـــرَغْمٍ مِـــنكُمُ ابْتَـــدَرُوا ابْتِـــدَارَا
فَـــأَلْفَوْكُمْ كَمَـــا يَبْغُـــونَ فَوْضَـــى ... حَيَـــارَى لَا انتِـــدَابَ وَلَا ائْتِمَـــارَا

...

وَقَـــالُوا إِنَّ لِلْفُـــرَصِ انتِهَـــازًا ... وَثَـــارُوا كَـــيْ يَنَـــالُوا مِنْـــهُ ثَـــارَا
ولَـــم أَعْـــرِفْ وَسَـــوْفَ تَـــرَوْنَ عَمَّـــا ... قَلِيـــلٍ صُـــبْحَ لَـــيْلِكُمُ اسْـــتَنَارَا
مَهَـــى حُـــورَ الْمَـــدَامِعِ عَاطِفَـــاتٍ ... تَخُـــوضُ بِهَـــا الْقَرَاقِيـــرُ الْبِحَـــارَا
تُلَطِّمُهَـــا الْعُلُـــوجُ عَلَـــى خُـــدُودٍ ... كَسَـــا أَلْوَانَهَـــا الْفَـــزَعُ اصْـــفِرَارَا

...

فَـــلَا هُـــمْ يَرْحَمُـــونَ لَهَـــا بُكَـــاءً ... وَلَا يَخْشَـــوْنَ أَن تَجِـــدَ ائْتِـــدَارَا
وَحَلَّوْهَـــا خَلَاخِـــلَ مِـــن قُيُـــودٍ ... وَقَـــدْ كَانَـــتْ لُجَيْنًـــا أَوْ نُضَـــارَا
وَأَغْـــلَالًا بِأَجْيَـــادٍ وَأَيْـــدٍ ... تَعَـــوَّدَتِ الْقِـــلَادَةَ وَالسِّـــوَارَا
تُكَلِّفُهَـــا بَنَـــاتُ الـــرُّومِ قَسْـــرًا ... بِخِـــدْمَتِهَا رَوَاحًـــا وَابْتِكَـــارَا

...

وَتُكْـــرَهُ لِلَّـــذِي كَانَـــتْ تَـــرَاهُ ... حَـــلَالًا وَهِـــيَ طَائِعَـــةٌ شَـــنَارَا
فَيَـــا لَلْمُسْـــلِمِينَ لِمَـــا دَهَـــاكُمْ ... إِلَـــى كَـــمْ لَا تَـــرُدُّونَ الْحِـــوَارَا

أَجِيبُـــوا دَاعِـــيَ الْمَـــوْلَى تَعـــالَى أَوِ اعْتَـــذِرُوا وَلَـــن تَجِـــدُوا اعْتِـــذَارَا
أَجِيبُـــــوهُ بِـــــدُنْيَاكُمْ تَعِـــــزُّوا وَتَـــدَّخِرُوا مِـــنَ الْأَجْـــرِ ادِّخَـــارَا[1]

ويدعو اجدود بن اكتوشني (ت. سنة 1872/1289)، إلى مؤازرة الأمير محمد الحبيب ومواجهة الخطر الفرنسي باستخدام الوسائل العسكرية والاقتصادية اللازمة لمقارعة الأعداء. يقول ضمن قصيدة مطولة في هذا الموضوع:

حاصـــر المســـلمين جنـــدُ النصـــارى بيـــــد الله أن يزيـــــل الحصـــــارا

...

أيهـــا المســـلمون شـــدوا علـــيهم وانزلـــوا "الزيـــره" وانزلـــوا "كنـــارا"
ســـارعوا للجهـــاد بعـــد التـــواني واجعلـــوا خشـــية الإلـــه شـــعارا

...

لا تخونـــوا إمـــامكم وانصـــروه إن فـــي خونـــه لـــذلا وعـــارا
قـــد دعـــاكم فلـــم يـــزدكم دعـــاه لجهـــاد العـــدو إلا فـــرارا
طالمـــا حـــاول الجهـــاد وحيـــدا أوحيـــدٌ يـــروم فـــتح النصـــارى؟
فانصـــروه ينصـــركم الله طـــرا واقتلـــوا المشـــركين والفجـــارا
يـــا حبيبـــا أوجـــف علـــيهم بخيـــل وبرجـــل يهـــدّم الأمصـــارا
صـــابروا واصـــبروا عليـــه وشـــنوا لحـــروب العـــدا الكثيـــرين نـــارا

...

وأعـــدوا مـــن القـــوى مـــا اســـتطعتم واشـــتروا الخيـــل والقـــلاص المهـــارا[2]

ويمضي هذا الشاعر الفقيه داعما الحصار الذي فرضه الأمير التروزي محمد الحبيب على بيع الصمغ العربي للفرنسيين، وهو الحصار الذي تضررت

(1) انظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط**، مرجع سابق، صص**246** وما بعدها.
(2) اجدود بن اكتوشني، قصيدة سارعوا للجهاد، **معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين**، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية، الكويت.

منه بعض القبائل الزاوية التي ينتمي إليها الشاعر نفسه:

لا تُعينـوا بالعلـك حـزب الأعـادي أتعينـون آثمـا كفـارا؟
فـاقطعوا عـنهم الشـراء حـذارا أن يصـروا علـى الأذى إصـرارا
فـإذا مـا أعتمـوهم أسـاؤوا وأصـروا واسـتكبروا استكبارا[1]

ط. الهجرة:

كانت الاستجابة للحدث الاستعماري بعد أن أصبح واقعا يعيشه الناس متفاوتة، وتمثل الموقف الديني من هذه النازلة في بروز قطبين رئيسيين ينظر أحدهما لقبول الاستعمار بوصفه يكرس واقعا أفضل من واقع السيبة والاقتتال الداخلي الذي كان قائما، بينما يعارض الآخر أي نوع من التعامل مع الاستعمار[2]. وقد استند القطبان كلاهما على قراءة معينة لنصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء، وساقا مسوغات مؤسسة شرعا ومنطقية عقلا ومقبولة سياسيا.

ونظرا لطبيعة الموضوع فإننا سنقتصر على أمثلة من آراء ومواقف القطب الرافض للتعامل مع الفرنسيين. فقد تباينت الفتاوى من قائل بالجهاد المسلح، إلى مفتٍ بالهجرة عن بلد تغلب فيه الكفار إلى مكتف بهجرة داخلية يقصر أصحابها الصلاة في بلدهم لأنهم يعدمون فيه الأمن ولأنهم في حالة حرب مع المحتل المخالف في الدين، إلى مقتصر على تحريم التعامل مع الغزاة بالاتجار أو توفير الأخبار والمراكب... فضلا عن الانتظام في جيشهم أو الانخراط في مدارسهم وهي الأداة الأساسية لإعداد المعاونين من كتبة

(1) **معجم البابطين**، مرجع سابق.

(2) راجع بهذا الخصوص كلا من:

- ✓ إزيدبيه بيه ولد محمد محمود، **الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي**، المطبعة الوطنية، نواكشوط، **2001**.
- ✓ حامد ولد ببكر سيره، **القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه (1850-1960)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب بنمسيك، المغرب، **2012**.

ومترجمين، إلخ.

فهاهو الشيخ حماه الله (ت سنة 1364هـ/1945) يعلن الجهاد بدون سلاح وينشر الدعاية ضد المستعمر ويقصر الصلاة سنتين معتبرا البلاد في حالة حرب[1].

وتكثر الفتاوى المتعلقة بوجوب الهجرة من البلاد بعد سقوطها في قبضة الكافر ومقاطعة المدرسة الاستعمارية:

✓ الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل (ت. سنة 1328هـ/1910)، "هداية من حارا في أمر النصارى"[2]،

✓ سيدي أحمد ولد حبت (1374ت. سنة هـ/1954)، "مهدية الحيارى إلى حكم من غلب على وطنه النصارى"[3]،

✓ الشيخ محمد العاقب ولد مايابه (ت. سنة 1327هـ/1909)، "مزيل الحرج في رد ما عند من اسقط الهجرة من الحجج"[4].

ويذهب الفقيه سيدي المختار بن محمد عينين بن أحمد بن الهادي (ت. سنة 1322هـ/1905)، إلى حد اعتبار من يقيم مع الكفار أو يقدم لهم العون مثلهم، فيفتي بحلية مال من "سكن مع النصارى وأعانهم"[5].

وقد سجل الشيخ محمد العاقب ولد مايابه هذا الرأي شعرا حين يقول:

---

(1) للمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى:
Alioune TRAORE, **Islam et colonisation en Afrique, Cheick Hamahoullah, homme de foi et résistant**, Paris, Maisonneuve & Larose, **1983**, 278 p.

(2) الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل، هداية من حارا في أمر النصارى،

(3) سيدي أحمد ولد حبت، مهدية الحيارى إلى حكم من غلب على وطنه النصارى،

(4) الشيخ محمد العاقب ولد مايابه، مزيل الحرج في في رد ما عند من اسقط الهجرة من الحجج،

(5) سيدي المختار بن محمد عينين بن أحمد بن الهادي، إرشاد الضال إلى وجوب جهاد كوبولان وحرمة مساكنته المجبة للفسق والعصيان، مخطوط، 20 صفحة بحوزتنا نسخة منه قدمها لنا مشكورا زميلنا الأستاذ عبد الله ولد أحمد ولد الهادي.

ANCH SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ومالـــــه والأهـــــل والبنونـــــا فـــيء بـــه فـــاز المهاجرونـــا[1]

ورغم أن السلطات الاستعمارية فرضت رقابة صارمة على العلماء والمشايخ الموريتانيين وأخضعت تحركاتهم لترخيصات خاصة وفتحت لهم ملفات استخباراتية[2] (Fiches de renseignement)، فقد هاجر العديد من العلماء والأمراء وشملت الهجرة بعض الأسر وأحيانا بعض المجموعات القبلية[3].

ويشير فرانسيس دو شاسي (Francis de Chassey) إلى أن "هناك تيارات دينية أثارت قلق السلطات الاستعمارية وخرجت على سيطرتها كالجماعة الغظفية في آدرار وتكانت وأتباع الشيخ إبراهيم انياس في موريتانيا وأتباع الشيخ حماه الله".[4]

هـ -مقاطعة المدرسة الإستعمارية:

لم يستطع المحتل اختراق الحاجز الذي أقامه السكان سورا بينهم وبينه حتى بعد أن أصبح يحكمهم بشكل فعلي، فقد ظلوا ينظرون إليه بعين الريبة والتوجس، ويؤثرون اعتزاله مفضلين العزلة في الفيافي فرارا بدينهم، بل إنهم،

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) انظر: إزيد بيه ولد محمد محمود، **الزوايا في بلاد شنقيط**، مرجع سابق، ص. **329**.

(2) تضمنت بيانات مفصلة عن الشخصيات المعنية: عدد الطلبة والأتباع والعلاقات الخارجية والصلة بالشيوخ الآخرين والأسفار والكتب المتوفرة وتأدية أو عدم تأدية فريضة الحج والعلاقة بالمغرب والموقف من الفرنسيين، إلخ. (أنظر الملحقات).

(3) نشير هنا إلى هجرة كل من سيدي المختار ولد سيدي ولد الشيخ القاضي الإجيجبي المتوفى بالمغرب في نهاية العشرية الأولى من القرن العشرين ومحمد عبد الله ولد احمذيه الحسني (ت. سنة **1390**هـ-**1970**) ومحمد الأمين بن زيني القلقمي الذي هاجر من الحوض في حدود سنة **1908** صحبة **600** رجل تصحبهم عائلاتهم حسب بعض الروايات، وقد خلفوا أثرا طيبا في ليبيا والأردن وتركيا. راجع كلا من:

- ✓ محمد محمود ولد ودادي، **البرابيش**، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، **1986**،
- ✓ سيد أحمد ولد الأمير، **المقاومة الموريتانية والأتراك.. قراءة في علاقات المقاومة بالعالم الإسلامي**، على الرابط:

http://tawary.com/spip.php?article**11312**

(4) Francis de Chassey, **La Mauritanie 1900-1975**, l'Harmattan, **1984**, pp. **143-144**.

في بداية الأمر، اتخذوا الموقف نفسه من الذين تعاملوا معه من تراجمة (آماليز) ورؤساء مجموعات قبلية (سيفات) وحراس ومخبرين، إلخ.

وكان للمدرسة الاستعمارية (l'Ecole) الحظ الأوفر من تلك المقاطعة، فقد نُظر إليها كأداة للتنصير. وعلى عكس المحضرة التي كانت تشد إليها الرحال من منطقة إلى أخرى رغبة في استكمال فن أو الاطلاع على كتاب نادر أو لمجرد الالتقاء بشيخ ذائع الصيت...، فقد لجأ الموريتانيون إلى شتى الطرق للتهرب من المدرسة الاستعمارية التي كانت تثير في أنفسهم الرعب إن هي حلت بحي من أحيائهم.

يقول الشيخ أحمد بن أحمذيه الحسني (تـ سنة 1387هـ/1967) مهنئا قومه بفشل مشروع مدرسة كانت ستفرض على حيهم:

الحمد لله على ما نفسة من الكروب بسقوط المدرسة
مدرسة الروم عن أبناء الحسن وقد يراها غيرهم أمرا حسن
وهم يرونها بعين الأرمد ليس بها هاد ولا من مهتد[1]

وقد اعتبرت المدرسة الاستعمارية نازلة يتعين تبيين موقف الشرع منها، فسجل العلماء فتاواهم بشأنها نظما ونثرا، وكانت موضوع مساجلات شعرية يطرح فيها السؤال الفقهي شعرا فتتوارد الإجابات شعرا كذلك من كل من يصله ذلك السؤال[2].

وقد اضطلعت المحضرة بدور متميز في مجال مقاطعة المدرسة الاستعمارية. فقد رأى شيوخ المحاضر في التعليم الوافد خطرا يهدد المحضرة في الصميم فتصدوا لها بكل ما أوتوا من قوة، وأفتى بعضهم بعدم جواز الانتساب إلى هذه المدارس.

---

(1) يحيى بن محمدن الهاشمي، شعر المقاومة الموريتانية ضد الاستعمار الفرنسي من 1854 إلى 1960، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 2013، ص.360.

(2) انظر الخليل النحوي، بلاد شنقيط، م. س.، صص. 357- 358.

وقد استدعى الأمر من السلطات الفرنسية إجراءات قسرية حتى تحصل على زبناء ولو قلة للمدرسة الاستعمارية فلم تتكلل مجهوداتها تلك بالنجاح.

وأمام هذا الواقع ارتأى الفرنسيون أن يستبدلوا المدرسة المنبوذة (l'Ecole) بنمط آخر من التعليم العصري كان قد لقي بعض النجاح في مناطق أخرى من العالم العربي والإسلامي، هو (la Medersa) التي تدرس من بين ما تدرس العلوم الشرعية واللغوية، واستوردوا لهذا الغرض مدرسين من دول عربية وإسلامية، بل واكتتبوا لها لاحقا بعض الشيوخ المحليين، عساها تنجح في كسب ثقة الناس وتجعلهم يقبلون على ما تحويه من حصص باللغة الفرنسية.

ولكن المدرسة اصطدمت بممانعة شديدة وبفتاوى تحرم تعلم خطوط الكفار وتلقي علومهم التي يسعون -حسب وعي القوم- من خلالها إلى تغيير العقائد من الإيمان إلى الكفر وإحلال ثقافة المستعمر محل الثقافة المحلية وبالتالي القضاء على الهوية الإسلامية للبلد. يقول محمد بن محمد المصطفى البارتيلي:

ملح البلاد ما جواب سائل عن حكم أمر في البلاد نازل
إسلامنا أولادنا الصغارا طوعا إلى مدارس النصارى

فأجابه من بين من أجابه محمد الأمين بن محمد مولود اليعقوبي (ت.سنة 1371هـ/1951):

جاز تعلم خطوط الكفرة لبالغ عند الملاح المهرة
ومنعوا إسلام نجله الأب لكافر يبعثه في المكتب
وإثمه بعد إذا تنصرا على الذي أعطاه فيما اشتهرا[1]

(1) هنالك رواية تنسب هذه الأبيات إلى جده أحمد فال (توفى في حدود **1280**هـ/**1863**) ابن محمذن فال بن الأمين بن المختار بن أجفغ موسى. مقابلة مع الأستاذ الفقيه أحمدو سالم محمد يحظيه، شيخ محضرة باميرة، يوم **5** مايو **2018**.

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وقد واصل العديد من الموريتانيين مقاطعة المدرسة الحديثة حتى في ظل الدولة المستقلة لأن هذه المدرسة بالنسبة لبعض شيوخ المحاضر ربيبة المدرسة الاستعمارية ولأن برامجها تشمل اللغة الفرنسية وغيرها من المقررات التي لا يسمح الشرع -حسب هؤلاء المشايخ- بتدريسها.

وإذا كانت هذه المدارس الأهلية قد اضطلعت بأدوار متعددة (تعليمية، اجتماعية، مهنية، سياسية وحضارية) في داخل البلاد، فإن شأنها خارج موريتانيا لم يكن أقل أهمية.

1 -الإشعاع المحضري خارج موريتانيا:

كان للمحضرة الموريتانية وما يزال إشعاع متميز في المنطقة عموما وفي ربوع إفريقيا الغربية على وجه الخصوص، ذلك أن "سفراء المحضرة" كانوا يجوبون أصقاع تلك المنطقة داعين بالتي هي أحسن ناشرين عقيدتهم الإسلامية ولغتهم العربية بأخلاقهم الفاضلة التي كانت تلاقي رواجا كبيرا في صفوف السكان وحتى داخل البلاطات، إذ "كان الأمراء الأفارقة الذين يعتنقون الإسلام يتخذون شيوخا من البيضان يعلمونهم أحكام الدين ويقرئونهم القرءان ويؤمون بهم الصلاة ويبذلون النصح للمسلمين"(1).

وقد تفطن الفرنسيون إلى هذه الأدوار التي يضطلع بها الموريتانيون. يقول المستكشف الفرنسي الأب لابات (Le Père Labat) المتوفى سنة 1150هـ/ 1738م الذي تجول في منطقة حوض نهر السنغال في ملتقى القرنين السابع عشر والثامن عشر: "إن مشايخ البيضان هم الذين نقلوا الإسلام إلى الزنوج، ولذلك كان لهم تأثير قوي على تلك الشعوب التي تعتبرهم أساتذة مرشدين في كل مسألة لها صلة بالدين وتستشيرهم في معظم أمورها"(2).

ويشير الرحالة موليين (Mollien) المتوفى سنة 1289هـ/1872وقد زار

---

(1) الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سابق، ص. 259.

(2) J. B. Labat, Le Père, **Nouvelle relation de l'Afrique occidentale**, Paris, Th. le Gras et G. Cavalier, **1728**, **5** vol.

المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر، إلى دور هؤلاء البيضان في نشر الدين الإسلامي عبر أصقاع القارة الإفريقية فيقول: "إن سرعة نجاحهم [البيضان] تجعلنا نفترض أن المبشرين المسيحيين في رأس الرجاء الصالح، قبل أن يتمكنوا [...] من دخول المناطق الوسطى من القارة الإفريقية،سيلاقون [هنالك] مسلمين"(1).

وقد اعترف موليين بمزايا انتشار الدين الإسلامي في المنطقة قائلا: "إن الديانة المحمدية التي اعتنقتها تقريبا كل الشعوب الإفريقية التي زرتها قد أنارت عقولهم وصقلت أخلاقهم وطباعهم وحطمت في صفوفهم تلك الممارسات الهمجية التي يحتفظ بها الإنسان في حالة الوحشية"(2).

ويواصل هذا الرحالة في السياق نفسه متحدثا عن زنوج المنطقة، وقد اعتنقوا الإسلام: "إن رواياتي تستهدف في الوقت نفسه البرهنة على أن هؤلاء الزنوج الذين ننظر إليهم وكأنهم همج [!؟]، بعيدون من أن يكونوا محرومين تماما من المعارف. إنهم ليسوا أقل تطورا من معظم سكان البادية في القارة الأوروبية"(3).

المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وسيتواصل الحديث عن هذا الدور على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين، إذ نجد كلا من الرحالتين بول صوليي (Paul Soleillet) المتوفى سنة 1304هـ/1886م وبول بلانشي (Paul Blanchet) المتوفى سنة 1318هـ/1900م -وقد زارا مخيم الشيخ سعدبوه (ت.سنة 1335هـ/1917) على التوالي سنتيْ 1880 و1900- يتحدث عن إشعاع تلك الشخصية الدينية البارزة وما يتوفر عليه ذلك الشيخ من أتباع كثر في مختلف مناطق إفريقيا

(1) Gaspard Théodore Mollien, **Voyage dans l'intérieur de l'Afrique et aux sources du Sénégal et de la Gambie, fait en 1818 par ordre du Gouvernement français**, Imprimerie de Madame Veuve Courcier, Paris, **1820**, 2 volumes, **337 319** p.

(2) Mollien, **Voyage dans l'intérieur de l'Afrique**, op.cit.

(3) Idem

الغربية[1].

ويؤكد الإداري الفرنسي بول مارتي (Paul Marty) المتوفى سنة 1356هـ/ 1938م والذي شغل وظائف سامية في مستعمرة السنغال انتشار الدعوة الإسلامية في المنطقة على أيدي الموريتانيين قائلا: "توجد أعداد مهمة من مشايخ البيضان في كافة القرى والمدن السنغالية حيث يسيرون مدارس لتعليم القرءان واللغة العربية، إنهم دعاة أشداء للإسلام"[2].

ويشير هذا الفرنسي إلى العلاقة بين التطورات الحاصلة في السنغال ودعوة شيوخ وأئمة المحاضر الموريتانية جازما بسيطرة الموريتانيين الدينية على تلك البلاد. يقول: "إن التحولات السياسية والدينية التي عرفها السنغال خلال القرن الثامن عشر مثل ثورة الإمام عبد القادر وقيام دولة الأئمة على أنقاض مملكة التكرور واعتناق ملوك والو للإسلام، هي نتيجة لجهود بعثات الدعاة التي كان العلماء الشناقطة يرسلونها إلى المنطقة. وبصفة عامة فإن الإسلام دخل السنغال وانتشر فيه بفضل المشايخ والعلماء الموريتانيين وأتباعهم وإنه اليوم خاضع للقيادة الدينية لهؤلاء المشايخ، إما مباشرة أو بشكل غير مباشر"[3].

---

(1) راجع كلا من:

- ✓ Paul Soleillet, **Rapport à Monsieur le Ministre des Travaux Publics sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, décembre **1879**-mai **1880**, **154** p., Centre des Archives d'Outre-mer, Aix-en-Provence, Série: Missions, Carton 2: Missions et Voyages (dossier Paul Soleillet).
- ✓ Paul Blanchet, **Rapport de mission en Adrar (Mauritanie), 1900**, **36** p., Centre des Archives d'Outre-mer, Aix-en-Provence, Série: Affaires Politiques, Carton **2711**, Chemise n°4., (dossier Paul Blanchet).
- ✓ محمدو محمدن أمين، وثائق من التاريخ الموريتاني (نصوص فرنسية غير منشورة)، ترجمة وتحقيق وتعليق، جامعة نواكشوط، المطبعة الجديدة، نواكشوط، **2000**.

(2) Paul Marty, **L'Emirat du Trarza**, Paris, Larose, **1919**, p. 17.

(3) Paul Marty, **L'Emirat du Trarza**, op.cit., pp. **4-5**.

ويتعجب بول مارتي، وهو من زعماء المدرسة الاستعمارية، من كون الموريتانيين قد تمكنوا حتى خلال فترة السيطرة الاستعمارية من "غزو إفريقيا" متجاوزين السنغال إلى أقطار عديدة من الغرب الإفريقي رغم الاحتلال الفرنسي المباشر. يقول: "إن مشايخ البيضان قد أقبلوا على غزو إفريقيا في ظل الاستعمار، وشملت فتوحاتهم هذه السنغال، غامبيا، غينيا، ساحل العاج، الداهومي، السودان (مالي) مستغلين ظروف الأمن التي وفرها الفرنسيون"(1).

ويشيد أحد الإخوة العرب بالدور الذي اضطلع به الموريتانيون في نشر اللغة العربية والدفاع عنها فيقول: "كان للموريتانيين دور لا بد أن يذكر في تعزيز صمود اللغة العربية داخل السنغال. وقد ظل هؤلاء الموريتانيون بمثابة الدعامة الأساسية التي قامت عليها مختلف خنادق الدفاع عن اللغة العربية أمام الغزوة الاستعمارية الشرسة"(2).

وهكذا لم تقتصر المقاومة الثقافية على البلاد الموريتانية، بل امتدت لتشمل المناطق المجاورة خاصة في إفريقيا الغربية مستفيدة من التطورات الحاصلة أثناء الفترة الاستعمارية، فتمكنت من فتح المنطقة دينيا وثقافيا، إذ نجد الحاكم العام لغرب إفريقيا بيير كورناري (Pierre Cournarie) المتوفى سنة 1388هـ/1968م يبدي قلقه سنة 1944 من تزايد عدد المسلمين في المنطقة بصورة مذهلة حيث ارتفع من 3.875.000 سنة 1924 إلى 6.241.000 سنة 1936 مما "ينذر" بانتشار الإسلام في منطقة غرب إفريقيا كلها ويمس -حسب اعتراف هذا الحاكم- من سمعة فرنسا وهيبتها.(3)

وبفضل المحضرة أيضا سعى علماء وفقهاء هذا الإقليم إلى مد جسور الاتصال مع البيت العربي ودار الإسلام، وحرصوا على صيانة واستمرارية تلك الجسور رغم العراقيل الجمة. وفي هذا النطاق تمكن الإشارة إلى:

---

(1) Paul Marty, **L'Emirat du Trarza**, op.cit., p. **18**.

(2) فهمي هويدي، العربي، ربيع **1402**،

(3) Francis de Chassey, **La Mauritanie**, op.cit., p. **136**.

أ -رحلات الحج الشنقيطية:

بقيت رحلات الحج مستمرة رغم صعوبة ومخاطر الطريق وقساوة المناخ وتخلف وسائل النقل ووعورة الطرق الموصلة إلى هذا الجزء الهامشي من بلاد الإسلام الواقع في النواحي الجنوبية الغربية من الصحراء الكبرى والذي كان يوصف بأنه "بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك، وفي زاوية الإسلام موضوع وبعضه خلف البحر مقطوع، فلا فيه راغب ولا له ذاهب"(1).

وقد ساهمت هذه الرحلات مساهمة فعالة في ربط البلاد بجذورها العربية والإسلامية مجسدة نوعا من التثاقف أخذا وعطاء.(2)

ب -استجلاب أمهات الكتب والمتون:

كان العلماء الشناقطة حريصين على توفير هذه المصادر شراء أو استنساخا من الحواضر المغاربية والمصرية والحجازية. ذلك ما تفطن إليه بعض المستشرقين الفرنسيين من أمثال بول ديبيى (Paul Dubié) الذي يقول: "إن العديد من العلماء الموريتانيين يمتلكون مكتبات غنية. ويقوم بعضهم أحيانا برحلات إلى إفريقيا الشمالية وإلى الديار المقدسة. وهم يتوفرون على مستوى رفيع في مجال العلوم الدينية والشرعية"(3).

ج. الدراسة أو التدريس:

كان من دواعي العديد من رحلات طلاب وخريجي المحاضر الموريتانية إلى المغرب أو المشرق العربيين، فضلا عن تأدية فريضة الحج، السعيُ إلى الاستزادة من العلم والبحث عن المتون والحصول على الإجازات حيث درَسوا أو درّسوا في بعض الجامعات العربية (القرويين، الزيتونة، الأزهر، إلخ.).

---

(1) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، **1906**، ص. **216**.

(2) للمزيد من التفاصيل، راجع **الجزء السادس** من هذا الكتاب.

(3) Paul Dubié, **La vie matérielle des Maures**, op.cit., p.**119**.

ولقد استدعى الإرث المحضري وما أفضى إليه من تمسك قوي بالجذور الحضارية مجهودا مضنيا ويائسا من قبل الفرنسيين المستعمرين الذين سعوا بكل ما أوتوا من قوة إلى بتر أبناء المحضرة عن تلك الجذور تسهيلا لترويضهم وإخضاعهم، إذ "زجوا بموريتانيا في إفريقيا الغربية الفرنسية واتخذوا مدينة سين-لوي السنغالية مقرا لحكومتها فارضين على هذا الشعب الانبتات عن جذوره"[1] وذلك حسب تعبير أحد الفرنسيين.

ورغم ذلك بقيت صلات الموريتانيين بإخوانهم العرب -بفضل المحاضر- حميمية وواصلوا تأدية رسالتهم التاريخية في هذا الجزء من القارة الإفريقية. يقول المستشرق الفرنسي بول ديبيى في هذا السياق: "إن المراكز الإسلامية [القائمة على المحضرة] في موريتانيا حيوية جدا. فالعديد من العلماء [وهم شيوخ المحاضر] يمتلكون مكتبات غنية. [...] ولا شك أنهم يمثلون بؤرة العروبة والإسلام الأكثر حيوية في إفريقيا الغربية".[2]

أما في المشرق العربي، فنكتفي بسوق مثال واحد من رموز هذه المحضرة هو الشيخ الشنقيطي محمد محمود بن التلاميد التركزي (ت. سنة 1322هـ/ 1904) وكان من أشهر الشناقطة في المشرق وأكثرهم حوارات وخصومات. فحين انتقل من الحجاز إلى القاهرة وجد العلماء الأنداد مثل الشيخ محمد عبده ومحمد توفيق البكري ورشيد رضا.

وقد توطدت علاقات هذا الشنقيطي على وجه الخصوص بمفتي الديار المصرية الذي وجد له مرتبا من الأوقاف وأسند إليه مهمة التدريس بالأزهر وكلفه ببرنامج لإحياء التراث العربي الإسلامي.

وسنفسح المجال أمام نماذج من الشهادات المصرية المعبرة المتعلقة بخريج وأستاذ المحضرة الشنقيطية هذا.

يشير طه حسين (ت.سنة 1393هـ/1973م) في كتابه الأيام إلى هذه الفترة من

(1) André Lecourtois, **Etude expérimentale sur l'enseignement islamique**, op.cit.

(2) Paul Dubié, **La vie matérielle des Maures**, op.cit., p. **119**.

حياة ابن التلاميد قائلا: "كان أولئك الطلبة الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلب. وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا، وأنه لم يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئا أو ناسخا"[1].

ويسير أحمد حسن الزيات (ت.سنة 1388هـ/1968م) في السياق نفسه حين يذكر في مقال له بمجلة الأزهر أن هذا الشنقيطي كان "آية من آيات الله في حفظ الحديث والأخبار والأمثال والأنساب لا يَندّ عن ذهنه من كل أولئك نصٌّ ولا سندٌ ولا رواية"[2]. ويرسم الزيات صورة لأستاذه الشنقيطي لا تخلو من دقة فيقول: "إنه هيكل ضئيل وبدن نحيل ووجه ضامر ولون أخضر وصوت خفيض، فمن يراه، لأول مرة، لا يصدق أن هذا الجرم قد جاب البر والبحر وطاف الشرق والغرب وكافح الأنداد والخصوم ووعى صدرُه الضيقُ معاجمَ اللغة وصحاحَ السنة ودواوينَ الشعراء وعلمَ الآداب".[3]

المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) طه حسين، المجموعة الكاملة، المجلد الأول: الأيام، دار الكتاب اللبناني، الطبعة 2، 1974، صص. 343-344.

(2) أحمد حسن الزيات، "كيف عرفت الشنقيطي"، مجلة الأزهر، المجلد 33، سبتمبر 1961، صص. 391-395، ص. 392.

(3) أحمد حسن الزيات، "كيف عرفت على الشنقيطي"، المرجع السابق، ص. 394.

خامسا. التحديات الأساسية

لقد واجهت المحاضر على مدى تاريخها تحديات لعل أبلغها تأثيرا على بنيتها وأدوارها عوامل من أهمها:

1 -منافسة المدرسة الحديثة:

لقد ظلت المحاضر لقرون عدة المسؤول الوحيد عن تنشئة الأجيال وبالتالي عن صياغة المجتمع طبقا لرؤية دينية أطّرها الفقهُ المالكي والمعتقدُ الأشعري.

وفجأة ظهر التعليم النظامي وافدا جديدا تعززه آليات منهجية ومضمون معرفي لا عهد للتعليم المحضري بهما.

وإذا كانت المحضرة -بفضل قدرتها التعبوية ومصداقيتها لدى العامة بوصفها الناطق الرسمي باسم الشرع- قد استطاعت أن تثني غالبية السكان عن ارتياد المدرسة النظامية في العهد الاستعماري باعتبارها مدرسة "النصارى" لغةً ومحتوىً، فإن التعليم الرسمي قد عرف قفزة مهمة في ظل دولة الاستقلال وبدأ يفرض نفسه على شرائح واسعة من الوسط الاجتماعي الخاص عادة بالمحضرة مبعدا أعدادا متزايدة من الشباب عن ارتياد هذه المؤسسة تحت تأثيرات إغراء المدينة والبحث عن بدائل لتوفير العيش الكريم بعد أن تخلخلت قاعدة الاقتصاد الريفي بفعل الجفاف.

2 -الجفاف:

لا شك أن الجفاف الذي ضرب المنطقة أثناء سبعينيات القرن المنصرم -بما شكله من خلخلة للبنية الاقتصادية ومنظومة العلاقات الاجتماعية والقيمية- كان شديد الوطأة على المدارس الأهلية التي هي بالأساس مؤسسات بدوية تنتشر أساسا في الأحياء والتجمعات الريفية وتعتمد بالتالي على تربية المواشي وما تجود به من لبن ولحم وصوف وعلى منتوج زراعي مكمل قليل في غالب الأحيان جراء اعتماد الزراعة على الأمطار غير المنتظمة وتخلف الأدوات والأساليب الزراعية.

وقد تسبب هذا الجفاف الذي أتى على الأخضر واليابس في نزوح كاسح من الأرياف إلى المدن الكبرى التي عرفت –جراء ذلك- اكتظاظا ديموغرافيا حادا.

وكان لهذا النزوح السكاني الكبير تأثيره البالغ على المحضرة التي فقدت أعدادا كبيرة من منتسبيها الفعليين والمحتملين. كما أن الفاقة الكبيرة التي خلفها جفاف الزرع وهلاك الضرع زادت من تفاقم وضعية المحضرة التي لم تستقر قاعدتها في المدينة بعدُ، فلم تعد تحصل على التبرعات "والأوقاف" لصالح الطلاب "المؤبدين" كما كان في السابق، مما أفقد شيخ المحضرة في الغالب الأعم قدرته المعهودة على الاحتفاظ بهؤلاء "المؤبدين".

ولم تعد غالبية الأسر قادرة على تجهيز أبنائها لإرسالهم إلى المحضرة بالزاد الضروري. فكانت النتيجة من كل ذلك أن عرفت أعداد طلاب المحضرة تناقصا حادا هدد وجودها في الصميم.

3 -الحاجة إلى الإكتتاب:

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وجدت الدولة الحديثة نفسها غداة الاستقلال أمام حاجيات كبيرة تستدعي إطارا بشريا قادرا على سدها في مختلف الأجهزة الحكومية. وبدت المحضرة جهة مرشحة لتوفير هذا الإطار.

وهكذا انخرط المحضريون في مختلف قطاعات الدولة. وقد قاد تعريب قطاعيْ التعليم والقضاء لاحقا أعدادا كبيرة من الأطر المحضرية إلى قطاعات التعليم والعدالة والصحافة إلخ.، فأصبحت موجات متزايدة من طلبة المحضرة تهاجر باستمرار إلى المدن لتجرب حظها في الامتحانات والمسابقات الرسمية باحثة عن وظيفة قارة.

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوضع على المحضرة التي باتت تفقد وبشكل مستمر نسبة كبيرة من منتسبيها قبل أن يكملوا تعليمهم المحضري ليؤسس بعضهم محاضر جديدة كما كان يحدث لو أن الأمور جرت على ما كانت تجري عليه.

4 -تغير النظرة إلى التعليم:

لقد كان لتغير القيم دور لا يمكن تجاهله، إذ لم يعد الطالب يتعلم لوجه الله تعالى أو سعيا إلى تبوؤ مكانة اجتماعية مرموقة كما كان في السابق، وإنما بات التفكير في التحصيل المادي والبحث عن المنفعة المباشرة والكسب السريع أحد محركات وحوافز الطلبة، بل إن النزعة المنفعية الانتهازية استفحلت لتطغى أحيانا على بعض شيوخ المحاضر ذاتها، إذ يبدو أن ظاهرة "مؤسسات الجيب" التي نصادف بموجبها منظمات وشركات لا وجود لها خارج ملفات أصحابها المحمولة في حقائبهم أو في جيوبهم، قد بدأت تغزو قطاعات الثقافة والتهذيب حتى بتنا نلاقي أحيانا "شيوخ" محاضر "أدعياء" لا يتقنون القراءة ولا الكتابة، في حين لا يتورعون عن استجداء العون لمحاضرهم الوهمية حتى من الهيئات والبلدان الأجنبية.

5 -انتشار وسائل الإتصال:

من الطبيعي أن تتأثر المدارس التقليدية بالتطورات الحاصلة على الصعيد الدولي. فالثورة التقنية والقفزة المذهلة في مجال الاتصالات والمواصلات؛ كل ذلك أدى إلى تعقد وتداخل نمط الحياة العصرية وإلى تزايد وتعدد الاهتمامات والانشغالات بشكل ربط المدن بالأرياف وحدّ من عزلة هذه المناطق عن العالم الخارجي كما حدّ من هدوئها، هذه العزلة وذلك الهدوء اللذان كانا من عوامل التحصيل المحضري المعتمد على الحفظ والاستظهار؛ فما ذا بقي لهذا التعليم إذن من أدوار؟ وهل انتهت الحاجة إليه؟

سادسا. التعليم المحضري ودوره في الظروف الحالية

إذا كانت العوائق التي تحدثنا عنها أعلاه -من بين عوائق أخرى عديدة- تبرز ما يواجه التعليم الأهلي من تحديات جدية تمسّ مقومات وجوده الأساسية، فإن ذلك لا يعني أن هذا التعليم سيتخلى عن إسهامه في صياغة معارف الناس وسلوكهم في هذا الزمن العربي الرديء، بل إن التعليم المحضري بما أُثر عنه من مرونة في الأساليب وبساطة في الأدوات ما زال يحتفظ بمخزون ثرٍّ يؤهله لخدمة أهداف الإستراتيجية العامة للدولة في مجال التعليم ومحو الأمية. غير أن نجاح هذا النمط من التعليم -بل وبقاءه- يبدو مرهونا بقدرته على التجدد الذاتي معرفيا ومنهجيا. ولكي يتسنى له ذلك يتعين عليه أن يستجيب لجملة من الضرورات لعل من أكثرها إلحاحا:

1 -المواءمة بين الأصالة والمعاصرة:

تواجه المدرسة التقليدية رهانا صعبا يتمثل في:

أ. صيانة إرثها التاريخي ومميزاتها الأساسية (حرية المنهج، المساواة في طلب العلم، المجانية)،

ب. المحافظة على الخصائص الثقافية والقيم الدينية للأمة،

ج. الانفتاح على العصر والاندماج في مسار التنمية والتعامل مع مستجدات الظرفية الدولية بموضوعية وتبصر ومرونة.

2 -مراجعة المقررات:

لقد بات التفكير في مراجعة المقررات والمناهج والوسائل التربوية مسألة ملحة ربما يتوقف عليها مستقبل التعليم المحضري نفسه.

ويمكن أن تشمل هذه المراجعة من بين أمور أخرى البحث عن صيغ ووسائل لدمج تدريس الحساب والعلوم واللغات الحية والمعلوماتية والتسيير والتربية مواكبةً للعصر وانفتاحا على ما يتجدد من معارف وتقنيات ومساعدةً للخريجين على ولوج سوق العمل.

3 -مراعاة متطلبات سوق العمل:

تجب العناية بالتكوين العملي والبحث عن الطرق الملائمة التي تعطي لخريجي المحاضر فرصا أكثر للحصول على العمل والمساهمة في عملية التنمية، ذلك أن التوازن التقليدي الذي كان يسمح باستيعاب غالبية هؤلاء الخريجين قد اختل جراء التحولات الجديدة وغدت المنافسة في سوق التشغيل أكثر حدة وانتقائية من أي وقت مضى. ففرص العمل المتاحة باتت تتطلب كفاءات وتخصصات ذات مواصفات معينة.

وتجسيدا لهذا المطلب وتمشيا مع مراعاة الظروف الجديدة أصبح من الملح المواءمة بين مقررات المحاضر وحاجات الدولة، وذلك من أجل توفير المزيد من فرص العمل للخريجين والحد من أعباء البطالة.

وبهذا ستتمكن المحاضر من أن توائم بين رسالتها التاريخية ومهماتها المستجدة، وتكون في المستقبل -كما كانت في الماضي- أداة من أدوات نشر المعرفة ودعم التنمية ووسيلة من وسائل توازن المجتمع والمحافظة على القيم الإسلامية السمحة بما تجسده من تآزر واعتدال ووسطية.

فواقع الأمية الراهن وما تتمتع به المحاضر من مصداقية لدى جميع الأوساط الموريتانية يجعل هذه المدارس الأهلية اليوم من أهم الأطر المؤسسية القادرة على بث المعارف كما كانت بالأمس. وقد شهد شاهد من أهلها ذات يوم حينما أكد الباحث الفرنسي آندرى لكورتوا أنه "بفضل المدارس البدوية [المحاضر] ونظامها التعليمي كانت نسبة الأميين منخفضة في موريتانيا بخلاف بلدان إفريقية وآسيوية عديدة"(1).

وجملة القول أن المقاومة الثقافية التي عرفتها هذه الربوع بقيادة وتأطير من شيوخ المحاضر قد ساهمت مساهمة كبيرة في صيانة التراث الثقافي والحضاري لهذا الشعب ورفعت اسم البلاد بأعلام كان لهم حضور متميز على

(1) André Lecourtois, **Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel**, op.cit., p. **44**.

مستوى العالم الإسلامي، ومكنت بالاعتماد على إمكانيات محدودة ووسائل بسيطة من الصمود في وجه التغريب والمسخ الثقافي وساعدت في التشبث بخصوصيات الأمة حيث يذكر الباحث الفرنسي فرانسيس دو شاسي (Francis de Chassey) "أن حماسا دينيا عارما صاحب الاستعمار، إذ ازداد البيضان (Maures) خلال الفترة الاستعمارية تمسكا بالإسلام وتطبيقا لشعائره، فانتشر التدين بين مختلف المراتب والفئات الاجتماعية"[1].

والمهمة نفسها تقتضيها اليوم تحديات العولمة الثقافية ودعوات التعصب وإلغاء الآخر التي ترتفع من وقت لآخر مبشرة بنهاية التاريخ لصالح صيغة واحدة مهيمنة حينا، وبتصادم الحضارات البشرية حينا آخر وما انجر عنها من التباس الحق بالباطل وانتشار تيارات التطرف والغلو والتكفير ومحاولات إلصاق مختلف التهم والنعوت السلبية بالدين الإسلامي الحنيف.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) Francis de Chassey, **La Mauritanie 1900-1975**, l'Harmattan, **1984**, p. **136**.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

صور من المحضرة[1]

ANICH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) هذه الصور استخرجناها من الشبكة العنكبوتية.

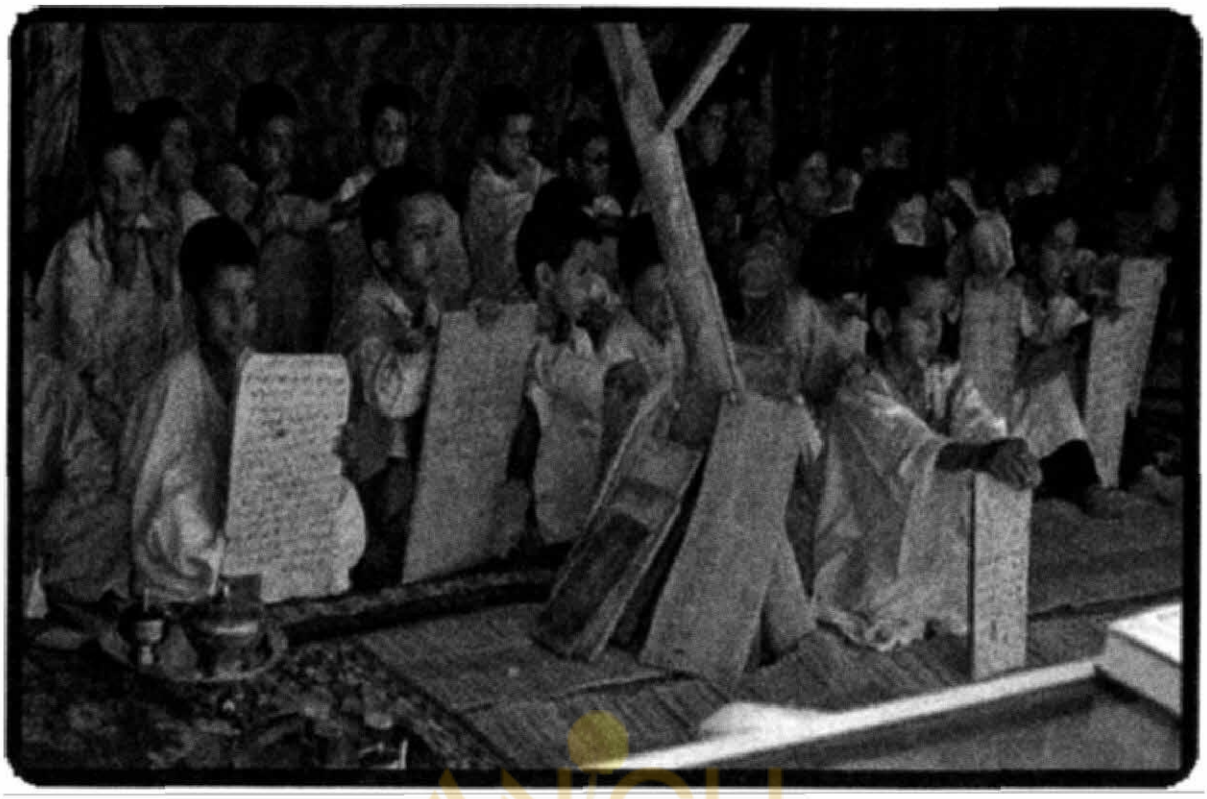

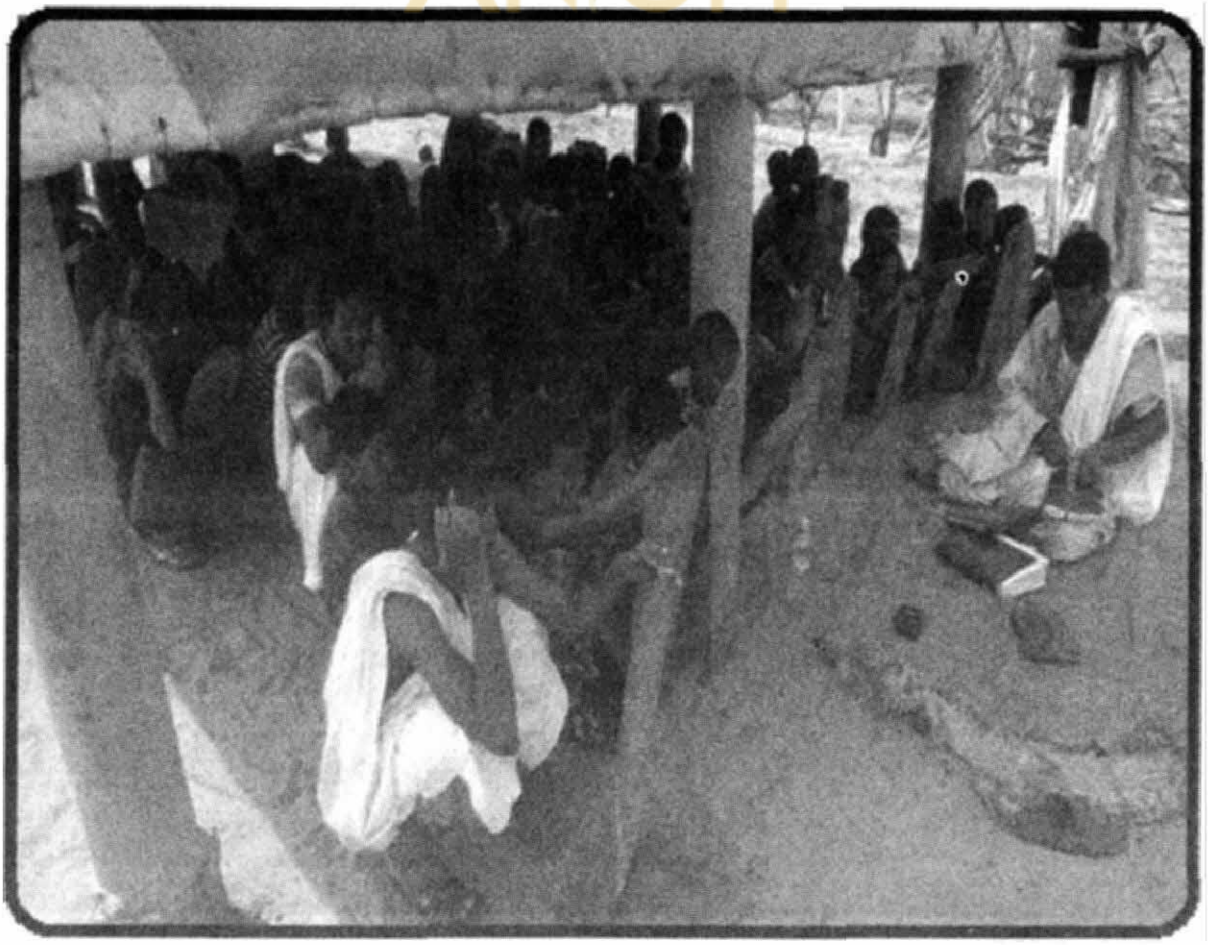

النص الخامس:

عمدة الطبيب: ملاحظات حول المنهج والرؤية

(قراءة في مخطوط طبي موريتاني)[1]

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) قدم هذا البحث أصلا في ملتقى مغاربي حول المخطوطات العلمية عقد بمدينة الجزائر خلال شهر نوفمبر **2005**. وقد نشر سنة **2007** ضمن: **أعمال الملتقى المغاربي الثالث حول المخطوطات**، منشورات جامعة الجزائر، **2007** (صص. **165-181**).

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

يندرج هذا الموضوع ضمن المحور الثاني (الطب والصيدلة) من محاور الندوة[1]، وهو يسعى إلى التعريف بمخطوط موريتاني بعنوان "**عمدة الطبيب**" لمؤلفه أوفى بن أبي بكر الشمشوي (1817-1880)، وذلك من خلال الخطة التالية:

- ✓ تقديم عام يتضمن التعريف بالمؤلف وبالمخطوط،
- ✓ المضمون العلمي للنص،
- ✓ خلاصات أولية.

أولا. التقديم

سنعطي في هذا التقديم نبذة عن حياة المؤلف ولمحة عن المخطوط موضوع البحث.

1 -المؤلف:

هو الطبيب المصطفى الملقب أوفى[2] بن أبي بكر بن عبد الله الشمشوي الألفغي المولود سنة 1232هـ/1817 بمنطقة إكيدي بالجنوب الغربي من موريتانيا الحالية. نشأ وترعرع في أسرة علمية عريقة حيث تعلم القرآن ومبادئ اللغة العربية على أمه وجدته وأبيه قبل أن يتجه إلى محاضر عديدة في المنطقة

---

(1) **الملتقى المغاربي حول المخطوطات العلمية** المنعقد بالجزائر العاصمة خلال شهر نوفمبر **2005**.

(2) اعتمدنا في معلوماتنا المتعلقة بالمؤلف على جملة من المراجع منها:

- ✓ أحمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، القاهرة، مكتبة الخانجي/القاهرة ومؤسسة منير/نواكشوط، الطبعة **4**، **1989**، ص.**537**.
- ✓ المختار ولد حامد، **حياة موريتانيا، الحياة الثقافية**، الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، تونس، **1990**، صص.**77-78**.
- ✓ ملف نشرته جريدة الشعب، العدد رقم، بتاريخ
- ✓ Paul DUBIÉ, **Awfa wul Ababakkar, *al 'umda*. Poème sur la médecine maure** (pp. **38-66**), Bulletin de l'Institut français d'Afrique noire, **1943**.

للاستزادة من المعارف المتداولة في عصره وفي محيطه.

ونذكر من أهم أساتذة أوفى بن أبي بكر العالمَ الحاج بن الكتاب الكناني الذي أخذ عنه الفقه، والعالمَ أبا بكر بن فتى الشقروي (ت. سنة 1324هـ/ 1906م) الذي أخذ عنه النحو وعلوم اللغة والعالم محمذن فال بن متالي التندغي (ت. سنة 1287هـ/1871م) الذي يعد من أبرز شيوخه (في علوم "الظاهر" و"الباطن") والذي أخذ عنه الطريقة الشاذلية.

اشتهر أوفى بن أبي بكر على وجه الخصوص بالطب الذي اعتبر مرجعا أساسيا فيه على امتداد القطر كله سواء على مستوى التنظير المعرفي أو الممارسة العملية.

ومن أهم مصادره في هذا العلم تذكرة داود الأنطاكي والقانون في الطب لابن سيناء والرحمة في الطب والحكمة للصنبري، فضلا عن المأثور النبوي في الطب وبعض ما أخذ عن الأطباء اليونان والهنود.

توفي أوفى سنة 1297هـ/1880 وخلف آثارا متعددة من أهمها في مجال الموضوع الذي نهتم به الآن:

المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

أ. قواعد التدبير وهو نظم يبلغ خمسة وتسعين بيتا تتناول فيه طرق تدبير الصحة مستعرضا القضايا المتعلقة بالوقاية من الأمراض حيث يقول في بداية هذا النظم:

فالأصل في الطب على المشهور بالوحي أو تجربة الأمور
مفاده برء سقام طاري وحفظ صحة بأمر الباري

ب. رسالة نثرية عنوانها "**علاجه**" (أي علاج المرض) ذكر فيها الأمراض باللهجة الحسانية ومصادر أدويتها المحلية. ويوحي عنوان هذه الرسالة بأنها ربما تكون جزءا من مؤلف شامل عن المرض أفرد المصنفُ –من بين مواضيع أخرى– جزءً منه للعلاج تحت عنوان "علاجه" أي علاج المرض.

ج. ورقات تحوي أجوبة على تساؤلات طبية من شيخه الحاج بن الكتاب. وتبرز هذه الورقات اهتمام أوفى بالطب منذ أن كان يافعا يرتاد

مجالس الدرس والعلم.

د. عمدة الطبيب، موضوع هذا البحث، وقد دون فيها أوفى أهم معارفه النظرية وتجاربه العلاجية ونتائج بحوثه على النباتات والأغذية إلخ.

2 -الوثيقة:

تتوفر عدة نسخ من هذا المخطوط بحوزتنا منها الآن نسختان أولاهما بخط ابن المؤلف الطبيب عبد الله بن أوفى (ت.سنة 1375هـ/1956) والثانية نسخة المعهد الموريتاني للبحث العلمي وهي مجهولة الناسخ وتتألف من 57 صفحة من الحجم المتوسط، وقد اعتبرناها نسخة ثانوية فاعتمدنا على المخطوطة الأولى التي تتألف من 60 صفحة من الحجم المتوسط وتضم ألفا ومائتين وأربعة وعشرين (1224) بيتا من الرجز موزعة إلى مقدمة وستة أبواب وخاتمة وذلك على النحو التالي:

- ✔ المقدمة والتمهيد: في مبادئ الطب،
- ✔ الباب الأول: في الطبيعة،
- ✔ الباب الثاني: في طبائع الأغذية والأدوية،
- ✔ الباب الثالث: في الأمور الضرورية للأبدان،
- ✔ الباب الرابع: في الأمراض وأسبابها وأعراضها،
- ✔ الباب الخامس: في الأمراض والعلاجات،
- ✔ الباب السادس: في الأمراض المعدية،
- ✔ الخاتمة: في واجبات الطبيب.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ثانيا. المضمون العلمي للنص

يتناول المؤلف في هذا المخطوط مجمل ما يهم الطبيب في تكوينه العلمي ونشاطه العملي تفصيلا أو في إشارات سريعة.

ويمكن أن نميز فيه مواضيع بارزة توخينا في تبويبها ترتيبا منطقيا لم يراع دائما تسلسل المواضيع في نص الوثيقة، إذ قد تتداخل العناصر أو يجري تقديم أو تأخير في ترتيبها المفروض. ومن أهم تلك المواضيع:

1 -قواعد الصحة العامة:

وتتضمن هذه القواعد تعريفات عامة واحتياطات مهمة تتعلق بالمحيط وعناصر الطبيعة -نافعها وضارها- والغذاء والرياضة، إلخ.

يقول أوفى في بداية الباب الثالث من عمدته:

منه الهواء خيره ما اعتدلا ومن نداوة وتكدير خلا
مصلحه الشمس أصحه الصَّبا ولتك عن فاسده محتجبا
ومنه الأكل خيره دون الشبع لجائع في صالح له وقع
واختلف الصلاح باختلاف أحوال الأشخاص بلا خلاف
فذو الرفاهية بالخفيف يُغْذى وذو الكد فبالمألوف
ومعجز الأسنان لا ينهضم فترك أكله لذاك أسلم
والشرب وقته إذا ذاب الغذا إلا إذا من الغذا خيف الأذى
وأفضل الماء خفيف بارد عن كدر نتن وملح شارد
وأفضل الحركة المعتدلة وبعد هضم فالرياضة اعقلة
تسخن الجسم وتنفي ما بقي من فضلة الغذا وفوقها اتقي
وتنتهي لنفس العظيم والابتداء عرق الجسوم
وأفضل السكون ما قبل الملل بكل هيئة بها الجسم اعتدل

وأفضل النوم ذو الاتصال في الليل والمقيل باعتدال
وأفضل الجماع للمحتاج بغير داع سابق الإيلاج
بهيئة استلقائها وينتهي بطيب نفس للدوام يشتهي
وما انتهى منه لبغض أو كسل أو رعدة وغثيان ذو علل[1]

2 -أعراض بعض الأمراض:

لقد خص المؤلف هنا بالذكر الأعراض العامة المرتبطة باختلال في بعض الوظائف أو نقص في أداء عضو بعينه، كما تعرض لبعض التجارب "المخبرية" التي تعين على تحديد مكمن الداء وبالتالي المساعدة في علاجه.

يقول أوفى في الباب الرابع من العمدة:

والنفث للرئة والصدر عرض له دلالة على جنس المرض
والبول والنبض كذا الأحلام تبدو بها للماهر الآلام
فالبول إن جعل في الزجاج إثر المنام نمّ بالمزاج
بول الصحيح لونه كالماء إلا لتغيير من الغذاء
وبول ذي داء يضر بالكبد فلون ما يضره فيه وجد
إن البراز عرض الأمعاء وما اختفى في كبد من داء[2]

3 -المعاينة والتشخيص:

وفي تناوله لطريقة جمع المعلومات المفضية إلى تحديد المرض سبيلا إلى علاجه يلحُّ المؤلف على عنصرين أساسيين هما:

أ. ما يدلي به المريض نفسه وكذلك حاضنوه من معلومات مختلفة من شأنها المساعدة على اكتشاف المرض وبالتالي على علاجه،

ب. ما يستنتج من "التجربة المخبرية" ومن المعاينه المباشرة والفحص.

---

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، مخطوط بحوزتنا، صص. 28-29.

(2) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، صص. 31-32.

يقول أوفى في خاتمة العمدة:

وينبغـــي لـــه ســـؤال ذي المـــرض وحاضـــنيه عـــن جميـــع مـــا عـــرض
وأوكـــد الأمـــر لـــه القـــارورهْ وهـــي لـــدى أصـــحابها مشـــهورهْ
يجعـــل فيهـــا البـــول كـــلا بأثـــر نـــوم وأولاه بليـــل ذي الســـهر
تـــنم بالصـــدق علـــى الأدواء لعـــالمي تغيـــرات المـــاء
ويعتنـــي بعلـــم حـــال النـــبض إذ التحقـــق لـــبعض يفضـــي
ويعتنـــي بمقتضـــى المـــزاج وحـــال مربـــي الشـــخص فـــي العـــلاج
ووقتـــه ووالديـــه والـــوطن وســـنه والعـــارض الـــذي بطـــن[1]

ويضيف في السياق نفسه:

والنـــبض محتـــاج لـــدى تركيـــب عللـــه لفطنـــة الطبيـــب
والحـــال منـــه مـــدرك بالبصـــر كصـــفرة اللـــون وســـوء المنظـــر
ومنـــه مـــا يســـمع كالعطـــاس والـــنفخ والســـعال والأنفـــاس
ومنـــه مـــا يـــذاق كالحموضـــهْ فـــي القـــيء والمـــرارة القبـــوضهْ
ومنـــه مـــا يشـــم كالتونـــهْ فـــي القـــرح والجـــوف مـــن العفونـــهْ[2]

ويقول أوفى في الباب الرابع من العمدة:

وأعلـــم بـــأن صـــفة العليـــل تعـــرف بـــالعرض وبالـــدليل
كالفعـــل والخـــارج والأحـــوال والألـــم الموصـــوف بـــالأقوال
وعلمهـــا علامـــة العرفـــان وجهلهـــا مـــن موجـــب الضـــمان
وآفـــة الفعـــل كنقصـــان البصـــر واســـم العمـــى بطلانـــه إذا ظهـــر[3]

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 60
(2) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 33.
(3) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 30.

ويضيف في الموضوع نفسه:

والحال يدرك بكل حس أما الذي تدركه باللمس
فظاهر الطبع على الأبدان والنبض بالقبض على الشريان
وكل داء ضر بالقلب ظهر في نبضه مصداق ذلك الضرر
والألم الموصوف إما أن يعم فاعرفه في زمانه إن لم يدم
واعرفه من سببه إن داما واستقص في سؤاله الكلاما[1]

ويقول أوفى في القواعد:

فالأصل في العلاج عرفان المرض فاستقص في السؤال عنه إن عرض[2]

4 -طرق العلاج:

وتتعدد هذه الطرق عند الطبيب التقليدي أوفى، وإن كانت محدودة بما يتوفر في محيطه البدوي الضنين. ومن "التقنيات" العلاجية التي تضمنتها العمدة يمكن أن نذكر:

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

أ -الجراحة:

يقول أوفى في الباب الخامس من العمدة:

وسبب الحصى غليظ المطعم كالحب نيا والفطير فاعلم
أي سدة تعظم في القضيب تمنع بول المرء بالتعذيب
علاجها استخراج لحم ذي ضرر بالشق من قضيبه وذا غرر[3]

ونشير هنا إلى أن جراح البحرية الفرنسية بيبي (Pipy) الذي زار المنطقة في القرن التاسع عشر يشيد بخبرة البيضان النسبية في مجال الطب -التقليدي طبعا- وتمكنهم من الاستفادة من نباتاتهم الطبيعية في معالجة الأمراض، إذ

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، صص.32-33.
(2) أوفى بن أبي بكر، قواعد التدبير، مخطوط بحوزتنا، ص. 1
(3) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 45

يقول: "إن البيضان بصفتهم أطباء لديهم معارف متسعة نوعا ما، فقد عرفوا كيف يستخرجون من أعداد كبيرة من النباتات أدوية يستخدمونها حسب الحالات المرضية"(1).

ويمضي هذا الطبيب الجراح متحدثا عن الجراحة عند البيضان فيقول: "وبصفتهم [البيضان] جراحين فإنهم جسورون وموفقون في غالب الأحيان. فقد رأيت في مجموعة من الأشخاص آثارا عميقة لشقوق استهدفت علاج انسداد أو آلام.(2)

ويشيد جراح البحرية الفرنسية بكفاءة الأطباء البيضان قائلا: "رأيت مؤخرا في الترارزه واحدا من أعظم زواياهم، وهو مشهور بعلاجاته المدهشة[(3)]، فقد نجح في معالجة خراج كبدي معالجة متقنة. ومع أن الخراج كان بارزا تحت الأضلاع إلا أن عملية البضع وعلاج المريض تتطلب الخبرة"(4).

ويختتم هذا الجراح العسكري تقريره مؤكدا أن من المفيد التعرف على مختلف وسائل العلاجات البيضانية.(5)

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ب- الحجامة:

ويقول أوفى في الباب الثاني من العمدة:

والحجم غالبا بموضع الألم أو قربه لدى امتناع كالورم
والحجم والفصد إذا هاج الدم هما الشفا والأول المقدم

---

(1) PIPY, Chirurgien de la Marine au Sénégal, **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures et yolloffs qui habitent entre l'escale des Trarzas et Dagana**, Revue Coloniale, Paris, octobre **1851**, pp. **374-387**, p.**378**.

(2) Idem

(3) لا نستبعد أن يكون هذا الطبيب التقليدي الزاوي المقيم بمنطقة الترارزة، "المشهور بعلاجاته المدهشة" هو أوفى نفسه.

(4) PIPY, Chirurgien de la Marine au Sénégal, **Notes sur l'état sanitaire et moral**, p.**378**.

(5) Idem

فـــالحجم إن قـــل أقـــل ضـــررا والفصـــد أمثـــل وأقـــوى غـــررا[1]

ج -الكي والبتر:

يقول أوفى في الباب الخامس:

ومـــن قبيـــل الكـــي كلمـــا وضـــع مـــن خـــارج محلـــلا للمجتمـــع

وثقـــب ذو الـــدودة يكـــوى والـــذي لـــم يـــك مثقوبـــا بخلعـــه خـــذي[2]

5 -مصادر الدواء:

وهي تتركز لديه على ما يتوفر في البيئة المحيطة من نباتات وحيوانات ومعادن فضلا عما يصطنعه الطبيب من "خلطات كيميائية" توفر خصائص علاجية لم تكن موجودة بمركباتها الأصلية. يقول في الباب الثاني من العمدة:

وفـــي النبـــات كلـــه الـــدواء واســـتثن منـــه الخمـــر فهـــو داء

كـــذاك يوجـــد بـــبعض المعـــدن وهكـــذا فـــي بعـــض حـــي البـــدن

وكـــل مخلـــوطين تبـــدو منهمـــا كيفيـــة لـــم تلـــفَ فـــي كليهمـــا

فـــالتزمنْ إفـــراد مـــا لـــم تعلـــم كيفيـــة المجمـــوع منـــه تســـلم[3]

6 -شروط استخدام الأدوية:

وهو يركز في هذه الشروط أولا على المعرفة العلمية التي تمكن من تحقيق التوازن "الدقيق" بين خصائص الدواء وحاجيات المتعالِج ومزاجه...

يقول الطبيب أوفى:

فصـــل وللـــدواء وصـــف يعهـــد ونفعـــه بدونـــه لا يوجـــد

وهـــو الـــذي يضـــيف أهـــل المعرفـــة بـــه لـــه وصـــف الصـــلاح فاعرفـــة

وجـــل الأدويـــة حيـــث اســـتعملا مـــن غيـــر علـــة أثـــار العلـــلا

---

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 24.

(2) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص.

(3) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 28.

وراع في تكريرك الدواءَ خطره وشخصه والداءَ
وما من الدواء فيه ضرر ففعله بدون وزن خطر
وقدر ما ينفع من غير ضرر من كل الأدوية عنهم اشتهر
فاعرف لذاك درج المزاج لكل ما يقصد للعلاج[1]

7 -العوارض النفسية وأثرها على الصحة:

ويبرز تناولُ الطبيبُ أوفى لهذه العوارض اعتناءً بالبعد النفسي للمريض حين يقول:

وأفضل العوارض المعتدل إذ القوي تثور منه العلل
كفرح وشهوة وطرب وفزع همّ وغم غضب
والقلب فيه قوة للنبض وقوة بالانفعال تفضي
لموجب الحزن وموجب الفرح وما لحب أو لضده صلح[2]

ويقول أيضًا:

ويعتني بمقتضى المزاج وحال مربي الشخص في العلاج
ووقته ووالديه والوطن وسنه والعارض الذي بطن[3]

ويضيف في مكان آخر:

فاعرف لذاك درج المزاج لكل ما يقصد للعلاج[4]

8 -الحجر الصحي:

وقد تناول أوفى في تنبيهه إلى ضرورة الحجر الصحي حتى لا يفشو المرض وتعم العلل مفهومَ الوباء ومنشأَ الأوبئة ووجوبَ اتقاء الأماكن التي

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، صص. 27-28.
(2) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 11.
(3) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 60
(4) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، صص. 27-28.

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

يحل فيها المرض المعدي. يقول في هذا المجال:

فصل والأوبئة ما من المرض في زمن بغير ضابط عرض
يعم بالعدوى أو النزول من كان في المحل ذا حلول
والأصل في بداية الأوبئةِ في الناس سكنى فاسد الأهويةِ
وكلما يعدي يهيج بعضهُ بعضا وتتقى لزوما أرضهُ[1]

ونشير هنا على وجه الخصوص إلى إدراك الطبيب التقليدي أوفى للعلاقة بين الأوبة وتلوث المحيط. يقول:

والأصل في بداية الأوبئةِ في الناس سكنى فاسد الأهويةِ[2]

9 -قواعد ومزايا الرياضة:

ويحدد أوفى مفهومه للرياضة باعتبارها حركة معتدلة غير مرهقة للجسم، إذ بدون ذلك لا تحقق المزايا الصحية المنشودة منها. يقول:

وأفضل الحركة المعتدله وبعد هضم فالرياضة اعقلهْ
تسخّن الجسم وتنفي ما بقِي من فضلة الغذا وفوقها اتقي
وتنتهي لنفس العظيم والابتداء عرق الجسوم[3]

10 -الإشراف الطبي:

يوصي الطبيب أوفى المشرفَ على المريض بالتركيز على التغذية باعتبار "المعدة بيت الداء" الذي تؤدي حمايته إلى الاستغناء عن الدواء، بينما لا يتصور علاجا ناجعا بدون الاعتماد على الغذاء. يقول:

والتزم الحمية إذ قد تنفع دون الدوا وعكس ذاك يمنع

... ...

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، صص. 58-59.
(2) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، صص. 58-59.
(3) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 29.

مفـــاده بـــرء ســـقام طـــاري وحفـــظ صـــحة بـــأمر البـــاري

... ...

وهيئـــة تغييرهـــا الفعـــل عـــرض فـــي بـــدن لا فـــي الطبيعـــة المـــرض

وضـــده الصـــحة وهـــي مـــا ســـلم لـــذاتها الفعـــل وكـــل قـــد علـــم[1]

ويضيف:

واحـــم المـــريض إنّ تـــرد دواءَه ممـــا يطيـــل أو يزيـــد داءَه[2]

11 -صفات الطبيب وأخلاقيات المهنة:

وفي الحيز الذي يخصصه أوفى للبعد الأخلاقي والإنساني للمهنة الطبية يلح على الميزات التي يجب أن تتوفر في الطبيب المعالج وهي:

- ✔ المعرفة العلمية والخبرة المهنية،
- ✔ العدالة،
- ✔ الوازع الديني،
- ✔ النصح،
- ✔ الذكاء،
- ✔ توخي تخفيف الألم،
- ✔ الابتعاد عن الجشع والكسب المادي.

يقول أوفى في خاتمة العمدة متحدثا عن أخلاقيات الطبيب:

يجـــب أن يوصـــف بالعدالـــة والصـــبر والنصـــح بكـــل حالـــة

وبالـــذكاء والتثبـــت وأن يعتـــاد تخفيـــف العـــذاب والمـــؤن

ويتنـــزه عـــن العمالـــة مِـــن فاضـــل أو مَـــن تضـــر مالـــة

ويتـــقي الفـــساد فـــي الـــدواء إذ للصـــلاح حســـن الانتهـــاء

(1) أوفى بن أبي بكر، قواعد التدبير، صص. 1-2.

(2) أوفى بن أبي بكر، قواعد التدبير، ص. 2.

ANICH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وأن يكـــــون مـــــاهرا بالطـــــب ونـــــاظرا فـــــي أمـــــره للـــــرّبّ
يحمـــي المـــريض دائمـــا مـــن كـــل مـــا يطيـــــل داءً أو يزيـــــد ألمـــــا
ويتقـــي الترويـــع فـــي العـــلاج مـــعْ حصـــول جهـــل مـــا ومـــعْ نفـــي الطمـــعْ[1]

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 60.

ثالثا. ملاحظات حول المنهج والرؤية

يسمح هذا النص باستخلاص جملة من الملاحظات العامة حول منهج ورؤية الطبيب العربي التقليدي (وبالذات في منطقة الصحراء) نجملها في ما يلي:

1. بُني النص على تبويب واضح يمفصل الوثيقة حسب مواضيعها، بغض النظر -طبعا- عن صرامة الالتزام بالحدود الفاصلة بين المواضيع المعلنة، فوضع الخطة في حد ذاته يعكس وعيا منهجيا لا غبار عليه. يقول أوفى:

وأول الأبـــواب فـــي الطبيعـــة ... ومـــا بهـــا مـــن حكمـــة بديعـــة
وثـــاني الأبـــواب طبيعـــة الغـــذا ... وطبـــع الأدويـــة فيـــه تلـــو ذا
وثالـــث الأبـــواب فـــي الـــضروري ... لكـــل الأبـــدان مـــن الأمـــور
ورابـــع الأبـــواب فـــي الأمـــراض ... مجملـــة الأسبـــاب والأعـــراض
وخـــامس الأبـــواب ذكـــر مـــا انفـــرد ... مرتـــب الأعضـــا بـــه بعـــض الجســـد
وســـادس الأبـــواب فـــي المنتقـــل ... ومـــا يعـــم فـــي جميـــع العلـــل
خاتمـــة يـــذكر فيهـــا مـــا يجـــب ... علـــى المعـــالج وبعـــض مـــا نـــدب[1]

ويمكن تقسيم النص إلى المحاور التالية:

الأبيات	المحاور	المواضيع
من 1 إلى 37	التمهيد والمقدمة	مبادئ الطب
من 38 إلى 173	الباب الأول	الطبيعة
من 174 إلى 458	الباب الثاني	طبائع الأغذية والأدوية
من 459 إلى 491	الباب الثالث	الأمور الضرورية للأبدان

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب،

من 492 إلى 610	الباب الرابع	الأمراض وأسبابها وأعراضها
من 611 إلى 907	الباب الخامس	الأمراض والعلاجات
من 908 إلى 1206	الباب السادس	الأمراض المعدية
من 1207 إلى 1224	الخاتمة	واجبات الطبيب

2. اتبع المؤلف في نصه أسلوب النظم الذي طغى في لحظة معينة من التاريخ العربي -ولأغراض تعليمية ليس هذا مجال البسط فيها- على المؤلّف العلمي وبالذات في الفضاء الصحراوي حيث يقل الورق ويقوى الاعتماد على الذاكرة في حفظ المادة العلمية. وبالطبع فإن حفظ النص المنظوم أسهل من حفظ النص النثري.

3. يحيل النص إلى مراجعه بصورة أمينة حيث يصرح بالنقل عن مصدر أساسي ومصادر أخرى يتم الإعلان عنها في مواقعها من النص:

وغالبا للصنبري[1] اعتمادي مع ضم رأي كل ذي اجتهاد[2]

ويقول ضمن حديثه عن فوائد الزيتون:

وكثرة الزيتون في القرآن دلت له على عظيم الشأن
مبارك لجل الأغراض حوى فاكهة فيها إدامٌ ودوا[3]

ويقول بخصوص التين:

وفي الحديث قاطع الباسور ونافع للنقرس المشهور[4]

ويضيف بشأن الثوم:

والثوم من بقراط للمسموم فيه شفاء وهو كالسّموم

(1) مهدي بن علي بن ابراهيم الصنبري، الرحمة في الطب والحكمة،
(2) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 1.
(3) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 19
(4) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 18

ويقتـــل الـــدود يقـــوي المعـــدهْ محلـــلا رياحهـــا المنعقـــدهْ[1]

4. يصرح المؤلف بقصور النص عن مستوى التطلع وإشباع النهم العلمي نظرا للوضعية الخاصة لهذا النوع من التصنيف في بلده. يقول متحدثا عن العمدة:

وهـــي لفقـــد الفـــن فـــي بـــلادي قاصـــرة عـــن مبلـــغ المـــراد

لكنهـــا كبلغـــة الفقيـــر يرجـــو بهـــا الحيلـــة للتســـيير[2]

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الاقتصار على الضروري من المعرفة الطبية والابتعاد عن الإحاطة العلمية أمر مفهوم في ظل إكراهات البيئة الصحراوية القاسية والضنينة وطبيعة المجتمع البدوي المتنقل والمنعزل وندرة المصادر العلمية في كثير من الأحيان.

ومن هنا فإن انشغالات الطبيب التقليدي أوفى مهنية بحتة لا أثر فيها للترف العلمي غير الوارد بالنسبة إلى ظروف مجتمع الصحراء حيث شح الموارد ومحدودية الإمكانيات.

5. يوغل النص في التفاصيل أحيانا، وهو أمر أفقد الأبواب أحيانا توازنها، إذ نجد الباب الثاني يتألف من 285 بيتا والخامس من 297 بيتا بينما لا يتجاوز الباب الثالث 33 بيتا.

6. يستشف من النص أن الطبيب التقليدي قد تفطن إلى العلاقة بين النظرية والتطبيق في العملية الطبية، وإن لم يصل ذلك التفطن إلى وعي علمي يحدد شروط إغناء المعرفة النظرية بالتجارب والمعاينات الميدانية. يقول:

اعلـــم بـــأن الطـــب علـــم وعمـــل والعلـــم فـــي ثلاثـــة قـــد اكتمـــل[3]

7. تستند الممارسة الطبية العربية -كما يعكس ذلك نص عمدة الطبيب

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 19.

(2) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، صص. 1-2.

(3) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 2.

أوفى- إلى ثلاثة روافد هي:

✓ المعرفة العلمية كما صاغتها النظرية العلمية القديمة وأغنتها التجارب الخاصة،

✓ التجربة المعيشة وما توفره طبيعة البيئة: العناصر المعدنية، المستخلصات النباتية، المنتوجات الحيوانية، إلخ.،

✓ شخصية المعالج وما يتوفر عليه من مؤهلات علمية وخصائص مهنية.

8.تؤطر نظرةَ الطبيب التقليدي رؤيةٌ إنسانية تعتني بإزالة الداء وتخفيف معاناة الإنسان بغض النظر عن دينه وموطنه وعرقه، ولهذا لم يتحدث الطبيب أوفى عن أي وضعية تمنع المريض من الاستفادة من الخدمة الطبية، وإنما تناول العلاقة بين المعالِج والمريض من زاوية إنسانية تراعي ظروف المتعالج الصحية والاقتصادية استنادا إلى أرضية النصح والرفق. وتتجسد هذه الرؤية بشكل أوضح في تناوله لأخلاقيات المهنة الطبية وصفات الطبيب.

وننبه هنا إلى أن هذه الرؤية الإنسانية لا تتنافى أبدا مع ما يلاحظ في نصوص الطب التقليدي العربي (ونص العمدة تحديدا) وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بـ"أسلمة الطب" التي تجسدت في مواقع عديدة من عمدة أوفى كتناوله مصدر الشفاء حين يقول:

الحمد لله الذي منّ بما بإذنه يزيل عنّا الألما

ثم الصلاة والسلام سرمدا على محمد مزيل كل دا[1]

أو عندما يقول:

مفاده برء سقام طاري وحفظ صحة بأمر الباري[2]

أو مثل تأكيده على ضرورة تحلّي الطبيب بالتقوى، إذ يقول:

وأن يكون ماهرا بالطب وناظرا في أمره للرب[3]

---

(1) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص.1.

(2) أوفى بن أبي بكر، قواعد التدبير، ص. 1.

(3) أوفى بن أبي بكر، عمدة الطبيب، ص. 60.

هذا فضلا عن اعتماده الصريح على المأثور النبوي كمصدر نظري للطب وتأكيده على أهمية الطبيعة إلى جانب الشريعة في أمر المعالجة.

يقول:

وامتثـــل السنـــة فـــي مـــا وردا عـــن النبـــي مفصـــلا ومفـــردا

وحكّمـــنْ فـــي جســـمك الطبيعـــهْ مـــا لـــم يخـــالف حكمهـــا الشـــريعهْ[1]

9. يتمتع الطبيب التقليدي -رغم خلفيته الإسلامية البارزة- برؤية واقعية بمعنى أنه يبتعد بمهنته عن عالم ما وراء الطبيعة. فمهنة الطب بالنسبة إلى أوفى بن أبي بكر لا تخوض في قضايا المس والسحر والشعوذة...

يقول أوفى:

ومـــا مـــن الشـــيطان لـــيس يســـأل عنـــه الطبيـــب إذ بـــذاك يجهـــل

والـــداء إن كـــان مـــن الطبيعـــهْ فطبنـــا لبرئـــه ذريعـــهْ[2]

وختاما نقول إن هذا المخطوط -بما احتواه من مادة علمية، وبما أبرزه من طريقة في التأليف والنظر- قد عكس أصالة علمية في اختيار الموضوع ومستوى الاستفادة من مصادر المعرفة المتاحة. وهو إلى ذلك يمثل شهادة على واقع الحركة العلمية في بلد قصي من ديار الإسلام دأب الدارسون -إلى وقت قريب- على رسم منعرجات الثقافة العربية بدونه.

كما أن هذا النص يشكل تنويعا على المشهد العلمي والثقافي في موريتانيا، إذ أبرز اهتمامَ العالِم الشنقيطي بمجال تأليف غير الفقهِ والأدبِ.

(1) أوفى بن أبي بكر، **قواعد التدبير**، ص. 2.

(2) أوفى بن أبي بكر، **عمدة الطبيب**، ص. 3.

الصفحة الأولى من مخطوط العمدة

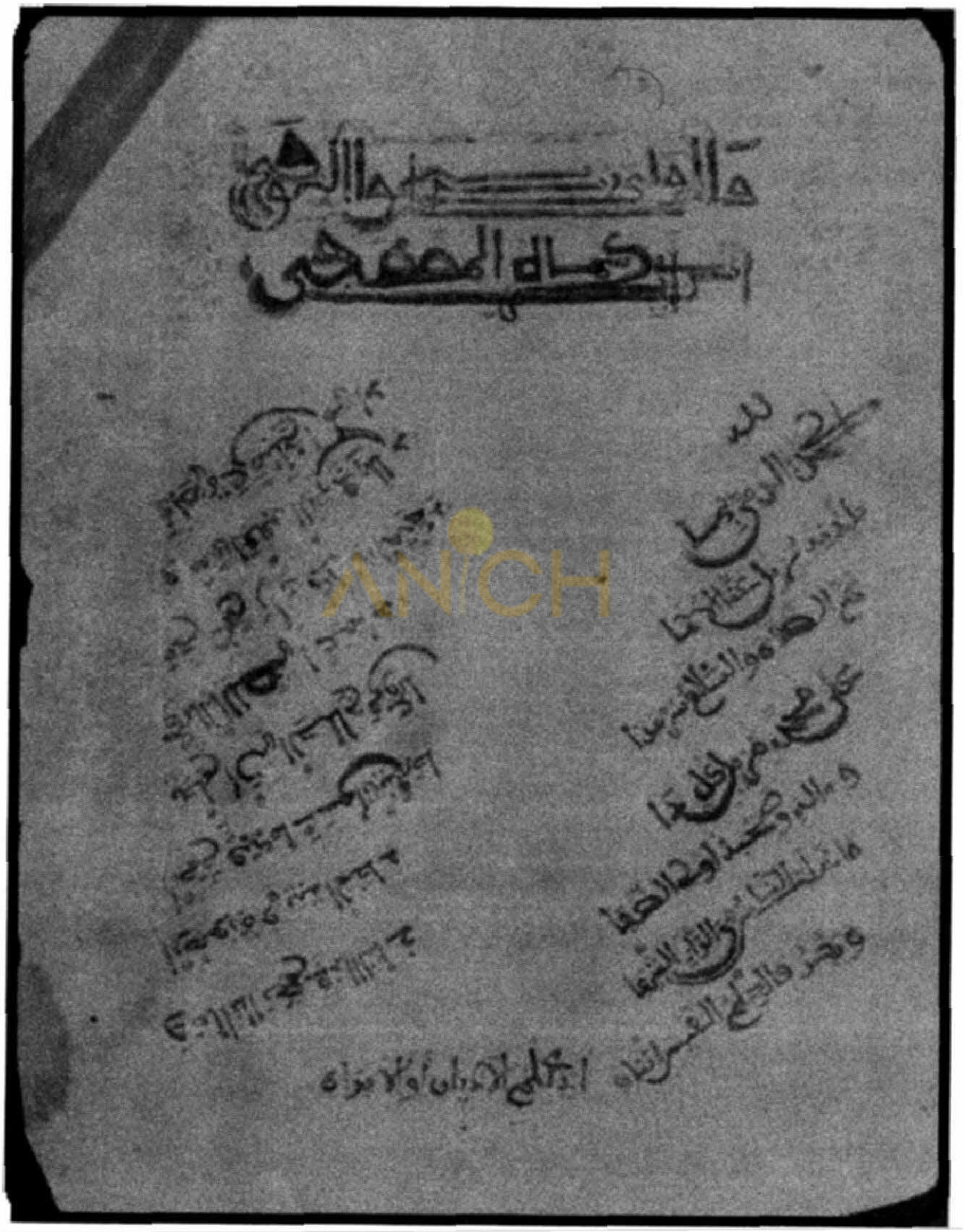

الصفحة الأخيرة من مخطوط العمدة

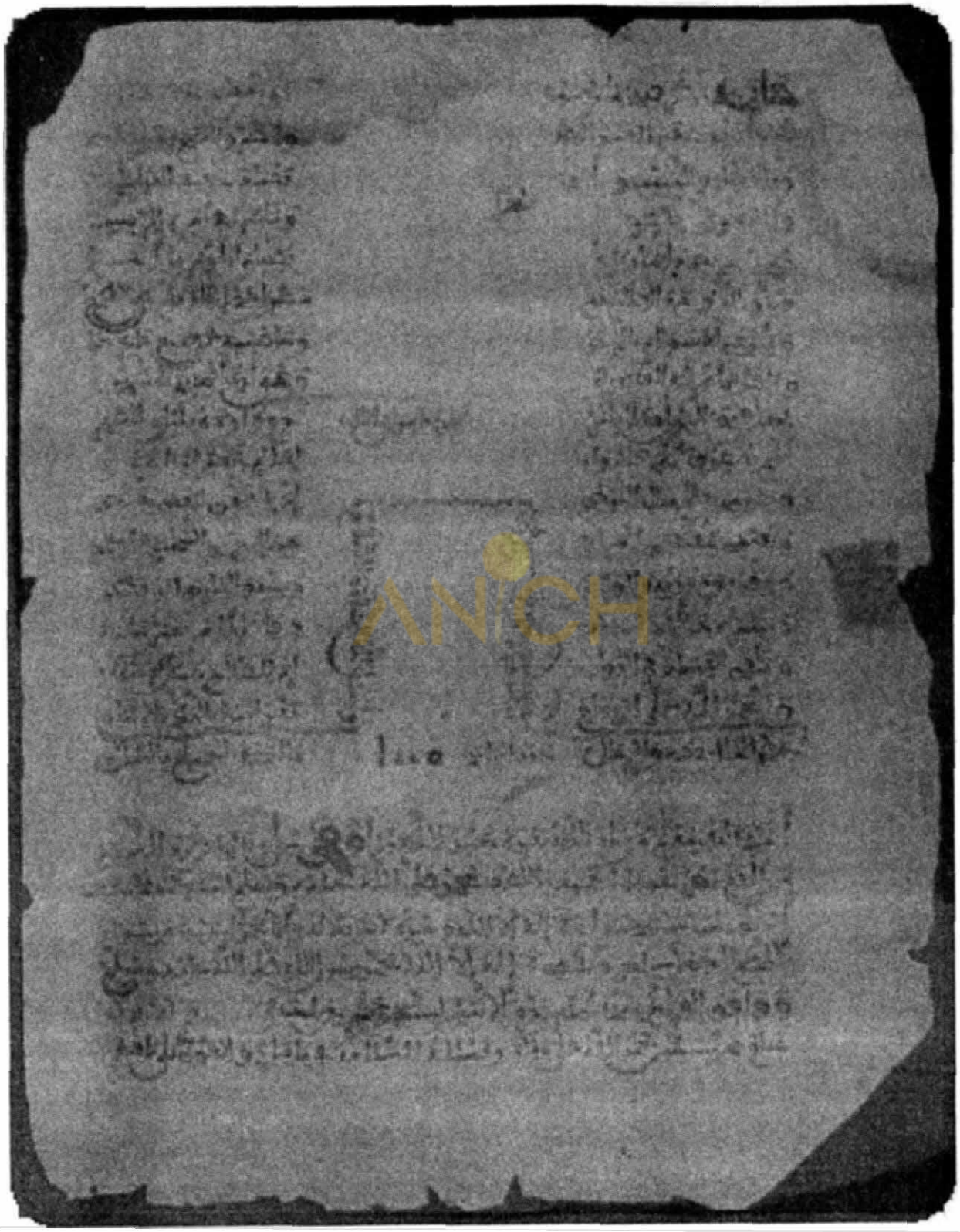

النص السادس:

رحلة الحج جسر للتواصل الخليجي المغاربي

(الرحلة الشنقيطية نموذجا)[1]

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) قدم هذا البحث مشاركة في المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول الذي نظم بمدينة تونس (يونيو 2003) بالتعاون بين مؤسسة الدارة بجامعة الملك عبد العزيز، (جدة/ السعودية) ومؤسسة التميمي للبحث العلمي (زغوان/تونس). وقد نشرته مؤسسة الدارة بجامعة الملك عبد العزيز ضمن: **أعمال المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول**، جدة/العربية السعودية، (صص. **103-132**)، **2004**. ولم ندخل عليه إلا تعديلات بسيطة.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

تمهيد

لا يسعى هذا البحث إلى أكثر من تقديم ملاحظات أولية حول رحلة الحج الشنقيطية ومنزلتها ضمن التواصل بين مغرب البلاد العربية ومشرقها وبالذات بين بلاد شنقيط ومنطقة الخليج العربي.

ويستدعي الإلمام بهذا الموضوع أن نقسم العرض إلى محورين اثنين أولهما مدخل عام يتضمن تحديدات إجرائية نحاول فيها التأطير للبحث زمانا ومكانا وموضوعا.

أما ثانيهما فنعرض فيه لمظاهر من التواصل الخليجي الشنقيطي مركزين على البعد المعرفي، متناولين بنوع من الإيجاز الأبعاد الاجتماعية/والسياسية على أمل أن تتاح لنا في مقبل الأيام مناسبة لتناول الأبعاد الاقتصادية من هذا التواصل.

أولا. تحديدات إجرائية

يرتبط أول هذه التحديدات بالفترة الزمنية للموضوع التي ارتأينا أن تمتد من النصف الثاني من القرن 18 لتشمل القرنين 19 و20، وهي فترة قد تبدو طويلة نسبيا، غير أنها بامتدادها ذاك تسمح -في اعتقادنا- برصد التطور الحاصل في عملية التواصل بين الجزيرة العربية والطرف الجنوبي الغربي من الصحراء الكبرى الذي حمل في فترة معينة اسم بلاد شنقيط.

ذلك أن القرن 18 يعتبر قرن النهضة الثقافية الشنقيطية التي ستعرف أوج ازدهارها خلال القرن التاسع عشر. ولعل من التغيرات التي حملتها هذه الفترة تلك المرتبطة بنوعية الحجيج وانتظام رحلة الحج. فإذا كان الشناقطة الراحلون إلى الحجاز للحج قبل القرن 18 هم طلبة علم متلقين بالدرجة الأولى، فإنهم ابتداء من منتصف ذلك القرن أخذوا -إلى جانب تلقيهم عن مشايخ الحجاز- يقدمون زادا معرفيا أخذ يسترعي الانتباه هناك، مما يعني أن التواصل -ابتداء من هذه المرحلة- بدأ يتجسد في شكله الطبيعي أخذا وعطاء.

ولعل من المفارقات أن هذه الفترة التي ازدهرت فيها الثقافة في البوادي الشنقيطية[1] شهدت ركودا -إذا لم نقل تراجعا- في الحواضر الإسلامية الكبرى بالمشرق والمغرب على السواء. وقد يكون للتغير الطارئ في طرق التجارة الدولية وانتقال مركز الثقل العالمي من الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي دور فيما آلت إليه الأوضاع بهذه الحواضر المشرقية والمغاربية على الصعيدين الاقتصادي والثقافي، إذ "بدأ هذا المسار عندما استطاع البرتغاليون تحويل جزء من تجارة التوابل ومواد أخرى ثمينة نحو المحيط الأطلسي ولشبونة، [...]. وابتداء من القرن السابع عشر أصبحت الغلبة للأساطيل المسيحية التي ظلت تطارد البواخر الإسلامية مانعة بذلك دول إفريقيا الشمالية والمشرق من الإسهام في انتعاش التجارة المتوسطية، ومن تأكيد حضورها في الحياة الدولية".[2]

أما التحديد الثاني فيتعلق بصفة "الشنقيطية" التي وصفنا بها الرحلة في عنوان هذه المداخلة، وهي صفة مشتقة من تسمية شنقيط المدينة الواقعة في الجزء الشمالي من البلاد الموريتانية الحالية، والتي أطلق اسمها في مرحلة معينة على هذه البلاد من باب تسمية الشيء باسم بعضه. يقول صاحب

---

(1) عرفت البوادي الشنقيطية تعاطي الثقافة العالمة درسا وتأليفا فتشكلت بذلك -ولأول مرة في التاريخ على ما نعلم- المجموعة البدوية الوحيدة التي تملك تقاليد ثقافية مكتوبة بينما تعيش البوادي الأخرى عالة على أهل المدن، وإذا كانت البادية في عرف الدارسين -منذ ابن خلدون وإلى اليوم- تعتبر بيئة غير صالحة للإنتاج الفكري ناهيك عن الازدهار العلمي والفني، فإن واقع بوادي موريتانيا منذ القرن السابع عشر وواقع الحواضر الإسلامية في الفترة نفسها يبين أن البادية ليست دائما رديفة الجهل والأمية كما أن المدينة لا تساوي بالضرورة الازدهار المعرفي. يقول العلامة المختار ولد بونه الشنقيطي (ت. سنة **1218هـ/1804**):

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بها نبين دين الله تبيانا

(2) آلبير عياش، **المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط.**1**، **1985**، ص. **49**.

الوسيط: "وشنقيط في الأصل: تطلق على مدينة من مدن آدرار، واقعة فوق جبل، في جهة غرب الصحراء الكبرى، ثم سمي بها القطر كله"[1]. وهكذا حملت البلاد، ومنذ ثلاثة قرون، اسم هذه المدينة كما سمي سكانها الشناقطة.

وربما يكون لانطلاق ركب الحجيج الشنقيطي من هذه المدينة متجها إلى الديار المقدسة، صلة بهذه التسمية التي يعتقد أنها ظهرت أول الأمر في المشرق، إذ يقول سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت. سنة 1233هـ/1818): "وكان الركب يمشي من شنجيط[2] إلى مكة كل عام، ويحج معهم من أراد الحج من سائر الآفاق، حتى أن أهل هذه البلاد أعني من الساقية إلى السودان إلى أروان يعرفون عند أهل المشرق إلى الآن بالشناجطة"[3].

وهكذا تبدو تسمية القطر نفسها -وهي تسمية مشرقية كما يصرح نص ابن الحاج إبراهيم السالف الذكر- مظهرا للتواصل الشنقيطي المشرقي (موضوع هذه المداخلة).

وعلى ما يبدو فإن أول استخدام مدون لهذا المصطلح عثر عليه حتى الآن يعود إلى نهاية القرن الحادي عشر أو بداية القرن الثاني عشر الهجريين.[4]

ANCH
المكتبة الرقمية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) أحمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مكتبة الخانجي/القاهرة ومؤسسة منير/نواكبشوط، الطبعة **4**، **1989**.

(2) يلفظ عامة أهل البلد هذه التسمية شنكيط بكاف فارسية. ولغياب هذه الكاف من الأبجدية العربية كتبت التسمية أول ما كتبت بالجيم (شنجيط) ثم أبدلت الجيم قافا (شنقيط). ولعل هذا الأمر راجع إلى التحول من الطريقة المصرية إلى الطريقة الحجازية في رسم الكاف الفارسية. راجع: أحمد جمال ولد الحسن، **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري. مساهمة في وصف الأساليب**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الطبعة الأولى، **1995**، ص. **12**، الإحالة رقم **3**.

(3) سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، **صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمدغل**، تحقيق التجاني ولد عبد الحميد، منشورات وحدة المنارة للدراسات والبحوث والتحقيق، جامعة نواكشوط، **2016**، ص. **113**.

(4) ددود ولد عبد الله، **الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17-18)**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ (دكتوراه السلك الثالث)،

ويعتقد أن لشيوع هذه التسمية علاقة بالأدوار العلمية والثقافية والدينية والتجارية التي اضطلعت بها هذه المدينة فترة من الزمن مما بوأها مكانة متميزة في تاريخ البلاد الثقافي والديني على وجه الخصوص.(1)

ويتعلق التحديد الثالث بالرحلة نفسها، فهي من حيث الاشتقاق اللغوي مرتبطة بالانتقال والقصد (وبالتالي التواصل).

يعرف صاحب لسان العرب الرحلة قائلا: "الرِّحلة: الارتحال". و"الترحل والارتحال: الانتقال وهو الرحلة والرُّحلة". و"الرُّحلة بالضم، الوجه الذي تأخذه وتريده تقول أنتم رُحلتي أي الذين أرتحل إليهم."(2)

ولا يبتعد صاحب القاموس المحيط عن التعاريف نفسها، إذ يورد أن "الرِّحلة بالكسر الارتحال للمسير". "والرُّحلة بالضم: الوجه المقصود: مكة رُحلتي."(3)

وينحو المعجم الوسيط المنحى نفسه معتبرا: "الرِّحلة: الارتحال". و"الرُّحلة: ما يرتحل إليه، يقال: الكعبة رحلة المسلمين"، و"الرحَّالة: الكثير الرحلة".(4)

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

أما الرحلة اصطلاحا فتتداخل وتتشعب دلالاتها:

✓ فهي الانتقال من بلاد إلى أخرى لدواعٍ تختلف باختلاف الإنسان

جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، **1993**، ص.**23**، الإحالة رقم **2**.

(1) محمد الأمين الناتي، **الحياة العقلية في مدينة شنقيط خلال قرون ثلاثة قبل حلول الفرنسيين (1630-1930)**، بحث لنيل ديبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، الرباط، **1997**.

(2) جمال الدين محمد أبو الفضل بن منظور، **لسان العرب**، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرغشلي، بيروت، دار لسان العرب، **1970** (مادة رحل).

(3) مجد الدين بن محمد الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، **1983**، (مادة رحل).

(4) إبراهيم مصطفى (وآخرون)، **المعجم الوسيط**، المكتبة العلمية، طهران، د.ت. (مادة رحل).

والمكان والزمان.

✓ وهي "كتابة يصف فيها الرحالة ما رأى"[1].

✓ وهي نمط أدبي[2] يتأسس على علاقة زمكانية ويعتمد تقديم المشاهدات وذكر الخواطر أو بعبارة أخرى "صياغة أدبية يعبر الأديب من خلالها عما أحس به وهو يجوب الآفاق مكتشفا ومتعلما مزاوجا بين الشعر والنثر".[3]

وبما أن معظم الحجاج الشناقطة أثناء الفترة المدروسة لم يدونوا رحلاتهم في كتابات "يصف فيها الرحالة ما رأى" تماما، فإننا سنعتبر مجرد فعل "الانتقال من بلاد إلى أخرى" (بقصد) تأدية فريضة الحج مندرجا في نطاق الرحلة التي ندرسها سواء خلف الحاج أثرا مكتوبا (رحلة) أم لا، باعتبار أن رحلة الحج -وإن لم تكتب في شكل "صياغة أدبية"- قد تسجل وقائعها الأكثر أهمية في شكل "تقديم للمشاهدات وذكر للخواطر" يمكن المؤرخ من استثمار المادة التاريخية التي تعكسها تلك المشاهدات والخواطر (تماما كما هو الشأن بالنسبة للشكل "الأدبي" للرحلة).

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وليس غريبا أن تشكل الرحلة جزءا أساسيا من مكونات ثقافة هذا القطر الذي ظل جل سكانه إلى عهد قريب مرتحلين (بمعنى ما) داخل مجالهم الصحراوي. فمن خلال الرحلة استمر ربط سكان هذا القطر بجذورهم العربية

(1) المرجع نفسه والمادة نفسها.

(2) للاستزادة من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى:

✓ حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، **1989**،

✓ حسني محمود حسين، **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، **1983**،

✓ محمذ بن أحمد بن المحبوبي، **أدب الرحلة في بلاد شنقيط خلال القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين (الثامن والتاسع عشر الميلاديين)**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، الرباط، **1995**.

(3) الحسن الشاهدي، **أدب الرحلة في المغرب**، دار عكاظ، **1990**، ج.**1**، ص.**41**.

والإسلامية، وعبرها توفرت لهم المتون والأسانيد في ركن قصي من الصحراء "بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك...".[1]

ورغم نـؤي هـذا "المنكـب البرزخـي"[2] مـن دار الإسـلام عـن الـبلاد المقدسـة، ومخـاطر الطـرق وصـعوبة المواصـلات، فـإن الشـناقطة ظلـوا دومـا يحنون إلى تلك الديار ويتوقون الذهاب إليها والتمتع بمزاراتها، بل ويسافرون فعـلا لـذلك الغـرض مـع أن فقهـاء موريتـانيين مرمـوقين[3] جـاروا نظـراءهم المغاربة والأندلسيين[4] في الإفتاء بسقوط الحج بل ربما بتحريمه نظرا لانعدام الأمـن. يقـول العلامـة محـنض بابـه بـن اعبيـد (ت. سـنة 1271هـ/1860): "والأظهر حرمته على أهل المغرب لما فيه من التغرير بالنفس والمال ووجوب حفظهما"[5].

وكان لتوق الموريتانيين للحج وحنينهم إلى الديار المقدسة دواعٍ متعددةٌ لعل من أكثرها إلحاحا:

- ✓ الرغبة في تأدية فريضة الحج،
- ✓ التماس الأسانيد،

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، **1906**، ص. **216**.

(2) أطلقت هذه التسمية دلالة على توسط هذه البلاد بين المجتمعات ذات التنظيم المركزي شـمال وجنـوب الصـحراء، راجـع: الشـيخ محمـد المـامي بـن البخـاري، **كتـاب البادية**، منشورات زاوية الشيخ محمد المامي، نواذيبو، موريتانيا، **2006**.

(3) مثل محنض بابه بن اعبيد والشيخ محمد المامي.

(4) نذكر منهم مثالا لا حصرا ابن رشد والإمام الطرطوسي. راجع بهذا الخصوص: أحمد بن يحيى الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية - ودار الغرب الإسلامي، **13** مجلدا، **1401–1981**، ج.**1**، صص.**433** وما بعدها.

(5) محنض بابه بن اعبيد، نقلا عن يحيى ولد البراء، **المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام غرب وجنوب غرب الصحراء**، **12** مجلدا، الناشر الشريف مولاي الحسن ولد المختار ولد الحسن، نواكشوط، **2010**.

✓ البحث عن الإجازات،

✓ جمع المتون والكتب.

على أن لرحلة الحج فوائد أخرى قد لا يكون أقلها شأنا الاتصال بعلماء وفقهاء مختلف المدن الإسلامية التي سيمر بها ركب الحجيج في طريقهم إلى الحجاز، فالرحلة كانت دائما –كما صرح ابن خلدون من قبل- مناسبة "لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[1].

وفضلا عن هذه المزايا، فقد ارتبطت الحياة الثقافية والدينية وحتى السياسية في بلاد شنقيط إلى حد بعيد برحلة الحج. ففي طريق العودة من الحج (في حدود 1017م) اصطحب الأمير الجدالي يحيى بن إبراهيم معه الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي (ت. سنة 451هـ/.1059) "ليتولى تعليم قومه شؤون دينهم"، فأسس هذا الشيخ رباطه الشهير، منطلق الحركة المرابطية التي وصل نفوذها إلى المغرب والأندلس. وربما كان الجزولي بذلك أول أستاذ عرفه هذا الجزء من الصحراء.[2]

ANOH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAOUI DIGITAL LIBRARY

ورغم وجود مناطق ظل عديدة ما تزال مخيمة على مراحل من تاريخ المنطقة، فإن الشناقطة، وهم بداة ظاعنون، ظلوا يشعرون -بل ويفخرون- بالأبوة الحجازية ويحنون إلى استمرار التواصل مع البقاع المقدسة.

وإذا كان حجهم قد اقتصر بداية الأمر على محاولات فردية معزولة وغير مستمرة، فإن ركب الحجيج الشنقيطي لم يلبث أن انتظم منطلقا "من شنجيط إلى مكة كل عام،"[3] مشكلا بذلك فضاء رحبا لتعاط حضاري اتخذ مظاهر عديدة.

(1) عبد الرحمن، ابن خلدون، **المقدمة**، دار القلم، بيروت، **1978**، ص. **541**.

(2) المختار بن حامد، **موسوعة حياة موريتانيا، الحياة الثقافية**، الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، تونس، **1990**، ص. **6**.

(3) سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، **صحيحة النقل**، مصدر سابق.

ثانيا. مظاهر التواصل الخليجي الشنقيطي

لم يكن التعاطي بين الشناقطة وجذورهم المشرقية وليد الفترة التي حددناها مهادا لهذا البحث، بل كانت له جذوره الروحية والمعرفية الضاربة في القدم، ففي المجال الفقهي ظل الشناقطة مالكيين يتمسكون بمذهب إمام دار الهجرة. كما أن إمامهم في القراءات هو نافع قارئ المدينة المنورة.

وقد اعتمدت مرجعية الشناقطة الأدبية -من حيث الأساس- على أدباء وشعراء الجاهلية وصدر الإسلام بالجزيرة العربية.

أما في النحو والصرف فإنهم يركنون إلى التراث التنظيري لمدرستي البصرة والكوفة.

وسنقتصر هنا على تناول هذا التواصل في بعديه المعرفي والاجتماعي/ السياسي باعتبارهما البعدين الأبرز لدى الحجاج الشناقطة:

1 -البعد المعرفي:

اتخذ المظهر المعرفي للتواصل تجليات عديدة ظهرت في الدراسة والتدريس والتآليف والمقررات الدراسية والأسانيد والإجازات، إلخ.

ورغم أن الشناقطة -كما أشرنا إلى ذلك سابقا- كانوا قبل القرن الثامن عشر من حيث الأساس متلقِّين أثناء رحلاتهم إلى الحجاز، فإننا مع ذلك نجد منهم من تبوأ مكانة سامية في التدريس بالمشرق مثل عبد العزيز التكروري (ت. سنة 991هـ/1583) الذي يذكر صاحب نيل الابتهاج أن المشارقة "كانوا ينهالون عليه طلبا لتقريراته وشروحه على مختصر خليل."[1]

ونذكر من أهل القرن السادس عشر[2] العاقب بن محمود بن عمر بن

---

(1) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1981، ص. 275، إحالة رقم 236.

(2) اتبعنا، في إيراد الحجاج الشناقطة المذكورين في متن هذا البحث، ترتيبا زمنيا يعتمد تاريخ الوفاة. أما العينة نفسها فقد ساهمت المعلومات المتوفرة لدينا عن هذا الحاج أو ذاك في

محمد أقيت وكان قد سافر للحج والتقى بمشاهير العلماء مثل أبي الحسن البكري والناصر اللقاني الذي أجازه في جميع ما يجيز فيه على حد تعبير صاحب نيل الابتهاج[1].

أما من القرن السابع عشر فيمكننا ذكر الحاج عبد الله بن بو المختار الحسني الذي حج سنة 1076هـ/1666 ولقي علماء مصر والحجاز وحصل على إجازات من علماء مكة والمدينة والقاهرة.

وقد عاد هذا الشنقيطي من حجته بمجموعة من الكتب من ضمنها أول نسخة تصل بلاد شنقيط من إضاءة الدجنة في معتقد أهل السنة للمقري (ت. سنة 1040هـ/1630) وقد أجازه فيها بسند عال أبو مهدي عيسى بن محمد المغربي الجعفري الثعالبي (ت. سنة 1079هـ/1669).

وتبدأ الفترة التي اخترناها حيزا زمانيا لهذه المداخلة باثنين من الحجاج الشناقطة يمكن اعتبارهما "رواد العطاء المعرفي الأوائل من صفوة علماء النصف الثاني من القرن الثامن عشر"[2].

أما أولهما فهو كمال الدين محمذن بن حبيب الله المجيدري اليعقوبي (ت. سنة 1204هـ/1790) وقد "كان من أبرز العلماء الشناقطة، وممن جمعوا بين التصوف الطرقي والمنزع السلفي إضافة إلى معارفه اللغوية والفقهية الواسعة التي بهرت من لقيهم من نظرائه في المشرق"[3] إلى درجة أن بعضهم اعتبره أحد "أكبر حافظين اثنين وردا على الحجاز في تلك الفترة"[4].

اختيارها، رغم اقتناعنا بسلامة مقولة بروديل: "إن الاختيار في بعض الأحيان يكون اعتباطيا"، راجع:

Fernand BRAUDEL, **Ecrits sur l'histoire**, Flammarion, Paris, **1984**.

(1) أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، المرجع السابق.

(2) محمد المختار، ولد السعد، **تعقيب** (صص. **341-359**) على بحث محمذ بن أحمد المحبوبي، **الرحلات الشنقيطية رباط للتثاقف والوصال** المشار إليه سابقا.

(3) حماه الله ولد السالم، **صورة الشناقطة في المشرق العربي خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة**، بحث مرقون، ص. **4**.

(4) الكتاني، **فهرس الفهارس**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، **1986**، ج. **2**، ص. **298** (نقلا عن

وقد درس المجيدري في الحجاز وكون شبكة متسعة من العلاقات العلمية اتصلت بعد عودته إلى بلاد شنقيط في شكل رسائل من العلماء المشارقة كانت ترد إليه مع الحجاج الشناقطة العائدين.[1]

وتثير علاقة المجيدري بمحمد بن عبد الوهاب الذي توفي بعده بسنتين (1206هـ/1792م) بعض الإشكال، وخاصة حول مدى تأثر هذا الشنقيطي في دعوته السلفية بالوهابية، واحتمال التقائه بزعيم تلك الحركة أو ببعض أتباعه إلخ. ومع أن من الباحثين من يرجح تأثر المجيدري بمحيى الدين بن عربي (ت. سنة 637هـ/1240) أكثر من تأثره بابن عبد الوهاب[2]، فإن هذه القضايا وغيرها تبقى في باب التخمين ما لم يتح لها مزيد تمحيص وبحث.

وأما الثاني فهو صالح بن محمد بن نوح المسوفي الفلاني الشنقيطي (ت. سنة 1218هـ/1803). فقد ارتحل هذا الفقيه حاجا إلى البلاد المقدسة وأقام بالمدينة وكان على درجة كبيرة من العلم، لذلك أقبل الناس عليه ينهلون من علومه. وقد أجاز الطلاب في الحديث.

ولم يقتصر هذا المحدث على تدريس وإجازة الطلبة الحجازيين بل إن شناقطة قادمين إلى الحجاز للحج أخذوا عنه الإجازة مثل الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن الحبيب العلوي (ت. سنة 1247هـ/1832) ناشر الطريقة التيجانية بالغرب الإفريقي ومحمذن بن حبيب الله المجيدري اليعقوبي السابق الذكر.

ولا نستبعد أن يكون لاعتناء صالح الفلاني بعلوم الحديث -دون غيرها- علاقة بالحاجة التي كان الشناقطة يحسونها إلى هذا الأصل الشرعي، والتي

حماه الله ولد السالم، **المرجع السابق**، ص.**4**).

(1) يقول محمد عبد الله بن البخاري بن الفلالي: "[...] إن أنت اتبعت أثره لم تجد موضعا إلا له فيه تلميذ"، **كتاب العمران**، مخطوط، (بحوزتنا نسخة منه).

(2) راجع ددود ولد عبد الله، **الحركة الفكرية في بلاد شنقيط**، مرجع سابق، صص.**142-144**، وكذلك **مبين الصراط المستقيم** الذي ضمنه المجيدري آراءه الأصولية في الأحكام الفقهية، تحقيق آمنة بنت عبد الوهاب، جامعة نواكشوط، **1990**.

كانت من أقوى دوافع ارتحال العديد منهم إلى الديار المقدسة. يقول محمد الأمين بن فال الخير (ت. سنة 1322هـ/1905): "وأما علم الحديث فإني لم أشتغل به في بلادي ولا دراية لي به ولم أر من يشتغل به عندنا اشتغالا يذكر، وهو في الجملة من أضعف العلوم عندنا"[1].

ويمكن اعتبار القرن التاسع عشر قرن الشيخ الشنقيطي محمد محمود بن التلاميد التركزي (ت. سنة 1321هـ/1904) وكان من أشهر الشناقطة في المشرق وأكثرهم حوارات وخصومات. فقد وصل إلى مكة للحج وحظي بتقدير وإكرام أميرها الشريف عبد الله. كما ربطته علاقات وطيدة بأديب الحجاز الأستاذ عبد الجليل براده.

ومكث التركزي ربع قرن في المدينة مدرسًا ومحاورًا. يقول في إحدى قصائده:

وقد ربيتهم عشرا وعشرا وخمسا كاملات من سنين
بإطعاميهم والعلم غث سدائف من ذرى علمي السمين
وسقييهم وخمر العلم خل سلافة خمر علمي ذي المعين[2]

ومن أبرز تلامذة التركزي إبراهيم الأسكواني وأمين بري الذي كانت له مكانة متميزة لديه، فقد استخلفه على أهله وكتبه عندما أخرج من المدينة. يقول ابن التلاميد في هذا الموضوع ضمن نونيته الشهيرة:

رحلت عن الرسول وصاحبيه وعن صنوي محمد الأمين
وعن ولدي وأهلي وابن عمي بمقبرة البقيع من الدفين
وعن كتب حسان لي أسالت على تحصيلها عرق الجبين
عشية لا بطيبة لي أمين على كتبي سوى بري أمين

(1) محمد الأمين بن فال الخير، نقلا عن الدليشي، مرجع سابق، ص.128.

(2) الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي، الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية، مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1319 هـ.

فـــنعم الجـــار والتلميـــذ جـــارا أمـــين أرتضـــيه ويرتضـــيني[1]

وممن أخذ أيضا عن هذا الشنقيطي صديقه الأستاذ عبد الجليل برادة الذي يشيد في الأبيات التالية بمكانة ابن التلاميد العلمية:

لـئن فخـرت شـنقيط يومـا فبـالحري وحـق لهـا بـابن التلاميـد مفخـر
أقـول وإنـي ناصـح جـد مشـفق مقالـة صـدق أجرهـا أتنظـر
هلـم بغـاة العلـم فـيّ سـوح طابـة إلـى العلـم عنـد ابـن التلاميـد تظفـروا

ومن أشهر خصومات ابن التلاميد في الحجاز تلك المتعلقة بتغليطه لعكاشة اليماني في شرح له على لامية الأفعال، وتخطيئه للسيد علي ظاهر الوتري في درسه لصحيح البخاري.

وكانت تلك الخصومات عاملا عكر علاقات الرجل حتى مع أقرب أصدقائه[2] وقاد في نهاية الأمر إلى إخراجه من المدينة.

ويجسد الفقيه محمد يحيى الولاتي (ت. سنة 1330هـ/1912) مظهرا آخر للتواصل المعرفي حاجا وجامعا المتون ومفتيا ومدرسا. يقول هذا الشنقيطي: "درّسنا مدة إقامتنا بالحرم الشريف موطأ مالك وعقود الجمان للسيوطي وورقات إمام الحرمين"[3]. كما يذكر الولاتي أنه أجاب خلال مقامه بالحجاز عن خمسة أسئلة وردت إليه تتناول العقيدة وفقه القضاء في مذهب مالك[4].

ويمد محمد الأمين بن فال الخير الحسني جسرا قويا لهذا التواصل

---

(1) محمذ بن المحبوبي، **الرحلات الشنقيطية رباط للتثاقف والوصال (305-339)**، ضمن أعمال "**ندوة التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب العربيين ودور موريتانيا فيه**" المنعقدة من **28** إلى **30** يونيو **1998** في نواكشوط، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، **1999**، ص. **313**.

(2) مثل عبد الجليل براده.

(3) محمد يحيى الولاتي، **الرحلة الحجازية**، تخريج وتعليق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ومعهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ط.**1**، **1990**، ص.**196**.

(4) المصدر ذاته.

الشنقيطي الخليجي، فقد أقام الرجل بالمدينة دارسا ومدرسا، حيث حضر في البداية دروس الشيخ عبد الجليل برادة في التفسير والحديث، ثم انتقل إلى حلقات الشيخ أبي شعيب. وتوطدت الثقة وتجذّرت الصلات بين الرجلين لدرجة أن أبا شعيب حين هم بالسفر أسند للشنقيطي الإشراف على حلقته بالمدينة فأكمل للطلاب درس مقامات الحريري وأقرأهم جزءا من ألفية العراقي في مصطلح الحديث.[1]

ولما حل ابن فال الخير بالكويت تسابق الطلبة إلى درسه غير مبالين بحرارة الشمس وقساوة المناخ. وكان موضع تكريم من قبل هيئات عديدة من ضمنها النادي الأهلي الكويتي

وكان محمد الخضر بن مايابه الجكني (ت. سنة 1353هـ/1935) أثناء إقامته بالمشرق العربي ممن ساهموا في هذا التواصل المعرفي، ففي الحجاز تولى هذا الشنقيطي تدريس الطلبة وشغل منصب مفتي المالكية بالمدينة المنورة ووظيفة قاضي القضاة بعمان.

ومن الشناقطة الذين كانت لهم مكانة خاصة في الحجاز تذكر المصادر محمد محمود التندغي الذي ارتحل إلى تلك الديار حاجا وجاور بالمدينة حيث درَس هنالك ودرّس إلى أن نال الشهرة بحفظ القرآن والحديث واستظهار تراجم السند وتصحيح المتون باعتراف العلماء[2]. وفي بداية القرن المنصرم تولى هذا الشنقيطي منصب مفتي المالكية بالمدينة المنورة[3].

وقد جسد محمد الأمين الجكني الملقب آبه بن اخطور (ت. سنة 1393هـ/ 1973) هذا التواصل تدريسًا وتأليفًا حتى نال الحظوة والتقدير لدى أولي الأمر والعلماء السعوديين معا. فقد كان أستاذًا مرموقًا في الجامعة

(1) الدليشي، مرجع سابق، ص.87.

(2) المرجع السابق والصفحة ذاتها.

(3) سيد أحمد ولد أحمد سالم، العلاقات الثقافية الموريتانية السعودية، مجلة العرب، العدد 29، يناير/فبراير 1994، صص. 100-101.

الإسلامية بالمدينة المنورة وأسس حلقة لتفسير القرآن بالحرم النبوي. كما كان عضوا في هيئة كبار العلماء بالسعودية وعضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي(1).

وربطت هذا العلامة الشنقيطي علاقات وطيدة بعلماء سعوديين عديدين نذكر منهم الشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ عبد العزيز بن صالح والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ الذي يشيد بعلم ومنهج هذا الشنقيطي، فيقول "جزى الله عنا الشيخ محمد الأمين خيرا على بيانه، فالجاهل عرف العقيدة والعالم عرف الطريقة والأسلوب"(2).

وينوه الشيخ عطية محمد سالم (ت.سنة 1420هـ/1999م)، القاضي بالمحكمة الشرعية بالمدينة المنورة، وهو تلميذ آبه بن اخطور بأستاذه قائلا إنه: "ربى أفواجا متلاحقة تعد بالآلاف من خريجي كليات ومعاهد الإدارة العامة بالرياض والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وما مات إلا بعد أن أصبح له في كل دائرة من دوائر الحكومة في أنحاء البلاد ابن من أبنائه وفي كل قطر إسلامي بعثة من البعثات".(3)

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وقد اعتبر كتاب آبه بن اخطور أضواء البيان جهدًا متميزًا في الأوساط العلمية، إذ "ذهب جمهور العلماء إلى أن أفضل التفاسير هو أن يفسر القرآن بالقرآن. وأحسن ما ألف في هذا الاتجاه كتاب "أضواء البيان في شرح القرآن بالقرآن" لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي"(4).

على أن تركيز هذه "الأضواء" على المشغل المعرفي البحت لم يكن يعني

---

(1) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط**، مرجع سابق، صص. **273**.

(2) سيد أحمد ولد أحمد سالم، **العلاقات الثقافية الموريتانية السعودية**، مرجع سابق، صص. **99-100**.

(3) انظر مقدمة الشيخ عطية محمد سالم لكتاب **أضواء البيان في شرح القرآن بالقرآن**، تأليف الشيخ محمد الأمين الجكني الملقب آبه بن اخطور، دار إحياء التراث، بيروت، **1996**.

(4) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط**، مرجع سابق، صص. **273**.(نقلا عن: أحمد نصيف الجنابي، **علوم القرآن الكريم**).

انكفاء الحاج الشنقيطي على النص المعزول، وانغلاقه عن تسليط "أضواء" على الأبعاد الأخرى.

2 -البعد الإجتماعي/ السياسي:

لم تنل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع الحجازي تلك المكانة المركزية التي احتلتها الحياة العلمية والدينية لدى الحجاج الشناقطة، بل اكتفوا منها في أحيان كثيرة باللمحة العابرة واللفتة السريعة، وهذا ما تفطن إليه الأستاذ الدكتور حماه الله ولد السالم حين قال: "أما أوجه الحياة اليومية والتحولات السياسية فتارة يكتفون بما يدونونه عنها من ملاحظات مجملة، وطورا يضربون عنها صفحا".(1)

غير أن الدارس لا يعدم إشارات دالة أحيانا يمكن رصدها من زاويتين: ما دونه الشناقطة عن مجتمع الحجازيين من جهة، وما عكسته أدبيات وممارسات الحجازيين من اعتراف وإشادة نالها الحاج الشنقيطي من الجهة المقابلة.

وقد تجلت النظرة الشنقيطية أكثر ما تجلت في الاعتراف للحجازيين بالجميل والإشادة بكرم ضيافتهم وحسن وفادتهم للحجاج الشناقطة الذين يأتون في ظروف صعبة -وقد نفد الزاد وبعدت الشقة بين المرء وما يمكن أن يسنده من مال ورفد-؛ وهي نظرة تبرز عراقة التقاليد المحلية الحجازية في هذا الصدد.

يقول محمدو بن محمدي العلوي الشنقيطي (ت. سنة 1272هـ/1856) ملخصا هذه المعاملة ومنوها بالعناية والتكريم اللذين قابله بهما إبراهيم القاضي صاحب الصولة في الينبوع:

يا قاصدا بطحاء مكة يرتجي نيل الطواف ببيتها المرفوع

(1) حماه الله ولد السالم، مراجعات أولية حول أوضاع الحجاز في الرحلات الشنقيطية، *مجلة الدارة*، العدد الرابع، **1417**، صص.**27-64**، ص.**38**.

لا تخشى من ينبوع حاجك غوره ما دام إبراهيم بالينبوع[1]

أما العلامة محمد فال بن بابه العلوي الشنقيطي (ت. سنة 1348هـ/ 1930) فيروي كيف حل بالمدينة المنورة حاجا ومعه توصية للشيخ أحمد المشاط الذي كان قد توفي قبيل وصوله، ويتجه الشيخ إلى أسرة المرحوم، فيتولى طاهر ابنه استقبال الحاج الشنقيطي ورفقته بحفاوة بالغة فيدفع كراء الجمال ويوفر المأدبة الفاخرة. يقول محمد فال بن بابه ممتدحا طاهر وأباه المرحوم أحمد المشاط:

لئن كان موت الشيخ أحمد ذي الندى وهو صعيد للمميم طاهر

فلا يخشين وراد حوض نواله مغيض إتي فيه ما دام "طاهر"[2]

وتتكرر التجربة ذاتها في ينبع، إذ يسأل ابن بابه عن الأمير إبراهيم القاضي الذي تربطه علاقات قديمة بالشناقطة فيجده قد عزل من منصبه جراء أحداث سياسية تعرفها المنطقة حينئذ فيتجه الشنقيطي إلى منزل مسؤول في الإدارة يدعى محمد الأرنؤطي فيبالغ هذا الأخير في إكرام الحاج الشنقيطي متحملا عنه نفقات الإقامة شهرا كاملا[3] مما يستدعي من ابن بابه أن يودعه بالبيتين التاليين:

أيا قاصد الينبوع إن كنت سائلا وليس لإبراهيم ثمة مرصد

فإن ينابيع الندى بعد لم تغر فملة إبراهيم أحيى محمد[4]

ويشيد محمد يحيى الولاتي من جانبه بحسن معاملة الحجازيين له. يقول "دخلنا جدة صباحا فنزلنا في دار جمجوم وأحسن إلينا أتم إحسان أنزلنا في مكان طيب وأضافنا أحسن ضيافة، واجتمعنا في جدة بالسيدين الأكرمين

(1) أحمد بن الأمين الشنقيطي، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مصدر سابق، ص. **55**.

(2) محمد فال بن بابه، **الرحلة**، مخطوط، نسخة شخصية مصورة عن نسخة المعهد الموريتاني للبحث العلمي رقم **2598**، نواكشوط، ص. **8**.

(3) محمد فال بن بابه، **الرحلة**، مصدر سابق، ص. **12**.

(4) محمد فال بن بابه، **الرحلة**، مصدر سابق، ص. **12**.

محمد والطاهر ابني أحمد المشاط فأكرمانا وأتحفانا وحملانا في البابور[1] إلى ينبع تطوعا [...]"[2].

غير أن ينبع تستقبل الولاتي –وهو ابن البادية الذي لم يعهد للإكرام مقابلا– استقبال المدن: بيت للإيجار وخدمات تدفع مقابلها النقود. يقول هذا العالم الشنقيطي: "حملنا أثقالنا إلى بيت إسماعيل الميناوي فأكرى بيته كراء صعبا لكل يوم 13 قرشا ولم يسقنا ماء ولم يطعمنا فصرنا نشتري الماء والطعام كل يوم فمكثنا في ينبع خمس ليال والذباب والباعوض في غاية الإيذاء لنا فقلت في ذلك أبياتًا:

الماء في قصر ينبع بأثمان وللطعام مقام العز والشان
وللمنازل غلات مشددة على الغريب بأثمان وذبان
فاحذر مقاما بينبع نزلت به واقصد لجدة أهل الفضل الاعيان
وانزل على آل مشاط تجد كرما غمرا يعم بعيد الدار والداني
قرى وعونا وتجهيزا ومكرمة وبسط كف وتحديثا بأفنان
وإن على آل جمجوم نزلت تكن ما دمت ثمة في عز وإحسان
لا يبخلون على ضيف بفضلهم يسلو الغريب بهم عن ذكر الاوطان[3]

ويورد الولاتي مقطعا آخر يتناول الموضوع نفسه:

إن يمنع الله رزق العبد أنزله عند المناوي إسماعيل ينبوع
يكريه منزله أغلى الكراء ولا يسقيه ماء ولا يقريه من جوع
ولا يحادثه ولا يباسطه والقول منه لديه غير مسموع[4]

---

(1) البابور: وكثيرا ما يطلقون عليه اسم "فابور" وهو تحريف لكلمة فابير (vapeur) التي تعني البخار إشارة إلى المحرك البخاري لهذا النوع من القطارات.

(2) محمد يحيى الولاتي، **الرحلة الحجازية**، مصدر سابق، ص.**184**.

(3) المصدر ذاته، ص.**185**.

(4) المصدر ذاته، ص.**186**.

ومهما اختلفت أوجه الاستقبال بين عالم وآخر أو بين مدينة وجارتها، فإن أطراف التعاطي مع الشناقطة في الحجاز لم تقتصر على علماء وأعيان المنطقة، بل كان للعلمي والسياسي في هذا التعاطي ارتباطهما غير القابل للانفصال. فقد حظي هؤلاء الشناقطة في نفوس وبلاطات ذوي السلطان بمكانة متميزة.

ولعل من الدال في هذا السياق أن نسجل ما دار بين ابن التلاميد السابق الذكر والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني حين دعاه إلى الأستانة وكلفه بالسفر إلى إسبانيا لوضع فهرس مفصل لنفائس المخطوطات العربية المحفوظة هنالك. فقد اشترط الشيخ الشنقيطي لإنجاز هذه المهمة من بين ما اشترط:

- ✓ تزويده بمترجم ومؤذن وطباخ مسلم،
- ✓ عزل مسؤول الأوقاف الشنقيطية بالمدينة،
- ✓ حصوله على تعويض مقابل أداء المهمة.

وبالفعل تمت الموافقة المبدئية على شروطه وسافر إلى إسبانيا حيث أنجز المهمة. غير أن الشيخ -بما أثر عنه من حدة مزاج وصرامة في الأمور العلمية- رفض أن يسلم الفهرس[1] للسلطان العثماني لأن هذا الأخير لم يف بالتزامه المتعلق بعزل مسؤول الأوقاف الشنقيطية بالحجاز.

أما ابن فال الخير الحسني فيتصل بالسلطات العليا السعودية وتحديدا ببلاط ملك الحجاز الشريف حسن الذي امتدحه هذا الشنقيطي بقصيدة يقول في مطلعها:

سلام أريج المسك من دون نشره ... وينسى نديم الخمر صهباء خمره

وينسى من المحبوب وردة خده ... وأجفانه المرضى ودقة خصره[2]

وربطت هذا الشنقيطي كذلك علاقات وطيدة بأمير دولة الكويت التي كان

---

(1) لدينا نسخة مخطوطة من هذا الفهرس صورناها من الأرشيف التونسي كان الشنقيطي قد أهداها للمصلح التونسي حسن حسني عبد الوهاب.

(2) محمد الأمين بن فال الخير، **الرحلة**، نقلا عن: ابن المحبوبي، **أدب الرحلة**، مرجع سابق.

موضع تقدير وعناية بها. فحين أسس جمعية النجاة الإصلاحية نظم النادي الأهلي الكويتي حفلا كبيرا لتكريمه ألقيت أثناءه خطب وقصائد للترحيب به والإشادة بمكانته، نورد من إحداها المقطع التالي:

اليوم هللت الكويت وكبرت لما أتاها العالم النحرير
واستبشرت فرحا بنابغة الهدى حتى حسبنا أنها ستمور
إيه بني قومي وسادة معشري أوموا إليه كلكم وأشيروا
خلوا النواظر شاخصات نحوه ودعوا القلوب تسير حيث يسير
أمعطر الإسلام من نفحاته ومعيد روض الدين وهو نضير
بشرى لهذا الثغر لما زرته فلكم تمنت أن تراك ثغور[1]

وكان ابن فال الخير الحسني على صلة وثيقة بالمصلح البحراني الشيخ عبد الوهاب الزياني.[2]

وأما آبه بن اخطور الجكني فقد حظي بمكانة مرموقة داخل البلاطات الرسمية في السعودية.

فقد تولى التدريس في الرياض بأمر من الملك عبد العزيز آل سعود نفسه. كما كان موضع تقدير وإكبار من الأمير عبد الله بن عبد الرحمن.

ونال محمد محمود التندغي الحظوة لدى البلاطات في المنطقة حيث رحل إلى العراق مع الملك علي بن الحسين (في عهد الملك فيصل الأول) الذي أكرمه ومنحه دارا وراتبا وهم أن يسند إليه الإفتاء لولا أن "بعض المنتفعين -كما يقول الشيخ عبد الوهاب عبد القادر إمام جامع حسن بك في الأعظمية ببغداد- عارضوا ذلك وتمنوا إزاحته لأنه غطى عليهم وأصبحوا وكأنهم طلاب في حلقة درسه".[3]

---

(1) محمذ بن أحمد ابن المحبوبي، **أدب الرحلة**، مرجع سابق، صص. **92-93**.
(2) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط**، مرجع سابق، ص. **273**.
(3) الدليشي، **مرجع سابق**.

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

وعندما اتجه هذا الشيخ إلى الأردن رحب به الملك عبد الله وأدنى مجلسه فظل هنالك إلى أن توفي ودفن بعمان.(1)

ولم تنته حظوة محمد محمود الشنقيطي لدى البلاط الأردني بموته، فقد عيّن الملك عبد الله ابنَه محمدا في عدة مناصب سامية، فكان قاضيا للقضاة ووزيرا للمعارف ثم وزيرا للعدل. كما عينه الملك حسين سفيرا بالسعودية، فكان ضمن ثلاثة سفراء شناقطة يجتمعون في المحافل الدبلوماسية بالمملكة ممثلين لثلاثة أقطار مختلفة هم: سفير الأردن وسفير موريتانيا وأحمدو بن حرمه بن ببانه العلوي الذي كان مقيما بدرجة سفير من المغرب.(2).

وهكذا تنتفي الحدود والمواضعات ويغدو "الزائر" المقيم مواطنا من الدرجة الأولى، يتولى تسيير أمور الناس ويسهم في رسم العلاقات العامة للبلدان، فهل ينال المواطن في بلده أكثر من هذه الحظوة؟

إن إسهام الحجاج الشناقطة في نقل ونشر المعارف العلمية والخبرات الحياتية من وإلى المناطق التي زاروها أو أقاموا بها في المشرق قد جعل مهمتهم تتجاوز هدفها في استجلاب الكتب وتأصيل الأنساب والحصول على الإجازات لتجسد رسالة حضارية بالمعنى الإسلامي إفشاء للعلم وتوطيدا لأواصر القربى.

وإذا كان الحجاج الشناقطة -بادئ أمرهم- "مغامرين" جوالين تحدوا المشقات والصعاب والمخاطر مغتربين عن ذويهم متخلين عن نمط حياتهم المألوف ومفضلين الانتقال من مكان إلى آخر إشباعا لظمأٍ معرفي أو إرضاء لمنزع ديني مهما كلفهم الثمن، فإنهم بذلك -أقاموا أم رجعوا- قد أسهموا في بناء تلاقح حضاري باختزال المسافات وتكريس التقارب عبر دار الإسلام من خلال نقل حقائق البلدان والسكان والتأثر والتأثير فيها انطلاقًا مما يسميه عبد

(1) الدليشي، مرجع سابق.

(2) الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط، مرجع سابق.

القادر زمامة "وعي صاحب الرحلة بظروف الزمان والمكان".[1]

ولعل مما ساعد هؤلاء الحجاج على دفع عملية التواصل أن الانتقال كان مباحا بين الأقاليم الإسلامية تسابقا إلى تحصيل المعارف ومدا لجسور العطاء دونما حاجة إلى جوازات سفر ولا تأشيرات دخول أو خروج...إلخ

غير أن البعد المعرفي لرحلة الحج اليوم قد أخذ يضمر لصالح الأبعاد الدينية والاقتصادية والسياحية...إلخ، فأصبح الحاج يود أن يستورد الأحذية بدل الإجازات وزجاجات العطر الباريسي مكان الكتب النادرة؛ فهل تضطلع الكفاءات الشنقيطية المهاجرة الآن إلى منطقة الخليج بالأدوار التي كان الحجاج يقومون بها خلال القرون الماضية؟

وإذا كانت الحدود الإقليمية اليوم تحد من حرية عبور البضائع والأموال وغيرها من مفردات تسهم في بناء اللحمة وتقوية أواصر القربى، أفلا تكون الأفكار وبالتالي البحوث العلمية -بما يميزها من قدرة على اختراق الحواجز وتجاوز الحدود- عاملا يوحد الأمة ويعيد إلى الناس لحمتهم المفقودة في زمن القرية الكونية الواحدة؟

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) عبد القادر زمامة، الرحلة المغربية صلة علم وحضارة، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، فاس، العدد **8**، **1986**، ص. **9**.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

الملحقات

(نماذج من وثائق متعلقة بالحج)

- ✓ الملحق رقم 1: خريطة الطريق الشمالي توضح خط سير السيد الطالب أحمد ولد اطوير الجنة الوادانى.
- ✓ الملحق رقم 2: خريطة الطريق الشرقي توضح خط سير السيد محمد يحيى ولد أبوه اليعقوبي.
- ✓ الملحق رقم 3: خريطة الطريق البحري تتعلق بخط سير السيد محمد فال ولد بابه العلوي.
- ✓ الملحق رقم 4: نسخة من رسالة السيد بوبكر ولد فتي سعيا إلى السماح له بالحج.
- ✓ الملحق رقم 5: نسخة من رخصة عبور ممنوحة للسيد بوبكر ولد فتى ومرافقيه.
- ✓ الملحق رقم 6: نموذج من "جواز سفر".
- ✓ الملحق رقم 7: نموذج من "جواز سفر" صادر سنة 1906.

ANOH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHARAWI VIRTUAL LIBRARY

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

الملحق رقم 1
(الطريق الشمالي)[1]

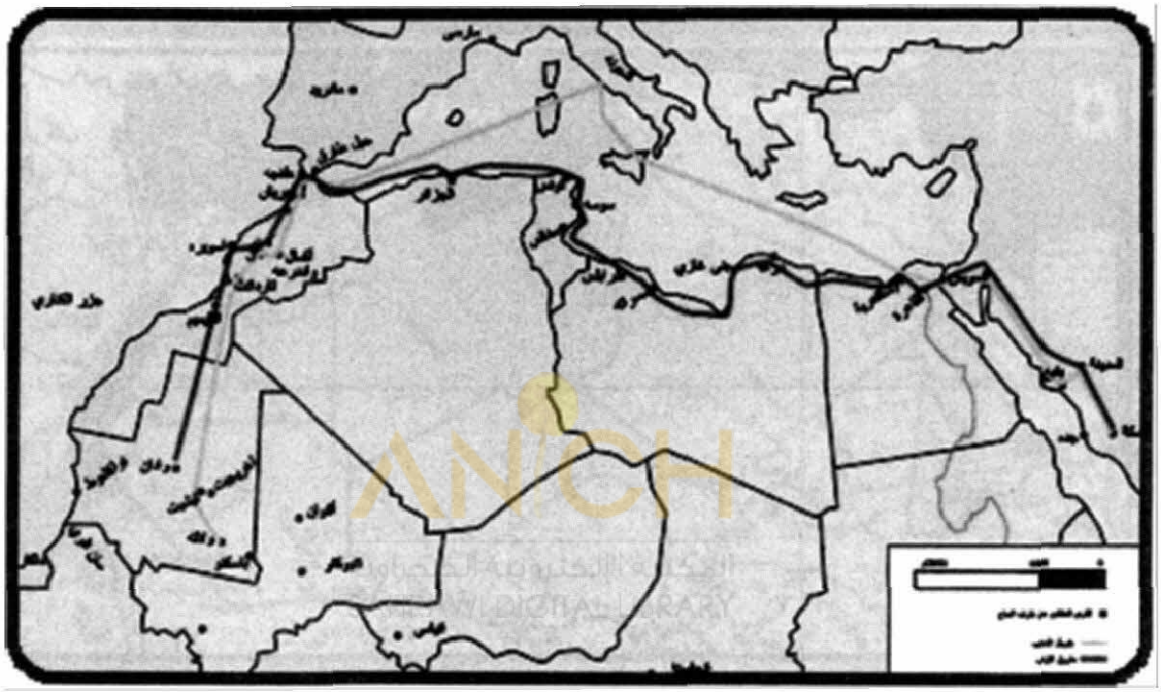

(1) خط سير رحلة الطالب أحمد ولد اطوير الجنة الواداني إلى الحجاز، أنجز لنا هذه الخريطة -مشكورا- الدكتور الفاضل الأستاذ محمد بيّاه محمد ناصر، وذلك اعتمادا على المعلومات التي جمعناها بخصوص هذه الرحلة.

الملحق رقم 2 : الطريق الشرقي (التكروري)[1]

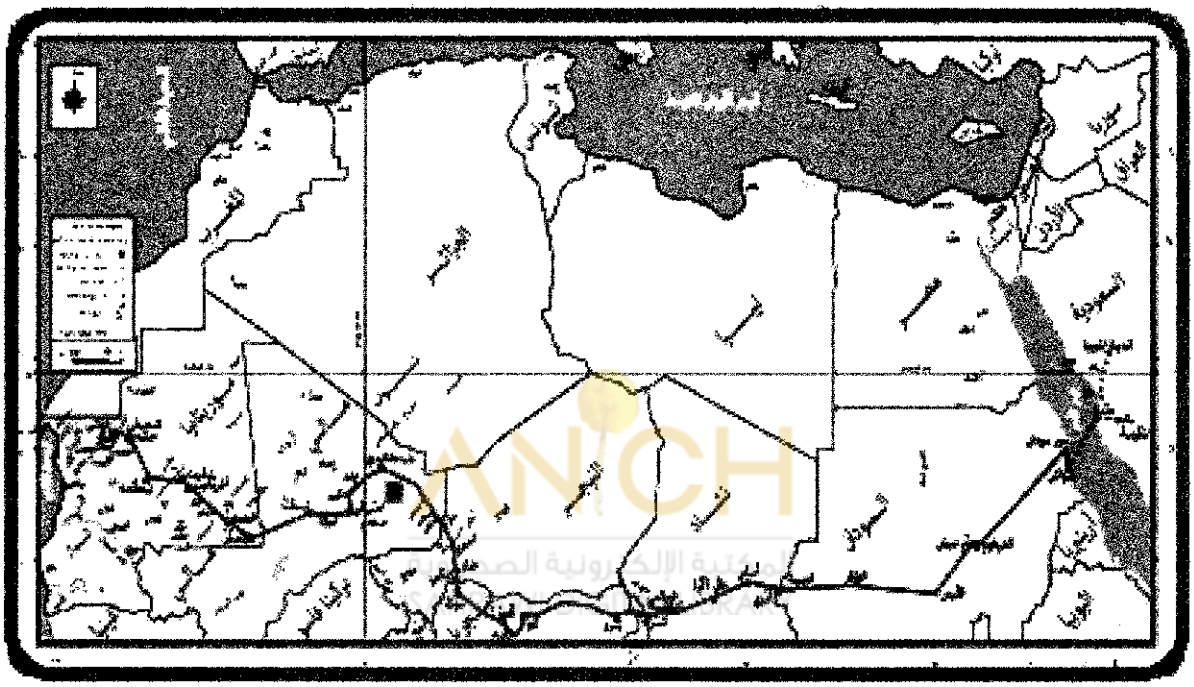

(1) خط سير رحلة محمد يحيى ولد أبوه اليعقوبي من بلاد شنقيط إلى الديار المقدسة مرورا بمالي (السودان) ونيجيريا والنيجر وتشاد والسودان فالحجاز. الخريطة من إنجاز الدكتور الفاضل الأستاذ محمد بتّاه محمد ناصر، وذلك اعتمادا على خط سير محمد يحيى ولد أبوه.

الملحق رقم 3
(الطريق البحري)[1]

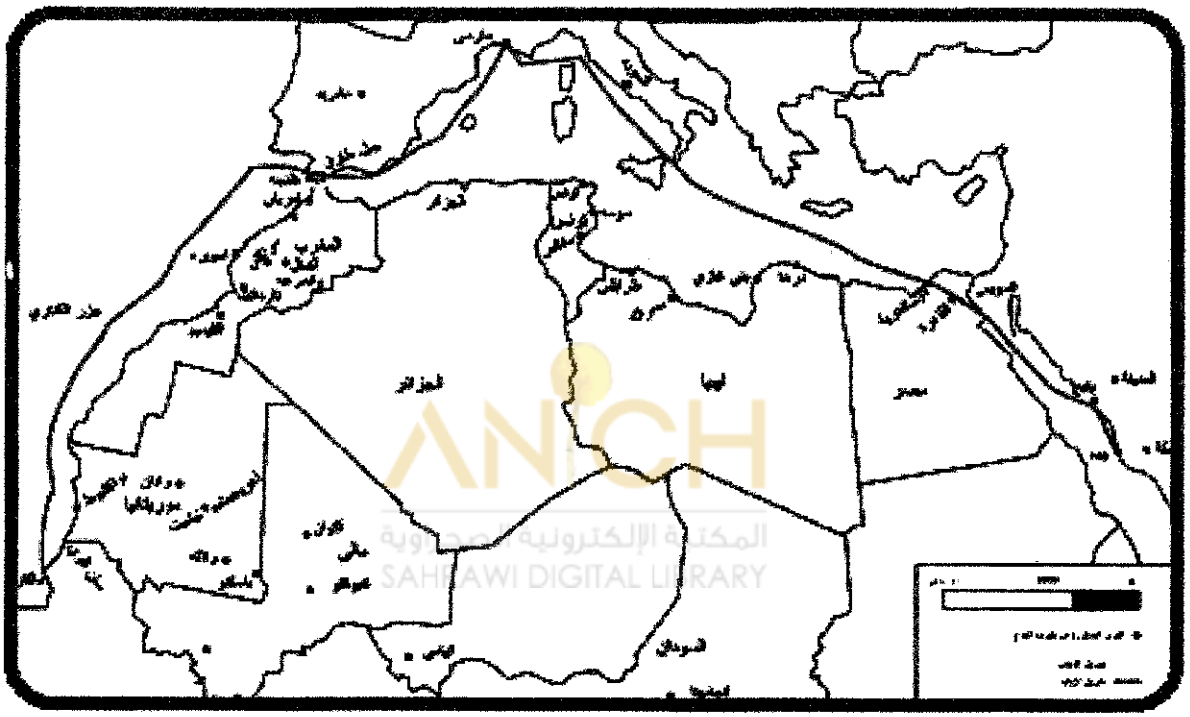

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) خط سير رحلة محمد فال ولد بابه العلوي من داكار عبر المحيط الأطلسي فالبحر الأبيض المتوسط فالبحر الأحمر. أنجز لنا هذه الخريطة -مشكورا- الدكتور الفاضل الأستاذ محمد بباه محمد ناصر، وذلك اعتمادا على المعلومات التي جمعناها بخصوص هذه الرحلة.

الملحق رقم 4 : رسالة من السيد بو بكر بن فتى الحسني إلى رئيس (أمير) البيضان يطلب منحه هو ومرافقيْه إذن سفر لأداء فريضة الحج[1]

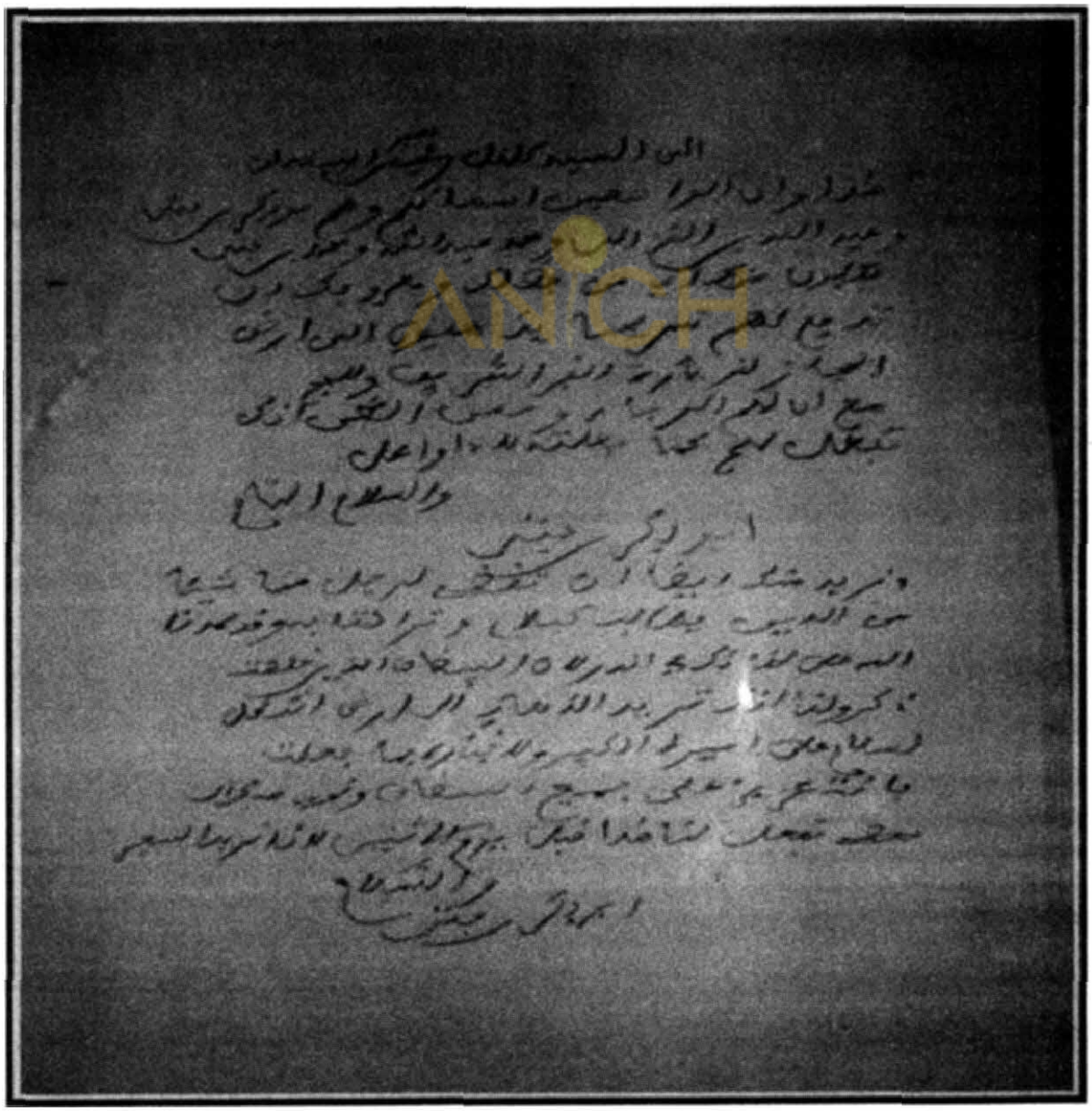

(1) وثيقة صورناها من الأرشيف الوطني السنغالي (داكار).

الملحق رقم 5 : رخصة التنقل المنوحة للسيد بوبكر بن فتى وعبد الله بن الغزالي ومحمد عبد الله ومحمد بن فتى للسفر إلى الحج :

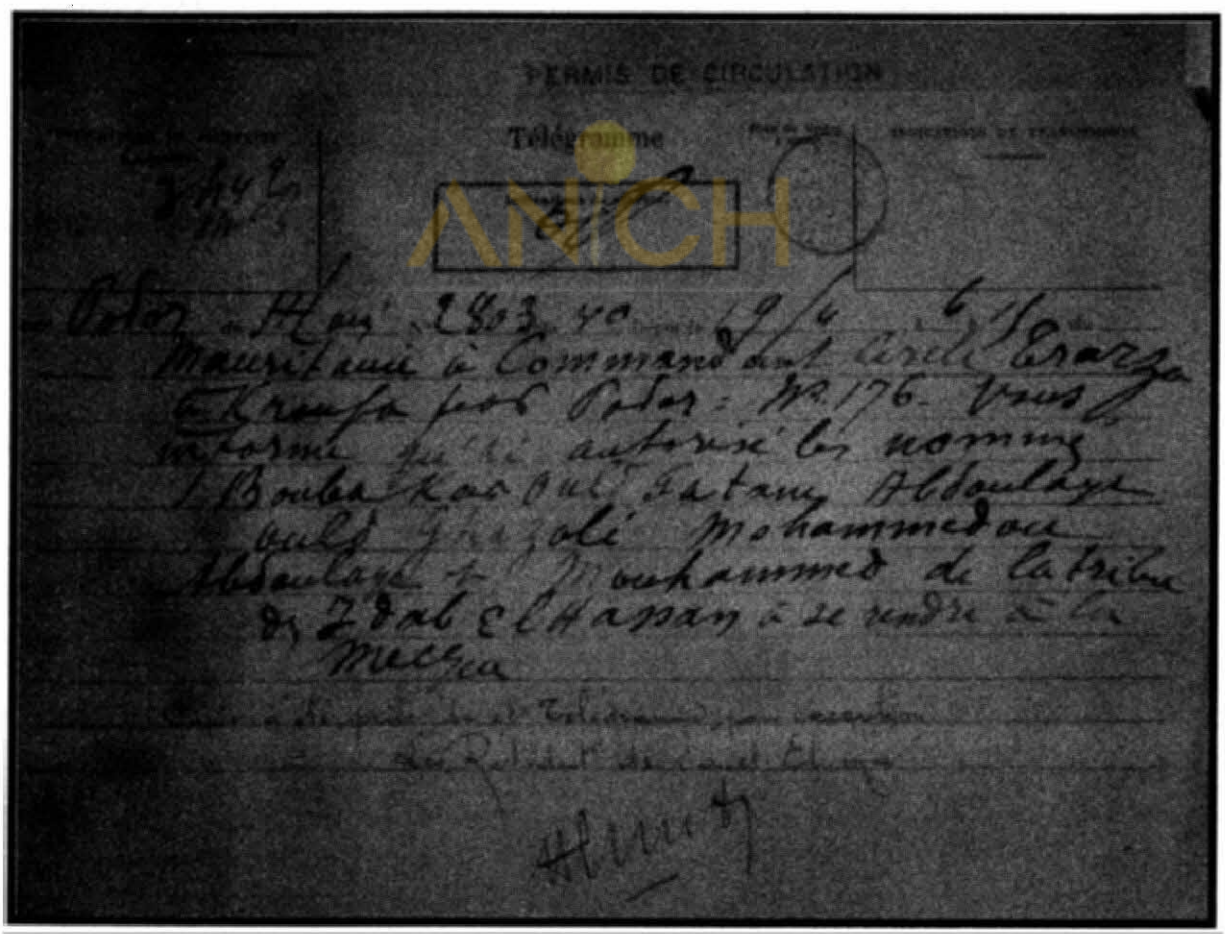

الملحق رقم 6: إذن تنقل: جواز سفر (Passeport)[1]

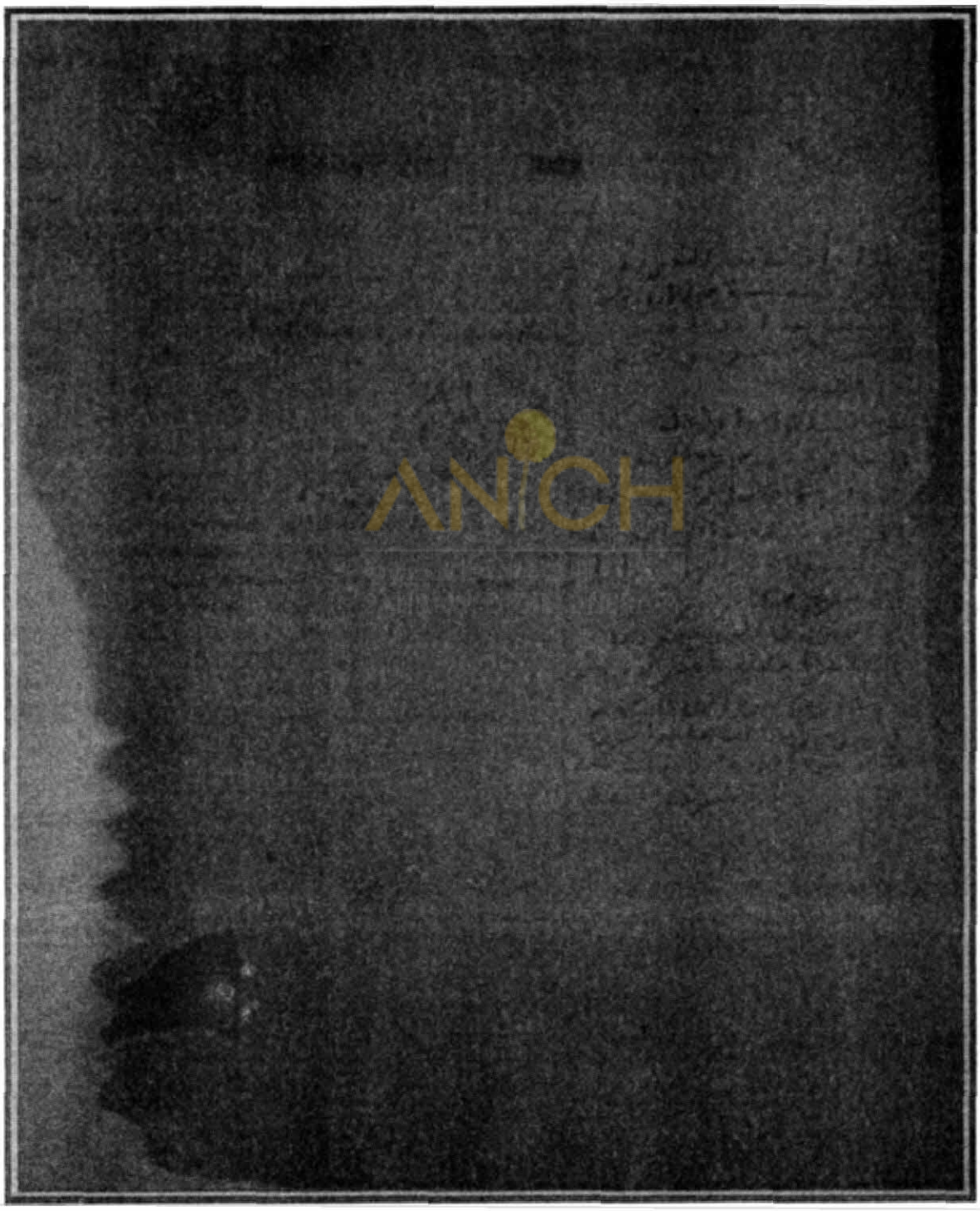

(1) وثيقة صورناها من الأرشيف الوطني السنغالي (داكار).

الملحق رقم 7 : جواز سفر
(Passeport)[1]

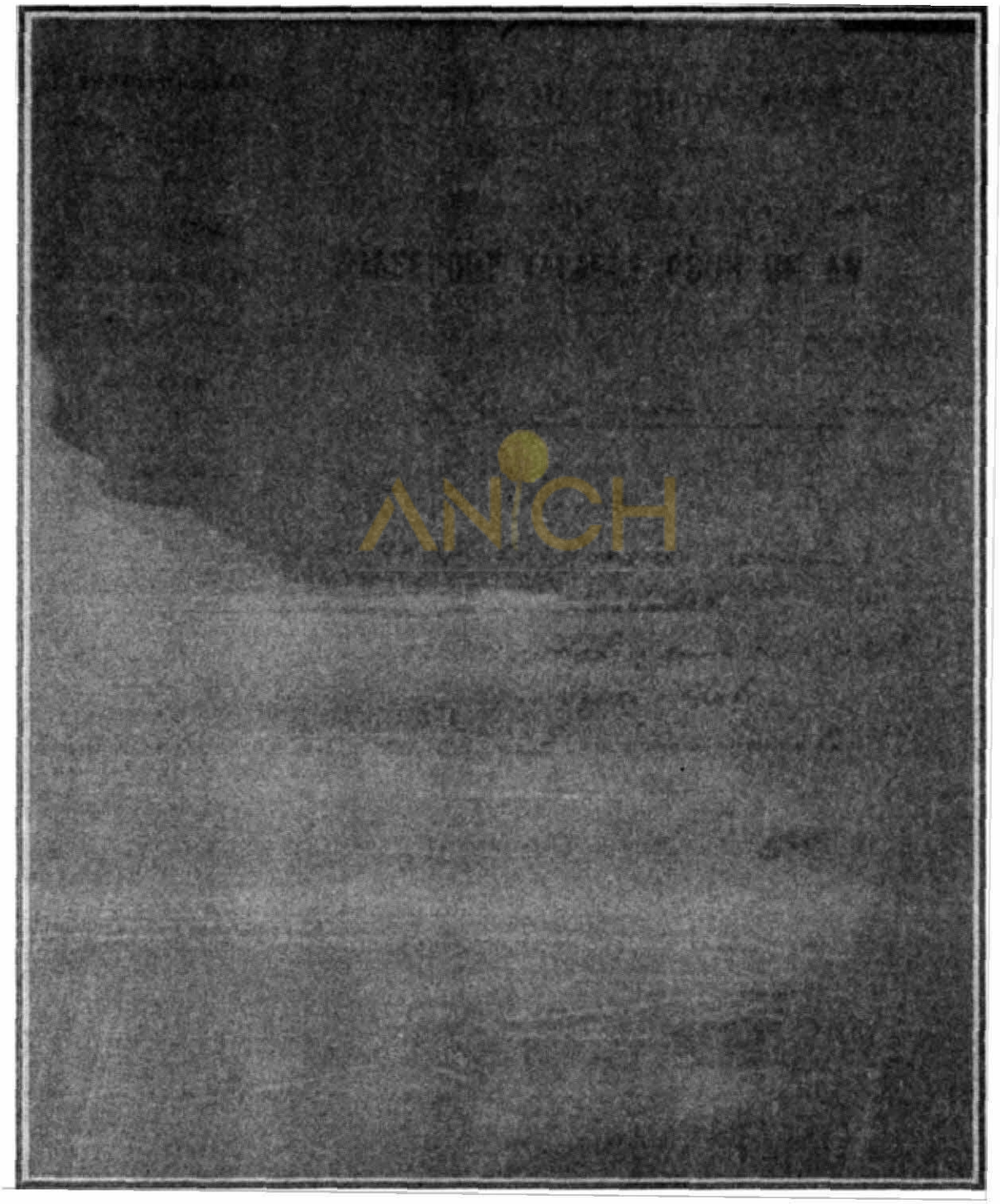

(1) وثيقة صورناها من الأرشيف الوطني السنغالي (داكار).

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

النص السابع:

أسرة أهل ابن المقداد السينلويسية

جسر للتواصل بين ضفتي نهر السنغال

(دودو سك نموذجا) [1]

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

---

(1) قدم هذا البحث مساهمة في الندوة العالمية حول: حوض نهر السنغال فضاء ثقافيا ومجالا للتواصل التي نظمتها جامعة نواكشوط خلال شهر فبراير **2002** وقد نشر في *مجلة مصادر (كراسات التاريخ الموريتاني)*، العدد الرابع، جامعة نواكشوط، **2004**، صص.**143-156**.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

تمهيد

لم تكن البحار والأنهار على مر التاريخ عامل اختلاف وتمييز بين الساكنين على ضفافها إلا بقدر ما كانت جسورا للتلاقي والتلاقح بين الحضارات والأقوام. وما كان للحضارة البشرية أن تصل الشأو الذي وصلته لولا مجارٍ مائيةٌ متدفقة بالحياة كالنيل والفرات والمتوسط إلخ.

نهر السنغال: الفصل والوصل

قد يتراآى نهر السنغال للوهلة الأولى فاصلا طبيعيا بين منطقتين وبالتالي بين شعبين وأمتين ونمطين للعيش والتفكير، غير أن المتأمل في واقع الحال وحياة الناس لا يلبث أن يرى في هذا العازل المائي –شأن الحواجز المائية الشبيهة– فضاء للتلاقي والتبادل المادي والرمزي.

وفضلا عمّا تشهد به التركيبة الاجتماعية والإثنية والمذهبية للسكان على ضفتي هذا النهر من وحدة داخل التنوع تجسدت عرقيا في اتحاد التشكيلات الإثنية والقبلية وحتى العائلية ودينيا في وحدة العقيدة والمذهب وروحيا في تعاطي الطرق الصوفية ذاتها؛ فضلا عن ذلك فإن الإنتاج المكتوب والمحكي في المنطقة طافح بالأخبار حول نشاط علمي ودعوي كثيف لسكان الضفتين كل في اتجاه الأخرى.

ولعل في سلاسل التعليم[1] أصدق شاهد على ذلك التبادل الخصب بين

---

(1) يمكن الرجوع إلى تراجم أعلام المنطقة في:

- ✓ البرتلي، أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (معجم تراجم العلماء في موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان)**، تحقيق وتعليق عبد الودود ولد عبد الله وأحمد جمال ولد الحسن، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، **2010**.
- ✓ المختار بن حامد، **موسوعة حياة موريتانيا، الحياة الثقافية**، الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، تونس، **1990**.
- ✓ المختار بن حامد، **موسوعة حياة موريتانيا**، الجزء الثلاثون (**ممالك السودان وأعلامهم**)،

العلماء والمشايخ والدعاة. فلا تكاد تخلو سلسلة عالم أو شيخ تصوف أو داعية نابهٍ على أي من الضفتين من اتصال سند بنظير له على الضفة المقابلة تعلما أو تعليما مباشرة أو بواسطة.

ولقد اقتضى تبادل القيم المادية والرمزية عبر هذا الفضاء الفاصل/الواصل منذ القديم أن تبتعث الأسر المقيمة في الضفة الجنوبية أبناءها لتلقي العلوم الشرعية واللغوية في الضفة الشمالية من جهة، وأن تستقبل من تلك الضفة مشايخ يبثون هذه المعارف بين السكان مقابل صلات يعقدونها أو هدايا يتلقونها، إلخ[1]

ولعل أسرة أهل ابن المقداد من أكثر الأسر تمسكا بتلك العادة وترسما لذلك الطريق. فمن هم آل ابن المقداد؟ وكيف جسدوا هذا الاتصال الثقافي والحضاري؟

أسرة أهل ابن المقداد

يبدو أن تسمية أسرة أهل ابن المقداد ذاتها لم تكن إلا تجليا من تجليات عملية المثاقفة التي كانت قائمة بين ضفتي النهر، فالمصادر تشير[2] إلى أن عبد الله الشيخ وهو الجد الأعلى للأسرة، سمّى ابنه المختار "ابن المقداد" باسم رجل من أهل فاس مشهود له بالعلم والصلاح كان قد وصل المنطقة بكتب مهداة من محمد بن عبد الرحمن (ت. سنة 1290هـ/1873) حفيد مولاي إسماعيل إلى قوم من قبيلة بني ديمان الزاوية.

وقد ارتبطت أسرة ابن المقداد -وهي من الأسر السينلويزية العريقة-

---

منشورات الزمن، الدار البيضاء، **2009**.

(1) ددود ولد عبد الله، "**دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا حتى نهاية القرن 18 الميلادي**"، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، جامعة نواكشوط، العدد الأول، **1989**، ص. **28**.

(2) انظر مثلا سيدي أحمد بن اسمه، **ذات ألواح ودسر**، مخطوط، نسخة الأستاذ سيدي أحمد بن أحمد سالم، ص. **39**.

بعلاقات متميزة مع البيضان منذ القرن التاسع عشر واضطلعت بأدوار بارزة في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية بمنطقة حوض النهر، إذ تمكنت هذه الأسرة من احتكار وظائف القضاء والإمامة والترجمة في مدينة سين-لوي منذ منتصف القرن التاسع عشر وذلك بحكم ما تمتع به أفرادها من وزن اجتماعي وثقافي وديني تأتّى بعضه من تتلمذهم على البيضان.

فقد استقبلت محاضر[1] الجنوب الغربي الموريتاني المختار سك الملقب ابن المقداد الأكبر (ت. سنة 1299هـ/1882) وأبناءَه على التوالي عبد الله سك (ت. سنة 1304هـ/1887) وسليمان سك (ت. سنة 1331هـ/1913) وعينين سك (ت. سنة 1359هـ/1940) ومحمدو (دودو) سك الملقب ابن المقداد الأصغر (ت. سنة 1362هـ/1943) حيث تلقوا مبادئ اللغة العربية والدين الإسلامي قبل أن يعودوا إلى سين-لوي ليضطلعوا في جهاز الدولة بمهام جسيمة ويحتلوا مكانة متميزة في المجتمع السينلويزي بشكل خاص وفي السنغال عامة.

وبفضل ما تحلت به أسرة ابن المقداد من علم وما تمتعت به من نفوذ داخل المجتمع السنغالي وما كان لها من صيت لدى البيضان مثلت هذه الأسرة عبر ضفتي نهر السنغال جسرا للتواصل ونموذجا حيا للتبادل الثقافي والعلمي في المنطقة.

ولعل أبرز شخصيات هذه الأسرة وأكثرها تمثيلا لذلك الدور هو دودو سك (ابن المقداد الأصغر)، لذلك ارتأينا أن نركز هذه المداخلة على شخصيته متناولين على وجه الخصوص حياته ونماذج من إنتاجه الأدبي تبرز تأثره وتأثيره في نطاق علاقات التواصل عبر النهر التي تركت بصماتها واضحة المعالم في تاريخ المنطقة الثقافي على وجه الخصوص.

---

(1) المحاضر وتسمى أيضا المحاظر: جمع "المحضرة" وهي مؤسسات علمية وتعليمية انتشرت في بلاد شنقيط (موريتانيا) واضطلعت بأدوار مهمة في صيانة التراث والثقافة العربية الإسلاميين ونشرهما في البلاد الموريتانية وفى العديد من أقطار بلاد السودان. راجع: الجزء الرابع من هذا الكتاب.

من هو دودو سك

هو محمدو (دودو) ولقبه سك وشهرته ابن المقداد[1]، وقد ولد بمدينة سين-لوي السنغالية في 26 جمادى الأولى 1284 هـ/24 من سبتمبر/أيلول 1867[2]. وحين بلغ التاسعة من العمر بُعث على غرار والده (المختار) وأخيه الأكبر (عبد الله سك) إلى منطقة الكبلَة[3] بالجنوب الغربي الموريتاني ليتلقى على أيدي المشايخ هنالك دراسته المحضرية.

وقد عاش ابن المقداد بين صفوف بيضان التراررزه أربع عشرة سنة تمكن خلالها من إتقان اللهجة الحسانية وحفظ القرءان الكريم وتعلم العربية إلى أن أجاد قرض الشعر الفصيح والحساني كما سيتضح في أماكن أخرى من هذا البحث.

وفور اغتيال أخيه عبد الله سك سنة 1304هـ/1887 استدعى الوالي الفرنسي بريير دو ليل (Brière de Lisle) دود سك ليعينه مترجما من الدرجة الثانية خلفا لأخيه.

وقد انخرط هذا "المترجم" الجديد الذي لا يعرف الفرنسية[4] في

ANOH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) للمزيد من المعلومات، راجع كتابنا: وثائق من التاريخ البيضاني: نصوص فرنسية غير منشورة(ترجمة وتحقيق وتعليق)، منشورات مركز الدراسات الصحراوية بجامعة محمد الخامس، الرباط (المغرب)، 2016، صص. 87 وما بعدها.

(2) اعتمدنا في حياة الرجل -فضلا عن ملفاته بالأرشيفين السنغالي والفرنسي- على:

- ✓ Doudou Seck, **Notes autobiographiques**", 35 p., dossier Bou El Mogdad,
- ✓ Geneviève Desiré-Vuillemin, "**A propos d'un rapport de l'interprète Bou El-Mogdad sur sa mission dans l'Adrar en 1900**", Paris, *Rev. d'Hist. des Colonies*, n°**39**, **1952**, pp. **103-126**.

وقد قام زميلنا سيد أحمد بن أحمد سالم بتعريب هذا التقرير.

(3) منطقة جغرافية تمتد من تخوم آدرار شمالا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن نهر السنغال جنوبا إلى منطقة آفطوط الشرقي شرقا.

(4) لم تكن غالبية المترجمين السنغاليين الذين اكتتبتهم الإدارة الفرنسية في ذلك الوقت تتقن العربية ولا الفرنسية. ومن بين هؤلاء المترجمين عبد الله سك ودودو سك اللذين عُيّنا

المدرسة الحديثة، وأسندت إليه الإدارة الفرنسية مهمة استقبال المراسلات[1] التي ترد يوميا باللغة العربية من مختلف الزعماء المحليين على المكتب السياسي بمستعمرة السنغال.

وعندما بدأ الفرنسيون في ملتقى القرنين التاسع عشر والعشرين يكثفون حملاتهم الاستطلاعية نحو البلاد الموريتانية تمهيدا لإخضاعها سياسيا وعسكريا استخدموا دودو سك مرافقا للمستكشفين ومترجما لهم بل نائبا عنهم أحيانا في بعض المهام الاستكشافية، فقد أسندت إليه بعض هذه المهام دون أن يكون مرفوقا بفرنسيين.

ومن أشهر المهمات الاستطلاعية التي شارك فيها دودو سك (ابن المقداد) أو قام بها يمكن أن نذكر:

✓ بعثة نوارو (NOIROT) سنة 1889 وهي أول مهمة فرنسية شارك فيها ابن المقداد داخل البلاد الموريتانية حيث رافق الإداري الفرنسي نوارو المكلف بمهمة استطلاعية وقتها في منطقة الترارزه،

✓ بعثة ليون فابير (Léon FABERT) الذي عُهد إليه سنة 1891 بالقيام بمهمة استكشافية في آدرار في محاولة لإقامة علاقات تجارية وسياسية مع إمارة آدرار[2]،

✓ مهمة خاصة في آدرار سنة 1892 استهدفت الاتصال بأمير آدرار وكبار

مترجمين وهما لا يعرفان اللغة الفرنسية، لكنهما تعلما هذه اللغة وتمكّنا من إتقانها. راجع:

Doudou Seck, **Notes autobiographiques**", **35** p., dossier Bou El Mogdad.

(1) بخصوص هذه المراسلات، تمكن مراجعة: ملفات السلسلة "ب" (B):

Archives Nationales du Sénégal: Série B: Correspondances générales (**1779-1895**).

(2) حول هذه المهمة تمكن مراجعة:

- ✓ ANFSOM, Série: Missions, Missions dans le pays des Maures (**1889-1892**), Carton **3**, dossier Fabert:
- **Projet de traité entre la France et l'Adrar**, Carton **4**,
- **Exploration au Sahara occidental** (Adrar **1891**), Carton **4**, dossier Fabert.

معاونيه لحثهم على التعاون مع الفرنسيين[1]،

✓ مهمة في تكانت سنة 1894، كان هدفها توقيع اتفاقية مع مجموعة اشْراتيت بهدف وضع المنطقة تحت الحماية الفرنسية[2]،

✓ مهمة أخرى في آدرار سنة 1898، وكانت مواصلة للبعثة السابقة حيث حاول -كما يقول- أن يبرز لأمير آدرار ولكبار الشخصيات في المنطقة "الفوائد المتعددة [!] التي سيجنونها من التعاون مع الفرنسيين في السنغال"[3]،

✓ بعثة بول بلانشي (Paul BLANCHET) سنة 1900 التي استهدفت دراسة الموارد الاقتصادية -المعدنية خاصة- في تلك المنطقة[4]،

✓ مرافقة الإداري كزافيي كوبولاني (Xavier COPPOLANI) إلى منطقة الترارزه سنة 1902[(5)]،

✓ مرافقة الإداري الفرنسي كزافيي كوبولاني إلى منطقة البراكنه سنة 1904،

✓ مرافقة الضابط فريرجان (FREREJEAN) إلى تجكجه سنة 1905

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) Bou El Mogdad, "Notes autobiographiques...", op.cit., pp. **15-16**.

(2) حول هذه المهمة تمكن مراجعة:

✓ Mohamedou Ould Mohameden, "**Les tentatives de pénétration française dans le Pays Maure à travers le rapport de mission de Bou El Mogdad en 1894 au Tagant**", *Maçadir, Cahier des sources de l'histoire de la Mauritanie*, Cahier n°**1**, Universités de Nouakchott et de Provence (Aix-Marseille-I), Aix-en-Provence, **1994**, pp. **79-99**.

✓ محمدو بن محمدن، "**ابن المقداد ومهمته في *تكانت***" (صص. **86-121**)، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، جامعة نواكشوط، العدد **5**، **1996**.

(3) Bou El Mogdad, "**Notes autobiographiques**...", op.cit., pp. **15-16**.

(4) محمدو محمدن أمين، وثائق من التاريخ البيضاني: نصوص فرنسية غير منشورة، مرجع سابق، صص. **115** وما بعدها.

(5) الأرشيف الوطني الموريتاني، نواكشوط، الملف **E1/8**: تقرير من الحاكم الفرنسي العام لغرب إفريقيا إلى وزير المستعمرات الفرنسي يتعلق بمهمة كوبولاني في منطقة الترارزه بالجنوب الغربي الموريتاني (كانون الأول **1902**).

للتحقيق بشأن مقتل كوبولاني،

✓ مرافقة العقيد كورو (GOURAUD) سنة 1909 أثناء حملته الشهيرة على آدرار بالشمال الموريتاني[1]،

✓ مرافقة العقيد موري (MOURET) سنة 1928 أثناء حملته على الصمارة.

وفضلا عن مهامه المتعددة في موريتانيا فقد تجول دودو سك عبر أقطار عديدة، إذ رافق أباه سنة 1878 إلى فرنسا لحضور المعرض الدولي بمرسيليا كما زار المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والحجاز وتركيا إلخ.

وقد توفي ابن لمقداد سنة 1362هـ/1943 مخلفا على الخصوص:

✓ سيرة ذاتية[2]،

✓ تقريرا عن مهمته في تكانت سنة 1894[3]،

✓ تقريرا عن مهمة بول بلانشي في آدرار سنة 1900[4]،

✓ ديوانا شعريا[5] يحتوي نصوصا عديدة عكست مستوى التأثر والتأثير الذي جسدته أسرة ابن المقداد في المنطقة خاصة على الصعيد الثقافي.

---

(1) Gouraud, **La pacification de la Mauritanie, journal des marches et opérations de la colonne de l'Adrar**, Paris, Emile Larose, sans date.

(2) Doudou Seck, **Notes autobiographiques**", **35** p., dossier Bou El Mogdad.

(3) كنّا قد تناولناه تعريبا وتحقيقا وتعليقا ضمن كتابنا: **وثائق من التاريخ البيضاني: نصوص فرنسية غير منشورة (ترجمة وتحقيق وتعليق)**، مرجع سابق، صص.**87-112**.

(4) Voir, Geneviève Desiré-Vuillemin, "**A propos d'un rapport de l'interprète Bou El-Mogdad sur sa mission dans l'Adrar en 1900**", Paris, *Rev. d'Hist. des Colonies*, n°**39**, **1952**, pp. **103-126**.

وقد أشرنا سابقا إلى أن زميلنا سيد أحمد بن أحمد سالم قام بتعريب هذا التقرير.

(5) أنظر: عامر صمب، **الهدية السنغالية من المرجان في العقود الأدبية للعربان**، منشورات المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء، داكار، **1975**، جزءان (**364** و**401** صفحة).

أولا. ولد ابن المقداد المنفعل بالثقافة الموريتانية

لعل أهم ما ميّز هجرة ابن المقداد العلمية هو أنها شكلت تخطيا لما كان قائما بين الضفتين من اتصال قائم على تبادل المنافع والمعارف والأفكار.

فقد عكست نصوص الرجل لحمة ثقافية غير قابلة للفكاك تستند مفرداتها إلى تمثّلٍ نادرٍ لمجمل عناصر البنية الثقافية والنفسية (فنون، آداب، أحاسيس، أنماط سلوك، إلخ) واندماجٍ فاعلٍ في هذه البنية يصل حد التماهي مع مكوناتها المختلفة والانخراط في سجالاتها المتنوعة. وينعكس ذلك بشكل أبرز في المستويات التالية:

1 -الحنين إلى المكان:

ظل ابن المقداد حتى بعد عودته إلى السنغال، وطنه الأم وانهماكه في خدمة الإدارة الفرنسية مرتبطا بالبلاد الموريتانية وخاصة منطقة إِكِيدِي[1] بالجنوب الغربي حيث ترعرع ودرس. يقول:

سَلِّمْ على إِكِيدِي إن جئتَه وحيِّه منّي على بُعدِه

وقلْ له إني مقيم على ما يعلم الرحمن من ودِّه[2]

وهو حنين لا يختلف عن ذلك الذي أحسه تجاه كتّابه الأول في وطنه الأصلي (السنغال) حينما تحسر بشكل مؤثر على صروف الزمان فيه:

أشكو إلى الله دهرا ما به "البيت"[3] وليس ينفع ذا صيت به صيت

---

(1) إكيدي: كلمة صنهاجية تعني الآبار الطوال اللينة التراب. وهو يقع في الجنوب الغربي الموريتاني. للمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى: محمذن ولد باباه، **نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا -أمر الولي ناصر الدين- رسالة النصيحة)**، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، **1990**، ص. **147**، إحالة رقم **143**.

(2) عامر صمب، **الهدية السنغالية**، مرجع سابق.

(3) لعل الصواب هو: أشكو إلى الله دهرا ما به أبليت

أمســـت مدارســـنا فيـــه مغلقـــة وفتحـــت بعـــدها فيهـــا حوانيـــت[1]

على أن المكان لديه يتجاوز المنطقة المصاقبة إلى غيرها من الفضاء العربي الإسلامي:

أحـب ربـاط الفـتح جمـا وإن نـآى ولـي حاجـة فـي أهلـه هـي مـا هيـا

كلفـت بـه دهـرا فأصـبحت مغرمـا أدافـع مـن حـب الربـاط رباطيـا[2]

2 -النزوع إلى التواصل:

ويتخذ هذا النزوع صورا من أبرزها:

أ - التعلق بالشيخ

يقول ابن المقداد مخاطبا الشيخ أحمد البكاي:

مـن مبلـغ الشـيخ مـن خـل بـه وثقـا قـدما سـلاما جديـدا يانعـا ورقـا

سـلام حـب صـدوق الـود خالصـه لا يبتغـي ورقـا كـلا ولا ورقـا[3]

ويقول مرحبا بالشيخ سداتي بن الشيخ الطالب بويَ (ت.سنة 1407/ 1987) حين حلّ ضيفا عليه في مدينة سين-لوي:

قـول المبشـر جـاء الشـيخ سـداتي قـول تضـمن أنـواع المسـرات

أقـول والقـول منسـوب لقائلـه أهـلا وسـهلا بـه مـن قـادم آت[4]

ب -التعلق بالمتون:

عند وفاة والده المختار سنة 1299هـ/1882 خلف مكتبة غنية تضم من بين ما تضم بعض المتون الموريتانية.

وقد بادر ابن المقداد ليطلب من إخوته جعل هذه المكتبة نصيبه من تركة الوالد. وكان من ضمن المؤلفات الموريتانية بها كتاب الذهب الإبريز في

(1) عامر صمب، الهدية السنغالية، مرجع سابق.

(2) عامر صمب، الهدية السنغالية، مرجع سابق.

(3) عامر صمب، الهدية السنغالية، مرجع سابق.

(4) عامر صمب، الهدية السنغالية من المرجان، مرجع سابق.

تفسير كتاب الله العزيز للشيخ محمد اليدالي، فصاغ دود سك شعرًا مخاطبًا إخوته بهذا الشأن:

أقـول إذ نظـرت عينـي إلـى كتـبٍ نفيسـة إذ مضـى عبـد الإلـه أبـي
بالـدُّورِ يـا إخـوتي فـوزوا وبالـذهب فحسـبيَّ الـذهب الإبريـز مـن ذهـب

ج -التعلق بالصديق:

يقول ابن المقداد منوها بخصال أحد أصدقائه:

ألا ليـت لـي خـلا متـى شـئت علّنـي ثلاثـا ومثلـي بـالثلاث يهـيم
فتـى ماجـداً مهمـا أديـرت كؤوسـه سـواء لديـه واقـد ونـديم
حـوى مـا حـوى مجـدا قـديما وحادثـا ومـا المجـد إلا حـادث وقـديم[1]

وبالنسبة لابن المقداد فإن التعلق بالأصدقاء لا يقتصر على السنغاليين والموريتانيين وحدهم، بل يشمل أصدقاءه الفرنسيين كذلك. فأثناء أسره بمدينة أطار سنة 1900 مع بعثة بول بلانشي قرر السكان المحليون إطلاق سراحه والسماح له بالعودة إلى السنغال، لكنه رد عليهم بالبيت الشهير[2]:

لا يسـلم ابـن حـرة زميلـه حتـى يمـوت أو يـرى سـبيله

د - التعلق بالحبيب:

وقد يكون هذا التعلق أحيانا بمجرد التعبير عن تلبس حالة الحب دون ذكر للحبيب:

يَكْطَـعْ بِيـكْ أَنْـتَ يالشـيطانْ مَـذالَكْ عايَـدْ لِـي وَحْلَـه
شَـدُّورْ افْ شـيانِ سُـدانْ مـا يَتْمَلَّـكْ زَغْبَـة كحلَـه

كما قد يصرح فيه بالحبيب، يقول ضمن بعض غزله بالفصحى:

---

(1) عامر صمب، الهدية السنغالية من المرجان، مرجع سابق.

(2) محمدّو أميّن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، 2001، الرباط، ص.151.

إذا رأيـــتم أخـــا الخمسيـــن أدمعـــه تُبدي على الخد ما جنّ الفؤادُ وكَنْ
لا تعـذلوه علـى مـا كـان منـه فهُـو شـيخ سـبته فتـاة الحـي زينـب كَـنْ

وكذلك باللهجة الحسانية:

أثْـــرِ لُكيـــفِ مـــا إنجيـــهْ بعـــــــدانَ سيلبابِـــــــي
أحبيـــاتِ مـــا هُـــومْ فيـــهْ وأصـــلْ مـــا فيـــهْ أحبـــابِي

ومثل "كافه" الشهير:

كَـــــارَظْلِي فـــــالعرَّادْ ذَ الخـــــلق الِّ نَجْبَـــــرْ
أُكَـــــارَظْلِي فيـــــهَ زاد ذاك الراجـــــل لَعْـــــوْر

3 -الشغف بالنسق الجمالي العام:

وفضلا عن تذوق وقرض الشعر الفصيح والحساني يعبر ابن المقداد عن تأثره بمختلف أشكال التعبير الجمالي وبالذات الموسيقى والغناء. يقول:

اتعيَّـــبْنِ هـــونْ البظـــانْ بـــنِّ مـــا وقّـــرتْ الشـــيَه
وإنّ تبـــغِ هـــول أزوانْ مغـــلاكْ إعْلـــيَّ يَعَيْـــبَه

ويبدو أن هذا التأثر قد دفع بابن المقداد إلى اهتمامٍ بالفنيات وصل حد الحذق بأدق التفاصيل:

عَنْـــدَكْ تِشَبَّـــطْ فالتـــردادْ تَـــرْغِ واتْصَـــوْلَحْ تُـــنَحَّ
والمهـــر اعْـــلَ التِّشَبَّـــطْ زَادْ اعْيـــاطُ شَبْكَـــه يَنْـــبَحَّ

ومن ذلك أيضا قوله:

رنـــين أظْفـــارَكْ شـــنْ طـــنْ والمهـــرْ إمتَيـــنْ إتْهيـــنُ
يتْلَيـــــغْ والتِّشْبِطـــــنْ إعْـــلَ لمْهـــارْ إنيـــنُ

ويقـولُ لمطربـه وصـديقة محمـد ولـد انكـذي الملقـب لعـور (ت.سـنة 1365هـ/1946):

لعـــورْ حسُّـــو يالنـــاسْ خـــرقْ عـــادَه مـــن متـــنْ زَيْـــنُ

يَـــــلاَّلِ منُّـــــو زاد فـــــرقْ بيـــــنْ الشّعـــــارْ أُبيْـــــنُ

لعـــورْ حسُّـــو يـــلْ كَـــطْ عـــامْ لـــوّلْ شاحنـــتْ إفْزيْـــنُ
لعـــورْ راعيـــهْ اليـــومْ وَامْـــ شِـــحانْ إفْلعـــورْ عيْـــنُ

لعـــاذْ إلِّ مـــنْ لنْـــسْ شـــاعرْ بـــينْ البحـــرينْ
أزْيَـــنْ حسُّـــو مـــنْ حـــسْ امْحمّـــدْ حسُّـــو زيـــنْ

4 - الإندماج في المنظومة القيمية:

وهو ما يعبر عنه السعي إلى تجسيد صورة "الفتوة" كما تصوغها الأدبيات البيضانية معارفَ وسماتٍ وأخلاقا بشكل تمّحي فيه الفوارق فيغدو صوتا داخل النسيج الثقافي يخضع للسلّم القيمي كما يخضع له أي "فتى" آخر.

ومن هنا نجده ينكر من أبناء جلدته بعض السلوك الذي لا يتماشى والقيم العربية البيضانية:

تـــرك العـــرض نهـــب كـــل لســـان وانثـــنى نحـــو مالـــه ثـــم مـــالا
فـــالفتى مـــن يصـــون عرضـــا بمـــال ما الفتى من يصون بالعرض مالا[1]

ولعل قوة تمثل هذا "الفتى" للنسق القيمي وما تحلّى به من مستوى معرفي وسماحة خلق وكرم، إلخ، كان المدخل الذي استطاع منه التأثير في الثقافة الموريتانية باعتباره من الأفراد الذين أسهموا في تنشيط حركة إبداع اشتركت فيها الأصوات الأكثر ألقا في تلك الفترة.

(1) عامر صمب، الهدية السنغالية، مرجع سابق.

ثانيا. ولد ابن المقداد الفاعل في الثقافة الموريتانية

لقد شكل ولد ابن المقداد في الأدبيات الموريتانية -وخاصة في منطقة الكبلَة- ظاهرة بارزة سنقف منها على مظهرين لعلهما من أكثرها بروزًا هما:

1 -المساجلات:

تعتبر المساجلات في العادة مناسبة لامتحان سرعة البديهة والقوة على تحمل أمزجة الندماء التي قد تبرز بعض التعريض أو تتجسد في استعراض القوة... وهي مناسبة يتناظر فيها الأدباء مظهرين مواهبهم الإبداعية ومقدرتهم على الارتجال السريع استجابة لمتطلبات المقطع الموسيقي (الشّورْ).

ومن أهم ما يحرص عليه المتساجلون اختيار الأطراف الجديرة بالمناظرة لما لذلك من دلالة على المستوى الاجتماعي والأدبي.

ولعل من أشهر المساجلات الأدبية التي كثيرًا ما احتضنها صالون هذا المترجم السينلويسي تلك التي دارت حول مقطع موسيقي جديد (شور) للفنان محمد ولد انكذي. وقد تبارى في هذه المساجلة الشهيرة ضمن شور "دزَّيتْ امبرْ" أدباء مشهورون[1]، حيث افتتح ابن المقداد السمر قائلًا للعور الذي تربطه به صلات عميقة وعلاقات حميمة:

امْبـــرْ إلِّ كـــالْ الْمَجّـــادْ بُوصَـــلْعَهْ بُـــوخَزْرهْ مـــن زرْ
ذَاكُـــو كِيـــفْ امْبـــرْ إلَعَـــادْ إلِّ لاهِ ينْكَـــالْ امبـــرْ

ثم يتلوه شماد ولد أحمد يورة (ت.سنة 1974/1394):

النّـــاسْ إلَ كَالـــتْ بَاجْنَـــاسْ عَنّـــكْ تكَـــدرْ تُحامـــرْ فُـــرْ
ذاكْ ألاَّ كَـــولْ النّـــاسْ النّـــاسْ اتْمَـــشّ لكَـــوَاربْ فالْبـــرْ

(1) مقابلة مع الشاعر والأديب والباحث محمد ولد الميداح الملقب دمب، **25** مايو/أيار، نواكشوط، **2017**.

ويأتي دور الوالد ولد القطب:

امْخَمَّمْـــنِ فـــأمرْ الْغَيْـــدَاتْ عَـــوْدانِ نافـــدْ كَـــدْ اشْـــبرْ
وألاَّ نكْبـــــرْ والطَّـــــافِلاتْ كذَّكـــــذَّ وحْـــــدَه تكْبـــــرْ

فيتدخل من هامش الصالون ولد ابنو ولد احميدن (توفي سنة 1362هـ/1943م)، ولم يكن وقتها معروفًا:

شـــاعرْ فـــالْهَولْ إمْعـــاكْ اتْـــلَ إعـــودْ افـــزرْ أُعـــتْ افْـــزرْ
ذاكْ الـــزّرْ امْـــنْ الهـــولْ اخْـــلَ أُذاكْ الـــزّرْ امـــنْ الهَـــوْلْ اعْمـــرْ

ويحين دور الولي ولد الشيخ يبّه (ت.سنة 1937/1355):

حَـــذْ امكَـــاطعْنِ كَـــاطعْنِ امْكَـــاطعْنِ كَطّـــاعْ اجْـــدِرْ
مايكّـــدِرْ حَـــذْ إكَاطـــعْنِ أبْـــدَ مَـــا يكـــدرْ مَـــا يكـــدرْ

فيرد عليه ولد ابنو:

باعـــدتْ الشَّـــلاتْ أُذَ فـــاتْ مـــنْ عَنـــذْ اجْـــدرْ لجْـــدر لجْـــدرْ
وإكـــذْ اتْباعِيـــذْ الشَّـــلاتْ يَصْـــلحْ وإكـــذْ أفْطَـــنْ يخْســـرْ

ثم يردف ولد ابنو منتشيا وكأنه يستخلص فوزه في هذه السمر السجالي:

نَعْـــرَفْ لغْـــنَ كنْـــتْ ابْلَمْـــلاسْ مـــانكبرْ عنُّـــه مانسْغـــرْ
أُكَلَّلْـــتْ انْـــدُورْ إنغـــرْ النّـــاسْ كَلّـــتْ لغْـــنَ للنـــاسْ إتْغـــرْ

وضمن مساجلة أخرى بين ابن المقداد وأستاذه الامانة بن الاّ الأبهمي والقاضي محمذن بن محمد فال بن أحمد بن العاقل المشهور بلقب "أمّيْ" (ت سنة 1386هـ/1966) حول مائدة من موائد الموسيقى التقليدية البيضانية ينعشها الفنان سيدي محمد ولد البان (توفي في بداية خمسينيات القرن العشرين):

يقول الامانة بن الاّ الأبهمي:

تِيـــدِنِيتَكْ تعـــرفْ نيتـــكْ مـــا تعكبَـــهَ مـــا تخطاهـــا

مَـــــا خَلّاهَـــــا تِيـــــدِنيتَكْ مَـــا خَـــلّاكْ أنـــتَ مُلاهـــا[1]

فيرد القاضي اميْ:

ذ التيـــــدينيت افهـــــول البيـــــت اتنهـــــول للكامـــــل جاهـــــا

يغيـــــر اشـــــبه فـــــي التيـــــدينيت إتـــــم امعاهـــــا ملاهَـــــا

ويقول بن المقداد:

ذِ التِّيـــــدنيتْ امـــــنْ امْـــــرْ اللّه مُلاهـــــا فبْهـــــارْ امعاهَـــــا

اتحـــــامرْ مُلاهَـــــا والـــــلّ زاد إحامرهَـــــا مُلاهَـــــا

ولم تقتصر مساجلات ابن المقداد على شخصيات الأرستقراطية الزاوية، بل إن للأرستقراطية العسكرية نصيبها المتميز في هذا السياق.

ولعل من أشهرها تلك التي دارت بينه وأمير تكانت عبد الرحمن ولد بكار ولد اسويد أحمد (ت.سنة 1402هـ/1982):

يقول ابن المقداد:

كَـــــارَظْلِي فـــــالعرَّاد ذَ الخـــــلق الّ نَجْبَـــــرْ

أُكَـــــارَظْلِي فيـــــهَ زاد ذاك الراجـــــل لَعْـــــوَرْ

فيجيبه الأمير عبد الرحمن ولد بكار ولد اسويد أحمد مفتعلا الغيظ من مستوى إجادة هذا الزنجي السنغالي للشعر الحساني:

لاَ مَدْرَسْـــــتْ ابْلَوْصَـــــه هـــــذا زامَـــــلْ لَكْـــــوَرْ

يعْمَنِّـــــي نُكَوْصَـــــه أُيعْمَنِّـــــي نُصـــــنْدَرْ

فيرد ولد ابنو ولد احميدن على الأمير الذي رأى في تعريضه بابن المقداد جهلا لمنزلته الأدبية ومكانته الاجتماعية:

---

(1) وفي رواية:

تِيـــدِنيتَكْ تعـــرفْ نيتـــكْ فـــالهول ألا تتخطاهـــا

مَخَلّاهَـــا تِيـــدِنيتَكْ وانـــت زاد أنـــتَ مُلاهـــا

بحـــــركْ تَـــــلْ أُوكْـــــرَكْ يَلَمِيـــــــــزْ أُذَ انْـــــــــدَرْ
هـــــذا مـــــاهُ بحـــــركْ هـــــذا لَبْحَـــــزْ لَخْظَـــــرْ

ومنها أيضا تلك التي جرت مع أمير آدرار سيد أحمد ول أحمد عيدّه (ت. سنة 1351هـ/1932م) في مجلس ابن المقداد وعلى شدو لعور ولد انكَذيْ. يقول دودو سك:

كـــــافِ هـــــاذَ بَلُّـــــه كـــــافِ بعـــــدْ ألاَّلِ
لَميـــــزْ اكَلـــــعْ جلُّـــــه تَـــــمْ الكَـــــافْ ألاَّلِ

فيرد عليه الأمير سيد أحمد:

ذ النِّحْيَـــــــه راعيـــــــهَ بـــــــاك يَفعَّـــــــالِ
محمـــــــدن بيـــــــهَ والصـــــــحبِ والآلِ

2 -المدح:

لقد كان ابن المقداد، بما تحلى به أخلاق وما أتاحت له علاقاته بالفرنسيين من إمكانيات سخرها -على ما يبدو- لخلق مركز استقطاب مؤثر، مصدر إلهام لشعراء رأوا فيه مثالا للقيم النبيلة:

وَلْ ابـــــن معلـــــومْ عهـــــدُ والـــــدينْ ابْـــــذلْ فِيـــــهْ جهـــــدُ
راعِ كـــــلْ اكـــــتابْ عنـــــد فـــــوكْ أوخَـــــرْ مـــــطروحْ
بـــــينْ ألِّ منصـــــوصْ وحـــــدُ أبيـــــنْ ألِّ مشـــــروحْ
وامْـــــن الشَّـــــكْلَه مـــــا اتْلَـــــوْطَ أُمَصَّـــــرْمَكْ عـــــن كـــــلْ طَوْطَـــــه
أُكـــــادَلْ مَـــــنْ لَخْـــــلاكْ حَوْطَـــــه وَالْبِيـــــكْ اغْـــــلَ الـــــروحْ
وَاغْـــــلَ فَـــــمْ اجَّـــــرْحْ يَـــــوْطَ مـــــا حَـــــسْ المجـــــروحْ

على أن ما اشتهر عنه من كرم كان الموضوع الأهم لمعظم ما امتدح به من أشعار:

ألِّ مـــــن كـــــرم ســـــجيّه أُعـــــينُ فَالمعطَـــــه مجهـــــورَه

وامنـــادمْ مـــا راهْ ارزيّـــه وألّلِ راهْ إعـــوذْ احمـــورَه
نعـــرف غلطَـــه فيـــهْ أصـــليّه يغلطهـــا مـــاه اعـــل اللُّـــورَه
مَـــنْ عشـــرَه يغلـــط فـــي الميّـــه وابرايَـــه زيـــنَه مجـــرورَه
يغلـــط فيهـــا مـــن شاشـــيّه لا عـــادت عنـــدُ مـــديورَه
أيغلـــط فاثـــلاثين أوقيّـــه عنهـــا بيصَـــه مـــن شـــنظورَه

ووصل من مبالغة الشعراء الموريتانيين في التعبير عن كرم ابن المقداد حد اعتباره سابع أسباب الرزق الستة. يقول الأديب والشاعر الشهير سيديا ولد هدار (ت. سنة 1364هـ/1925م):

جهـــاد اكبيـــرْ أُكـــذْ أُجـــذْ هـــذا فـــي الـــرزق ابـــلا مفـــاد
مـــاهُ بالجـــد ألا بالكـــد الـــرزق ألاه بالجهـــاد
الـــرزق اكبيـــلْ أصـــل محـــدودْ مـــاه منكـــوصْ ألا مزيـــودْ
ذَ هـــو تصـــريفْ المعبـــودْ الـــرزق اكبيـــلْ اعْـــلَ لعبـــادْ
لَنْـــبابْ الّ منهـــا معـــدودْ ســـتَّة وإلَ عـــادُ لســـبابْ
ســـبعة لَســـباب الـــرزقْ إعـــودْ الســـابع وَلْ ابـــن المقـــداد

ويقول ولد هدار في سياق مشابه:

لِ نوبَـــة وان فـــالتّلوادْ أعـــادْ التّلـــوادْ اغْلِـــيّ شـــاقْ
افْـــذَجَ ولْ ابـــن المقـــدادْ يـــلّال مَفَـــكَّرْ لـــرزاقْ

ويضيف سيديا ول هدار معقبا على مقطوعات شعرية حسانية (اطْلَعْ) أنشدها ابّفال ول محمادو مادحا بها دودو سك:

كَـــالْ ابّفـــالْ امـــنْ التمجـــادْ شِ زيْـــنْ الْـــوَلْ ابـــنْ المقـــدادْ
وَألاَّ هُـــوَّ نظـــمْ المـــرادْ يَـــلاَّلِ مـــزْيَنْ ذَ إلّ كـــالْ
ابّفـــالْ أُيَـــلاَّلِ زادْ مَصْـــدَقْ ذَ إلّ كـــالْ ابّفـــالْ

ولم يكن منزل ابن القداد في سين-لوي منتدى للأدب والشعر

والموسيقي والسمر فقط، بل كان فضلا عن ذلك بمثابة مركز استقبال وإيواء ودار ضيافة مفتوحة بسخاء للموريتانيين والسنغاليين على حد السواء مما حدا بالشعراء البيضان إلى تخليد هذه الدار:

والله ألَّ وَخْيـــــــرْتْ بيـــــــك يـــــا الـــــدار الّ معهـــــودَه

للجـــــودَة يـــــلّ مـــــا إجِيـــــك مـــــادَرْ مـــــا نَعْـــــدَ جـــــودَه

فحين ترنّ دقات الساعة الكبيرة بوسط مدينة سين-لوي 12 عند منتصف النهار يكون ذلك إيذانا ببداية وقت تناول الغداء في دار ابن المقداد فيهرع الناس إليها فترتجف السلالم الخشبية من الزحام. يقول الشاعر محمد بن احمد يوره (ت. سنة 1343هـ/1925م) في هذا السياق:

كنّا إذا ضُربت وقت الزوال "مِيدي" لم يلتفت أحد منا على أحد

ترى السلالم فيها القوم طالعة ما بين مرتعش منها ومرتعد

وكان ابن المقداد يحرص شخصيا على حضور توزيع الطعام، بل إنه كان يتذوقه ليطمئن إلى إتقان طبخه حتى أصبح المثل الشعبي يقول: "لقمة ول ابن المقداد".

وكانت صالات تناول الطعام متعددة والخدمات متواصلة ليل نهار. يقول أحد الأدباء الموريتانيين:

لغْـــدَ مُبَلَّـــغْ مـــا يفْـــرغْ لـــينْ إلُـــوحْ افلعْشَـــه مـــدَّ

أُلعْشَـــه بيـــهْ ألِّ مُبَـــلَّغْ مَـــا يفـــرغْ لاحْ افْلـــغْدَ

ويبدو أن كثرة الواردين على هذه الدار قد أصابتها ببعض التصدع مما شكل في حد ذاته موضوعا موحيا للشاعر سيديا ول هدار:

هـــذي الـــدار الّ لا اخْـــلاتْ عـــاد فـــيهَ لفلوحَـــه

بيـــهَ لكْـــدام ألاَ اتبـــاتْ ليلَـــه مـــاهِ مفتـــوحَه

وحسب ما يتضح من النصوص التي استعرضنا أعلاه وما تدعمه التقاليد المروية في عموم المنطقة، يتضح أن منزل ابن المقداد كان مفتوحا بالفعل كما

كان جيبه مفتوحا ويده مبسوطة ممدودة.

وهذا الانفتاح هو الصورة المصغرة لما كرسته أسرة أهل ابن المقداد من تواصل وتبادل مع الفضاءات الثقافية للنهر شمالا وجنوبا وما فتحته من إمكانيات للتثاقف وللحوار والتلاقي والعطاء.

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ملحقات

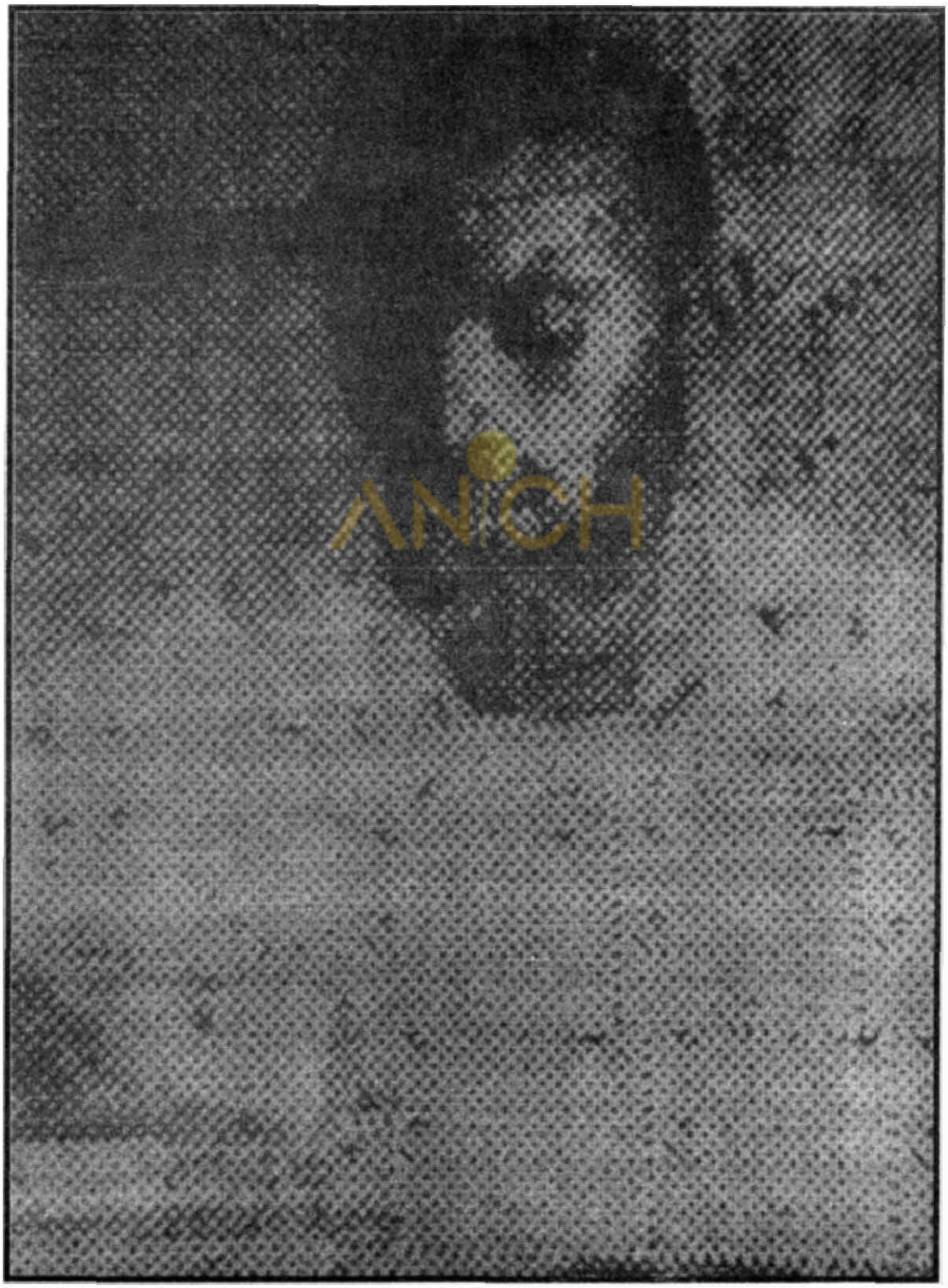

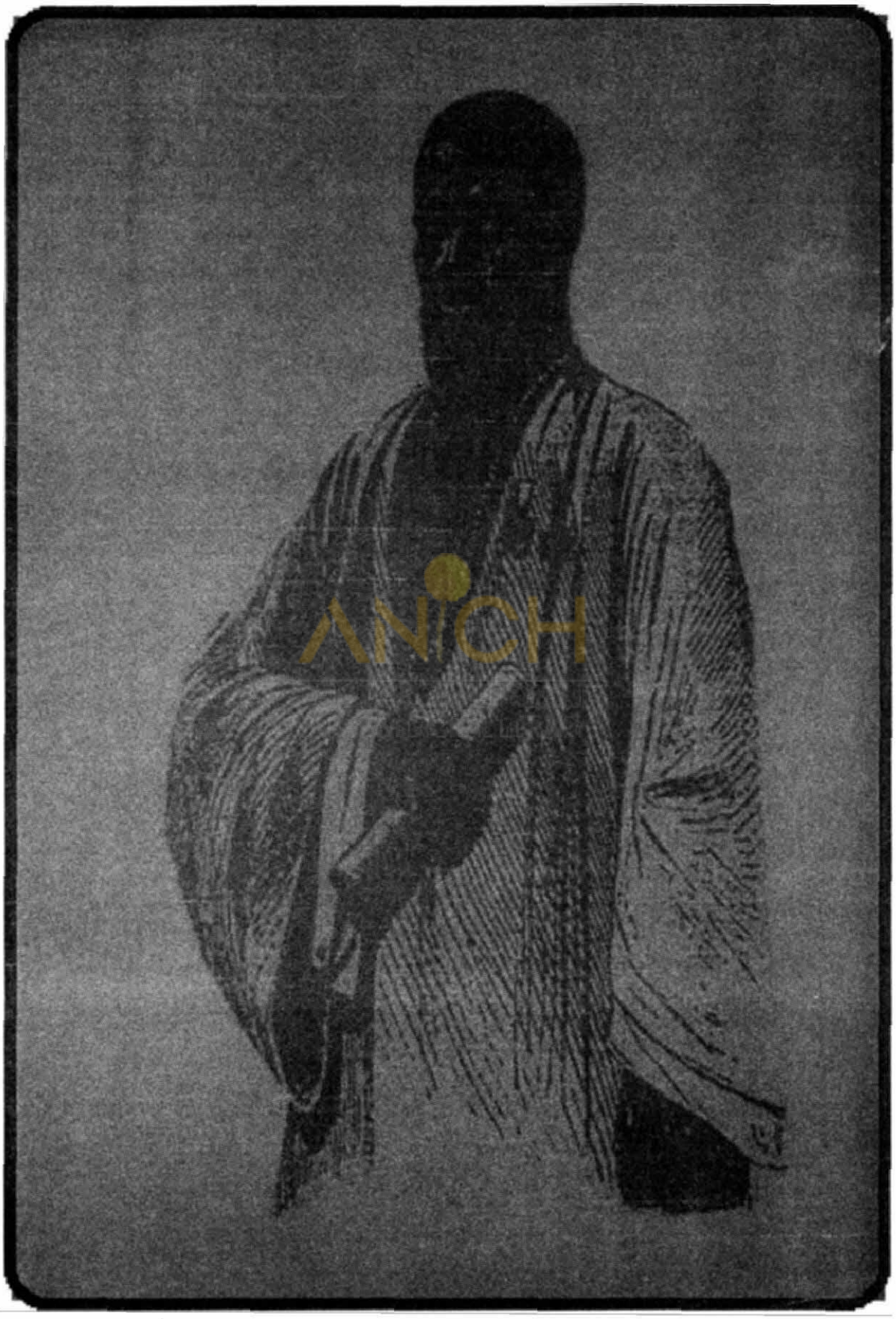

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

البيبليوغرافيا العامة

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

اختصارات

ت.: توفي

ج.: جزء

د.ت.: بدون تاريخ

ص.: صفحة

صص.: صفحات

ط.: طبعة

م.: ميلادي

مر. سا.: مرجع سابق

مص. سا.: مصدر سابق

هـ.: هجري

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

البيبليوغرافيا العامة

أولا. باللغة العربية

✓ ابن اسمه (سيدي أحمد)، **ذات ألواح ودسر**، مخطوط، نسخة الأستاذ سيدي أحمد بن أحمد سالم.

✓ ابن الحاج إبراهيم (سيدي عبد الله)، **صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمد غل**، تحقيق التجاني ولد عبد الحميد، منشورات وحدة المنارة للدراسات والبحوث والتحقيق، جامعة نواكشوط، 2016.

✓ ابن الفلالي (محمد عبد الله بن البخاري)، **العمران**، نسخة شخصية مرقونة مهداة من الأستاذ محمد بباه ناصر.

✓ ابن المحبوبي (محمذ بن أحمد)، **أدب الرحلة في بلاد شنقيط خلال القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين (الثامن والتاسع عشر الميلاديين)**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1995.

✓ ابن المحبوبي (محمذ بن أحمد)، **الرحلات الشنقيطية رباط للتثاقف والوصال (305-339)**، ضمن أعمال "**ندوة التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب العربيين ودور موريتانيا فيه**"، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، 1999.

✓ ابن الندى (محمد المصطفى)، **المخطوطات العربية القديمة في موريتانيا** (صص. 27-33)، *مجلة الموكب الثقافي*، اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، العددان، 2 و3، نواكشوط، 1995.

✓ ابن الهادي (سيدي المختار بن محمد عينين بن أحمد)، **إرشاد الضال إلى وجوب جهاد كوبولان وحرمة مساكنته المجبة للفسق والعصيان**، مخطوط، 20 صفحة بحوزتنا نسخة الأستاذ عبد الله ولد أحمد ولد الهادي.

✓ ابن بابه (محمد فال)، **الرحلة**، مخطوط رقم 2598، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

✓ ابـن بابـه (محمـد فـال)، **كتـاب التكملـة فـي تـاريخ إمـارتي البراكنـه والتـرارزه**، تحقيـق أحمـد ولـد الحسـن، تـونس، المؤسسـة الوطنيـة للترجمـة والتحقيق والدراسات-بيت الحكمة، قرطاج، 1986.

✓ ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار التراث، بيروت، 1968.

✓ ابـن جبيـر (محمـد بـن أحمـد بـن سـعيد)، **الرحلـة**، دار صـادر للطباعـة والنشر، بيروت، 1964.

✓ ابــن حامــد (المختــار) وهيموفســكي (آدم)، **الفهــرس المؤقــت للمخطوطــات العربيــة الموريتانيــة المحفوظــة فــي موريتانيــا**، نواكشــوط وستوكهولم، 1965-1966.

✓ ابـن حامـد (المختـار)، **موسـوعة حيـاة موريتانيـا**، الجـزء الثالـث عشـر (**المدلش**)، إشراف: محمدو محمدن أميّن وألريش ريبشتوك، مراجعة الأستاذ محمد يحيى ولد سيد أحمد وتصحيح ومقابلة أمين بن محمدن بن حامدن، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2013.

✓ ابن حامد (المختار)، **موسوعة حياة موريتانيا**، الجزء الثاني والثلاثون (**وفيات الأعيان**)، تحقيق سيد أحمد ولد أحمد سالم، أحمد مولود ولد أيده ومحمدو محمدن أمين، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2013.

✓ ابن حامد (المختار)، **موسوعة حياة موريتانيا**، الجزء الخامس عشر: (**إدوداي**)، إشراف: محمدو محمدن أميّن ومحمد ولد مولود ولد داداه وألريش ريبشتوك، مراجعة وتعليق: أحمدو بن اتّاه بن حمينَّ والراجل بن أحمد سالم، تصحيح ومقابلة أمين بن محمدن بن حامدن، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2013.

✓ ابـن حامـد (المختـار)، **موسـوعة حيـاة موريتانيـا**، الجـزء السـادس (**تجكانت**)، تصحيح ومقابلة: يحيى ولد البراء والحسين بن محنض، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2009.

✓ ابن حامد (المختار)، **موسوعة حياة موريتانيا**، الجزء السادس عشر (**بعض المجموعات الشمشوية**)، تصحيح ومقابلة: يحيى ولد البراء والحسين بن محنض، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2009.

✓ ابن حامد (المختار)، **موسوعة حياة موريتانيا**، الجزء السادس والعشرون (**بنو حسان**) والجزء الثلاثون (**ممالك السودان وأعلامهم**)، تصحيح ومقابلة: يحيى ولد البراء والحسين بن محنض، منشورات الزمن، الرباط، 2009.

✓ ابن حامد (المختار)، **موسوعة حياة موريتانيا، الحياة الثقافية**، الجزء 2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990.

✓ ابن حامد (المختار)، **موسوعة حياة موريتانيا**، جزء **إدوعيش**، تحقيق سيدي أحمد ولد أحمد سالم ومراجعة محمد ولد الدي، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2013.

✓ ابن حبت (سيدي أحمد)، **مهدية الحيارى إلى حكم من غلب على وطنه النصارى**،

✓ ابن حدمين (سيدي محمد)، "**الجد في اللعب: لعبة لكعب نموذجا**" (صص.163-182)، حوليات كلية الآداب بجامعة نواكشوط، العدد الرابع، 1993-1994.

✓ ابن خلدون (عبد الرحمان)، **المقدمة**، دار الجيل، بيروت، د.ت

✓ ابن طوير الجنة (الطالب أحمد)، **رحلة المنى والمنة**، تحقيق زينب بنت الطالب أحمد، جامعة نواكشوط، 1993.

✓ ابن مايابه (محمد حبيب الله)، **زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

✓ ابن محم بيد (محمد مين نحن)، **اكلام البظان والموروث الثقافي من عادات وتقاليد بني حسان**، وزارة الثقافة، نواكشوط، 2008.

✓ ابن منظور (جمال الدين محمد أبو الفضل)، **لسان العرب**، دار الفكر

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

للطباعة والنشر والتوزيع ودار صادر، الطبعة السادسة، بيروت، 1997.

✓ آبه بن خطور (محمد الأمين بن محمد المختار)، **أضواء البيان في شرح القرآن بالقرآن**، دار إحياء التراث، بيروت، 1996.

✓ أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله)، **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، مجلدان، الطبعة 2، دار الجيل، بيروت، 1988/1408.

✓ إزيد بيه (ولد محمد محمود)، **الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي**، المطبعة الوطنية، نواكشوط، 2001.

✓ آلوكاس، **ألعاب من العالم**، مطبعة المرأة، لايبزغ، 1973.

✓ أوفى بن أبي بكر، **علاجه** (أي علاج المرض)، **رسالة نثرية**، مخطوط.

✓ أوفى بن أبي بكر، **عمدة الطبيب**، مخطوط.

✓ أوفى بن أبي بكر، **قواعد التدبير**، مخطوط.

✓ أوفى بن أبي بكر، **ورقات**، أجوبة على تساؤلات طبية من الحاج بن الكتاب، مخطوط.

✓ ببكر سيره (حامد ولد)، **القادرية في موريتانيا بين قبول الاستعمار ورفضه (1850-1960)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب بنمسيك، المغرب، 2012.

✓ البراء (يحيى ولد)، **المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام غرب وجنوب غرب الصحراء**، 12 مجلدا، الناشر الشريف مولاي الحسن ولد المختار ولد الحسن، نواكشوط، 2010.

✓ البرتلي (أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي)، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (معجم تراجم العلماء في موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان)**، تحقيق وتعليق عبد الودود ولد عبد الله وأحمد جمال ولد الحسن، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، 2010.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

✓ بطرس (رزق الله)، **المسابقات والألعاب الصغيرة**، دار المعارف، القاهرة، 1970.

✓ بنت البرناوي (لعزيزة)، **المرأة البيظانية من خلال الأمثال الشعبية**، نواكشوط، 2010.

✓ بنت يحظيه (السالكة)، سوفله: **عرض لبعض الألعاب التقليدية الموريتانية**، جمعية ميجك لحفظ التراث الوطني، مكان النشر وتاريخه غير مذكورين.

✓ التركزي (محمد محمود بن التلاميد)، **الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية**، مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1319 هـ.

✓ التنبكتي (أحمد بابه)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد المحميد عبد الله الهرامه، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989.

✓ الجليدي (عبد القادر)، **التراث الشعبي: التوظيف والهوية**، ضمن أعمال ندوة التراث الشعبي ووحدة الأصل والهدف، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، 2005.

✓ جمانة (طه)، **موسوعة الأمثال الشعبية**، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، الخبر، السعودية، 1999.

✓ حسين (حسني محمود)، **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، 1983.

✓ خليفة (أحمد محمد)، **ألعاب الصبية والأطفال في السودان**، وزارة الثقافة والإعلام، الخرطوم، 1996.

✓ الدليشي (عبد اللطيف)، **من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة: الشيخ محمد أمين الشنقيطي**، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية العراقية، بغداد، ط.1، 1981.

✓ دمب (محمد ولد الميداح) **مقابلة** بتاريخ 25 مايو/أيار، نواكشوط، 2017.

✓ الزركلي (خير الدين)، **الأعلام: قاموس تراجم**، دار العلم للملايين، بيروت، 1990

✓ زمامه (عبد القادر)، **الرحلة المغربية صلة علم وحضارة**، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية* بفاس، العدد 8، 1986.

✓ الزمخشري (محمود بن عمر بن محمد بن عمر أبو القاسم الخوارزمي)، **المستقصى في أمثال العرب**، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 1925.

✓ الزيات (أحمد حسن)، "**كيف عرفت الشنقيطي**" (صص. 391-395)، *مجلة الأزهر*، المجلد 33، سبتمبر 1961.

✓ سكينة (إبراهيم بن عامر)، **دور اللعبة الشعبية في الحفاظ على الهوية الذاتية للطفل العربي في ظل إفرازات العولمة**، *مجلة الطفولة والتنمية*، العدد 18، المجلد الخامس، القاهرة، 2011.

✓ الشاهدي (الحسن)، **أدب الرحلة في المغرب**، دار عكاظ، 1990.

✓ الشنقيطي (أحمد بن الأمين)، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، القاهرة، مكتبة الخانجي/مصر ومؤسسة منير/موريتانيا، الطبعة 4، 1989.

✓ الشيخ سيدي الكبير (ابن المختار ولد الهيبة)، **الميزان القويم والصراط المستقيم**، مخطوط.

✓ الشيخ ماء العينين (بن الشيخ محمد فاضل)، **هداية من حارا في أمر النصارى**،

✓ الشيخ محمد المامي (ابن البخاري)، **كتاب البادية**، منشورات زاوية الشيخ محمد المامي، نواذيبو، موريتانيا، 2006.

✓ صالح (أحمد رشدي)، **الألعاب الشعبية والمهارات الجسمية والسيرك**، مجلة الفنون الشعبية، العدد 24، أغسطس 1988.

✓ الصباحي (أحمد عوض الله خليل)، **المهارات والألعاب الشعبية**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

✓ صمب (عامر)، **الهدية السنغالية من المرجان في العقود الأدبية للعربان**، منشورات المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء، داكار، 1975، جزءان (364 و401 صفحة).

✓ الصوفي (محمد ولد محمد الأمين)، **المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني**، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، 1406.

✓ طه (حسين)، **المجموعة الكاملة: الأيام**، المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني الطبعة الثانية، 1974.

✓ عبد الحي (محمد)، **مقدمة عن المحضرة**، نشر بدعم من مؤسسة العرفان بالمغرب وكرسي معهد العالم العربي في باريس، 2017.

✓ عياش (آلبير)، **المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط.1، 1985.

✓ فهيم (حسين محمد)، **أدب الرحلات**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 1989.

✓ الفيروزبادي (مجد الدين بن محمد بن يعقوب)، **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، 1983.

✓ الكتاني، **فهرس الفهارس**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

✓ كمال الدين (حسين)، **ألعاب الأطفال الغنائية**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1991.

✓ الكنتي (الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار)، **الرسالة الغلاوية**، مخطوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.

✓ اللحام (ماجد)، **الألعاب الشامية**، دار الفكر، دمشق، 1987.

✓ مجهول، الأرشيف الوطني الموريتاني، نواكشوط، الملف E1/8: **تقرير من الحاكم الفرنسي العام لغرب إفريقيا إلى وزير المستعمرات الفرنسي** يتعلق

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

بمهمة كوبولاني في منطقة الترارزَه بالجنوب الغربي الموريتاني (كانون الأول 1902).

✓ مجهول، المحضرة نت" موقع على الشبكة العنكبوتية،

✓ مجهول، **فهرس المخطوطات العربية في موريتانيا**، نشر بدعم من التعاون الألماني وبعناية أولرخ ريبشتوك، ورينير أوسوالد وأحمدو ولد عبد القادر، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 1988.

✓ مجهول، **فهرس مخطوطات المعهد الموريتاني للبحث العلمي**، نواكشوط، 1988.

✓ مجهول، **فهرس مخطوطات تيشيت**، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، الجزء الأول (517 صفحة) الجزء الثاني (421 صفحة)، نواكشوط، 2013.

✓ مجهول، **فهرس مخطوطات شنقيط ووادان**، إعداد أحمد ولد محمد يحيى وتحقيق أولرخ ريبشتوك، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1997.

✓ مجهول، **فهرس مخطوطات شنقيط**، منشورات المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث، نواكشوط، 2013.

✓ مجهول، **فهرس مخطوطات نعمة وولاتة (موريتانيا)**، بعناية أحمد ولد محمد يحيى وأولرخ ريبشتوك وإبراهيم شبوح، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2003.

✓ مجهول، **فهرس مخطوطات وادان**، منشورات المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث، نواكشوط، 2016.

✓ مجهول، **فهرس مخطوطات ولاتة**، منشورات المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 2014.

✓ مجهول، **فهرس مكتبة أهل الشيخ سيديا بمدينة أبي تلميت**، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1987.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

✓ المجيدري (كمال الدين محمذ)، **مبين الصراط المستقيم**، تحقيق آمنة بنت عبد الوهاب، جامعة نواكشوط، 1990.

✓ محمدو (محمدن أمين)، "**ابن المقداد ومهمته في *تكانت***" (صص. 86-121)، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، جامعة نواكشوط، العدد الخامس، نواكشوط، 1996.

✓ محمدّو (محمدن أميّن)، **المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)**، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب، 2001.

✓ محمدو (محمدن أمين)، **المحاضر الموريتانية (الجامعات البدوية المتنقلة)** (صص.339-361)، *مجلة التاريخ العربي*، العدد 22، الرباط، 2002.

✓ محمدو (محمدن أمين)، **حوض نهر السنغال فضاء ثقافيا ومجالا للتواصل** (صص.143-156)، *مجلة مصادر (كراسات التاريخ الموريتاني)*، العدد 4، جامعة نواكشوط، 2004.

✓ محمدو (محمدن أمين)، **وثائق من التاريخ البيضاني: نصوص فرنسية غير منشورة (ترجمة وتحقيق وتعليق)**، منشورات مركز الدراسات الصحراوية بجامعة محمد الخامس، الرباط (المغرب)، 2016.

✓ مسيليني (الهادي)، **الألعاب التقليدية في تونس (1705-1956)، دراسة إتنوغرافية وأنثروبولوجية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التراث، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2014.

✓ مصطفى (إبراهيم وآخرون)، **المعجم الوسيط**، المكتبة العلمية، طهران، بدون تاريخ.

✓ المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، 1906.

✓ مهران (إيمان)، **الألعاب الشعبية والهوية الكونية**، مكتبة الأنجلو

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

المصرية، القاهرة، 2012.

✓ الميداني (أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو الفضل النيسابوري)، **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية، إيران، 1987/1407.

✓ الناتي (محمد الأمين)، **الثقافة الشنقيطية: مقاربة نسقية**، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، الرباط، 2008.

✓ الناتي (محمد الأمين)، **الحياة العقلية في مدينة شنقيط خلال قرون ثلاثة قبل حلول الفرنسيين (1630-1930)**، بحث لنيل ديبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، الرباط، 1997.

✓ الناني (ابن الحسين)، **صحراء الملثمين: دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط**، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007.

✓ النحوي (الخليل)، **بلاد شنقيط، المنارة.. والرباط. عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

✓ الندى (محمد المصطفى)، **دور المحاضر في موريتانيا**، مذكرة تخرج، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط، 1986.

✓ الهاشمي (يحيى محمدن)، **شعر المقاومة الموريتانية ضد الاستعمار الفرنسي من 1854 إلى 1960**، دار التوزيع والنشر، القاهرة، 2013.

✓ ودادي (محمد محمود ولد)، **البرابيش**، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1986.

✓ الولاتي (محمد يحيى)، **الرحلة الحجازية**، تخريج وتعليق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ومعهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ط.1، 1990.

ANCH المكتبة الإلكترونية الصحراوية SAHRAWI VIRTUAL LIBRARY

✓ ولد اباه (محمد المختار)، **دراسات في تاريخ التشريع الإسلامي**، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981.

✓ ولد ابنو (موسى وآخرون)، **الحكايات والأساطير الشعبية الموريتانية، الأمثال والحكم الشعبية الموريتانية**، اللجنة الوطنية لجمع ونشر الثقافة الشعبية والمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، د.ت.

✓ ولد ابنو (موسى وآخرون)، **الحكايات والأساطير الشعبية الموريتانية، حكايات الحيوان**، اللجنة الوطنية لجمع ونشر الثقافة الشعبية والمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، د.ت.

✓ ولد ابنو (موسى وآخرون)، **الحكايات والأساطير الشعبية الموريتانية، حكايات الإنسان**، اللجنة الوطنية لجمع ونشر الثقافة الشعبية والمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، د.ت.

✓ ولد أحمد (المختار)، **الشعر السياسي الإصلاحي الموريتاني في القرن الثالث عشر** (الهجري)، مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، نواكشوط، 1984.

✓ ولد أحمدو (بكار)، **الأمثال الحسانية**،

✓ ولد اعلمبطالب (المصطفى)، **الأرستقراطية الدينية والأوضاع السياسية في موريتانيا في القرن الثالث عشر الهجري**، مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، نواكشوط، 1985.

✓ ولد الأمير (سيدي أحمد)، **العلاقات الثقافية الموريتانية السعودية**، *مجلة العرب*، العدد 29، يناير/فبراير 1994.

✓ ولد الأمير (سيدي أحمد)، **المجال الموريتاني: مقالات في التاريخ والثقافة**، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2014.

✓ ولد الأمير (سيدي أحمد)، **المقاومة الموريتانية والأتراك.. قراءة في علاقات المقاومة بالعالم الإسلامي**، يمكن الرجوع إليه عبر الرابط: (http://tawary.com/spip.php?article11312)

ANOH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

✓ ولد الحسن (أحمد جمال)، **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري. مساهمة في وصف الأساليب**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الطبعة الأولى، 1995.

✓ ولد الحسن (أحمد جمال)، **حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا** (صص. 5-17)، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، جامعة نواكشوط، العدد الأول، 1989.

✓ ولد الدي (سيد أحمد)، **شنقيط وإسهامها في الإشعاع الروحي والثقافي في المناطق المحيطة بها**، *مجلة التعليم*، المعهد التربوي الوطني، العدد 26، 1995.

✓ ولد السالم (حماه الله)، **صورة الشناقطة في المشرق العربي خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة**، بحث مرقون.

✓ ولد السالم (حماه الله)، **مراجعات أولية حول أوضاع الحجاز في الرحلات الشنقيطية** (صص.27-64)، مجلة الدارة، العدد الرابع، 1417.

✓ ولد السعد (محمد المختار)، **تعقيب** (صص.341-359) على بحث محمذ بن أحمد المحبوبي، **الرحلات الشنقيطية رباط للتثاقف والوصال** المشار إليه لاحقا.

✓ ولد السعد (محمد المختار)، **شربه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني**، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1993.

✓ ولد المامي (اعزيزي)، **موسوعة الأمثال الشعبية**، الأطلس، نواكشوط، 1998.

✓ ولد بيه (عبد الله ولد الشيخ المحفوظ)، "**المحاظر: مكانتها التاريخية ودورها المستقبلي المطلوب**" (صص.26-34)، ضمن: "**فعاليات الندوة الدولية الأولى حول التراث الثقافي الموريتاني**"، المطبعة السريعة، نواكشوط، 2000.

✓ ولد بيّه (محمد المحجوب)، **المقاومة السوننكيه للاستعمار في كيدي**

ماغه، منشورات مكتبة 21/15، نواكشوط، 2010.

✓ ولد حبت (سيدي أحمد)، **مهدية الحيارى إلى حكم من غلب على وطنه النصارى**، مخطوط بحوزتنا نسخة منه.

✓ ولد عبد الله (ددود)، "**دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا حتى نهاية القرن 18 الميلادي**"، *حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، جامعة نواكشوط، العدد الأول، 1989.

✓ ولد عبد الله (ددود)، **الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17 - 18م)**، منشورات مركز الدراسات الصحراوية بجامعة محمد الخامس، الرباط، 2015.

✓ ولد محمد الولي (محمد عبد الله)، **مكتبات شنقيط: دورها العلمي وإشعاعها الثقافي**، بحيث لنيل شهادة المتريز، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، 2008.

✓ ولد محمد يحيى (أحمد)، **المخطوطات العربية والإسلامية في دول الساحل** (صص. 34-44)، *مجلة الموكب الثقافي*، اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، العددان، 2 و3، نواكشوط، 1995.

✓ ولد مناه (عبد الرحمان)، **مختارات من الأدب الحساني والأمثال الشعبية**، نواكشوط، 2010.

✓ الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية - ودار الغرب الإسلامي، 13 مجلدا، 1401-1981.

✓ اليدالي (الشيخ محمد بن المختار بن ساعيد)، **نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا -أمر الولي ناصر الدين- رسالة النصيحة)**، تقديم وتحقيق محمذن ولد باباه، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1990.

ثانيا. باللغات الأعجمية:

✓ ANONYME, **Chroniques de Oualata et de Nema**, Traduit par Paul Marty, *Revue des Etudes Islamiques*, tome 1, Cahiers 3 et 4, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, 1927.

✓ ANONYME, **Chroniques de Tichit** (pp. 282-312), Traduit par Monteil Vincent, *Bulletin de l'IFAN*, n°1, tome 1, janvier 1939.

✓ ANONYME, **Chroniques de Tichit**, Traduit par Vincent Monteil, *Bulletin de l'IFAN*, n°1, tome 1, janvier 1939.

✓ ANONYME, **Rapport** du Commissaire du Gouvernement pour le Pèlerinage de la Mecque, 1956, Archives nationales du Sénégal, Série G, Sous-série 19G16, 6 pages avec une annexe.

✓ ANONYME,http://omar.ub.unifreiburg.de/index.php?id=databankfullview

✓ BLANCHET (Paul), **Rapport de mission en Adrar (Mauritanie), 1900**, 36 p., Centre des Archives d'Outre-mer, Aix-en-Provence, Série: Affaires Politiques, Carton 2711, Chemise n°4., (dossier Paul Blanchet).

✓ BOU EL MOGDAD (Doudou Seck), **Notes autobiographiques**", 35 p., (dossier Bou El Mogdad),

✓ BRAUDEL (Ferdinand), **Ecrits sur l'histoire**, Flammarion, Paris, 1984.

✓ CARSON (I. A.), Ritchie, **Deux textes sur le Sénégal 1673-1677**, Dakar, *BIFAN*, Série B, t.-XXX, n°1, 1968.

✓ CHASSEY (Francis de), **La Mauritanie 1900-1975**, l'Harmattan, 1984.

✓ DESIRE-VUILLEMIN (Geneviève), **La guerre de Char Bouba, Sahara Occidental. Fin du XVII^{ème} siècle** (pp. 20-25),

Le Saharien, n°56, 1er et 2ème trimestres, Paris, 1971.

✓ DOULS (Camille), "**Cinq mois chez les Maures nomades du Sahara Occidental**" (pp. 117-224), *Tour du Monde*, n°I, Paris, 1888.

✓ DUBIE (Paul), **Awfa wul Ababakkar, *al 'umda*. Poème sur la médecine maure** (pp. 38-66), *Bulletin de l'Institut français d'Afrique noire* (BIFAN), Dakar, 1943.

✓ DUBIE (Paul), **La vie matérielle des Maures**, Mémoires de l'IFAN, n°23, pp. 111-252, Dakar, 1953.

✓ FABERT (Léon), **Exploration au Sahara occidental** (Adrar 1891), ANFSOM, Série: Missions, Missions dans le pays des Maures (1889-1892), dossier Fabert.

✓ FABERT (Léon), **Projet de traité entre la France et l'Adrar**, ANFSOM, Série: Missions, Missions dans le pays des Maures (1889-1892), Carton 4, (dossier Fabert).

✓ FAIDHERBE (Louis), **Le Sénégal et La France dans l'Afrique Occidentale**, Paris, Hachette, 1889.

✓ FALL (Amadou), Commissaire du Gouvernement pour le Pèlerinage de 1954, **Rapport** du Chef de Bataillon FALL, Amadou, Archives nationales du Sénégal, Série G, Sous-série 19G16, 35 pages avec 8 annexes.

✓ Geneviève Desiré-Vuillemin, "**A propos d'un rapport de l'interprète Bou El-Mogdad sur sa mission dans l'Adrar en 1900**" (pp. 103-126), *Revue d'Histoire des Colonies*, n°39, Paris, 1952.

✓ GOURAUD (Colonel), **La pacification de la Mauritanie, journal des marches et opérations de la colonne de l'Adrar**,

SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

Paris, Emile Larose, sans date, 287 p.

✓ GRAF (Gunhild). ***Kitāb al-aʿdād al-musammāsullam al-ʿilmwa l-ādābwa-miʿrāğ al-hikma wa-faṣl al-ḫitāb***: EinemaurischeEnzyklopädie des islamischenWissensausdem 20. Jahrhundert, Ğuzʾ 1-6, von Ahmad b. Ahbaiyib, Vol I: Einleitung; Vol. II: Edition. Codices Arabiciantiqui 13/1-2. Wiesbaden: Harrassowitz, 2014.

✓ LABAT (Jean Baptiste, Le Père), **Nouvelle relation de l'Afrique occidentale**, Théodore le Gras et G. Cavalier, Paris, 1728, 5 volumes.

✓ LECOURTOIS (André), **Etude expérimentale sur l'enseignement islamique traditionnel en Mauritanie**, Entreprises et développement, 1978.

✓ LERICHE (Albert) et OULD HAMIDOUN (Moktar), **"Curiosités et bibliothèques de Chinguetti"** (pp 109-112), Notes Africaines, n°48, 1950.

✓ LYDON (Ghislaine), **On Trans-Saharan Trails. Islamic Law, Trade Networks, and Cross-Cultural Exchange in Nineteenth-Century Western Africa**, University UCLA, Californie, (Etats-Unis d'Amérique), 2008.

✓ MARTY (Paul) **Chroniques de Oualata et de Nema**, (Traduction), Librairie Orientaliste Paul Geuthner, *Revue des Etudes Islamiques*, tome 1, Cahiers 3 et 4,.

✓ MARTY (Paul), **L'Islam maure**, collection de la *Revue du Monde Musulman*, Ernest Leroux, 1916.

✓ MARTY (Paul), **L'Emirat du Trarza**, Paris, Editions Larose, 1919.

✓ MASSIGNON (Louis), **"Une bibliothèque saharienne"**,

ANCH SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

Revue du Monde Musulman, n°8, 1909.

✓ MISKE (Ahmed), **Jeux et jouets des enfants indigènes**, Archives Nationales de Mauritanie, Affaires Politiques, n°80, 20 octobre 1930.

✓ MOLLIEN (Gaspard Théodore), **Voyage dans l'intérieur de l'Afrique et aux sources du Sénégal et de la Gambie, fait en 1818 par ordre du Gouvernement français**, Imprimerie de Madame Veuve Courcier, Paris, 1820, 2 volumes.

✓ OULD MOHAMEDEN (Mohamedou), "**Les tentatives de pénétration française dans le Pays Maure à travers le rapport de mission de Bou El Mogdad en 1894 au Tagant**" (pp.79-99), *Maçadir, Cahier des sources de l'histoire de la Mauritanie*, Cahier n°1, Universités de Nouakchott et de Provence (Aix-Marseille-I), Aix-en-Provence, 1994.

✓ PIPY (Chirurgien de la Marine au Sénégal), **Notes sur l'état sanitaire et moral des populations maures et yolloffs qui habitent entre l'escale des Trarzas et Dagana** (pp. 374-387), *Revue Coloniale*, Paris, octobre 1851.

✓ REBSOCK (Ulrich), **Mauriche Literaturges**, band 1, Ergon verlag, 3 Volumens, 2001.

✓ REBSOCK (Ulrich), **Les fonds des manuscrits en Mauritanie: Impressions, expériences, perspectives personnelles**, communication inaugurale présentée au Colloque de Berlin sur **les Manuscrits mauritaniens**, septembre 2015, (sous presse).

✓ ROBERT (Paul), (sous la direction de), **Le Petit Robert 1, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française**, Paris, 1990.

ANCH SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

✓ SANKALI, **Rapport** du Commissaire du Gouvernement pour le Pèlerinage de 1953, Archives nationales du Sénégal, Série G, Sous-série 19G15, 30 pages avec 2 annexes.

✓ SOLEILLET (Paul), **Rapport à Monsieur le Ministre des Travaux Publics sur le voyage de Saint-Louis à l'Adrar**, décembre 1879-mai 1880, 154 p., Centre des Archives d'Outre-mer, Aix-en-Provence, Série: Missions, Carton 2: Missions et Voyages (dossier Paul Soleillet).

✓ TRAORÉ (Alioune), **Islam et colonisation en Afrique, Cheick Hamahoullah, homme de foi et résistant**, Paris, Maisonneuve & Larose, 1983.

✓ VALETTE (Paule), **Paysages Maures: des traces sur le sable**, pp.73-82.

✓ VINCENT (Monteil), **"Les manuscrits historiques arabo-africains"** (pp. 670-675), *Bulletin de l'IFAN*, t.XXVII, n°3, Dakar,1965 et pp. 531-543, t.XXVIII, n°4, Dakar, 1966.

ANCH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

المحتويات

التقديم..... 7
المقدمة العامة..... 11
النص الأول: الألعاب التراثية الحسانية (محاولة في التصنيف)..... 21
أولا. الألعاب التراثية..... 23
1- تعريفات وتحديات..... 23
2-الخصائص والمزايا..... 25
ثانيا. الألعاب التراثية الحسانية..... 26
1-مسرد أولي لبعض الألعاب التقليدية البيضانية:..... 26
2-جرد تصنيفي للألعاب التراثية الحسانية..... 30
3- عينة تمثيلية من الأمثال الشعبية البيضانية..... 43
النص الثاني: الأبعاد المعرفية والخلقية في المأثورات الشعبية البيضانية (قراءة في الأمثال الحسانية)..... 53
مضامين الأمثال الشعبية..... 56
1-في المفهوم والوظيفة..... 56
2- مجالات الاستعمال..... 58
أولا. في مجال الحياة الاجتماعية..... 59
ثانيا. في مجال الحياة الثقافية..... 62
ثالثا. في مجال التربية..... 64
رابعا. في المجال الاقتصادي..... 66
خامسا. في التكيف مع المحيط..... 68
سادسا. في تدبير الأمور أو سياسة الحياة..... 69

ANCH SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

النص الثالث: المكتبات الأهلية في موريتانيا وتحديات البقاء (مكتبات مدينة شنقيط نموذجا)..... 77

أولا. أسباب اختيار المكتبات الأهلية..... 80

ثانيا. المكتبات الأهلية: التعريف والنشأة..... 81

ثالثا. العناية بالمكتبات الأهلية 85

رابعا. المكتبات الأهلية أمام التحديات..... 92

خامسا. مكتبات مدينة شنقيط 95

سادسا. الحلول المقترحة..... 100

النص الرابع: مؤسسة المحضرة الموريتانية ومواجهة التوغل الفرنسي في المنطقة..... 109

أولا. المحضرة (التعريف والتصنيف)..... 111

ثانيا. المحضرة (النشأة والتطور)..... 116

ثالثا. السمات العامة للمحضرة..... 121

رابعا. الأدوار التي اضطلعت بها المحضرة 123

خامسا. التحديات الأساسية التي تواجه المحضرة..... 146

سادسا. التعليم المحضري ودوره في الظروف الحالية..... 149

النص الخامس: عمدة الطبيب: ملاحظات حول المنهج والرؤية (قراءة في مخطوط طبي موريتاني)..... 155

أولا. التقديم..... 157

1-المؤلف:..... 157

2-النص:..... 159

ثانيا. المضمون العلمي للنص..... 160

ثالثا. ملاحظات حول المنهج والرؤية..... 170

ANCH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

النص السادس: رحلة الحج جسر للتواصل الخليجي المغاربي (الرحلة الشنقيطية نموذجا).....177
أولا. تحديدات إجرائية.....179
ثانيا. مظاهر التواصل الخليجي الشنقيطي.....186
1-البعد المعرفي:.....186
2-البعد الاجتماعي/ السياسي:.....193
ملحقات (نماذج من وثائق متعلقة بالحج).....201
النص السابع: أسرة أهل ابن المقداد السينلويسية جسر للتواصل بين ضفتي نهر السنغال (دودو سك نموذجا).....211
نهر السنغال (الفصل والوصل).....213
أسرة أهل ابن المقداد.....214
من هو دودو سك؟.....216
أولا. ولد ابن المقداد المنفعل بالثقافة الموريتانية.....220
ثانيا. ولد ابن المقداد الفاعل في الثقافة الموريتانية.....225
البيبليوغرافيا العامة.....235
المحتويات.....255
الجزء الفرنسي.....1
Préface.....3
Introduction générale.....9

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

CHEMCHEWI qui constitue une composition rythmée de 1224 vers traitant de la vision que se fait l'auteur sur les maladies, leurs causes, leurs symptômes et leur traitement, sans oublier les devoirs du médecin et les codes déontologiques de sa profession.

Le **sixième** texte aborde les relations du Pays Maure avec ses origines arabes et islamiques à travers les *récits de voyage des pèlerins chinguitiens et leur place dans l'échange culturel entre le Mechreq et le Maghreb arabes*, comme domine propice à l'interpénétration culturelle et à l'échange du savoir et de la connaissance.

Le **septième** et ultime texte traite des relations et des liens qu'entretient cet espace maure avec son environnement africain, à travers la «*famille saint-louisienne EhelEbnou EL Meghdad et ses affinités culturelles et sociales avec les Maures*» sur les deux rives du Fleuve Sénégal, en mettant en relief certaines manifestations de cet échange culturel et social.

ANCH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

Professeur Mohamedou Meyine
Berlin, 30 juin 2017

durée des exercices.

Le **deuxième** texte, aborde, lui aussi, un élément très important de la culture des Maures, en l'occurrence, «*les contes populaires*». Cette étude porte sur la lecture des proverbes en *Hassaniya*, constituant ainsi un regard sur la culture populaire qui continue à souffrir, malgré, sa valeur patrimoniale appréciable, de l'iniquité et de la marginalisation.

Le **troisième** texte est réservé à un autre élément important de la culture maure symbolisé par «*les bibliothèques familiales*» et leurs réservoirs de manuscrits. A cet effet, nous avons choisi l'une des bibliothèques historiques de Chinguitty, comme échantillon de ce patrimoine manuscrit, en essayant de souligner les dangers naturels et humains qui le menacent et de formuler un certain nombre de propositions susceptibles de sauvegarder ce trésor documentaire qui se trouve, aujourd'hui, dans une situation déplorable.

ANCH
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

Le **quatrième** texte s'est intéressé à la position des Mahadhra vis-à-vis de la colonisation. Cette institution traditionnelle a joué des rôles multiples et a su donner à cette contrée située à l'extrémité du Monde Musulman, une réputation qui fait honneur à notre région saharienne. Ces établissements d'enseignement traditionnel ont intéressé des chercheurs et des spécialistes mauritaniens et étrangers, qui leur ont donné de multiples appellations élogieuses (Universités nomades ambulantes, Universités à dos de chameaux, académies des tentes etc.…).

Le **cinquième** texte, constitue un exemple de la contribution des Maures dans le domaine des «*pratiques médicales*», à travers la lecture de Oumdetou Ettabib d'Awfa Ould Eboubecrine

dans le patrimoine de Cheikh Mohamed ELMAMI et particulièrement son Kitab ELBADIYA.

Nous avons choisi pour cet ouvrage, sept communications variées que nous avons présentées ces dernières années, dans des colloques scientifiques organisés en Tunisie, au Maroc, en Algérie et en Mauritanie.

Comme chacune de ces présentations traitait d'un élément de la culture maure où se croisait avec lui, constituant, à ce titre, une espèce de fil conducteur qui les relie, nous avons jugé, opportun, de les rassembler au sein d'un même ouvrage, espérant qu'il soit utile aux chercheurs et aux spécialistes, ou offrir, à tout le moins, aux lecteurs ordinaires de quoi occuper leur temps libre.

Dans la présentation de ces textes, nous n'avons retenu comme critère de classement que la date de présentation des communications du plus récent au plus ancien.

Nous n'avons pas, par ailleurs, introduit de modifications significatives, ni sur le fond ni sur la méthodologie, nous limitant, souvent, à de petites retouches formelles et des corrections, pour l'essentiel.

Le **premier** texte traite «*des jeux populaires chez les Maures*», qui constituent, souvent, un domaine négligé, bien qu'il constitue une partie importante de la culture de la société et de son patrimoine populaire, reflet éloquent de son mode de vie. Les jeux consolident, également, la cohésion sociale et jouent un rôle déterminant dans le développement des capacités physiques et intellectuelles. Ils offrent, enfin, l'opportunité de se livrer aux loisirs, de pratiquer les arts d'agréments, et de se défouler afin d'oublier les soucis quotidiens ou les fuir, au moins, pendant la

cadre de ses recherches sur les migrations en provenance de la Péninsule arabique, mais à notre grand regret cet éminent chercheur nous a quittés avant de nous délivrer les résultats de ces approches certainement très utiles, exigeantes et soutenues dans ce domaine.

Au sujet du nomadisme, le travail le plus important, incontestablement, demeure la thèse de doctorat qu'a préparé et soutenue notre collègue le Professeur Abdel Weddoud OULD CHEIKH(1), mais malgré l'importance de ce travail académique avisé, aucune traduction en langue arabe n'a vu le jour jusqu'à présent et ce malgré les tentatives du feu le Professeur Jemal OULD HACEN ; même les efforts(2) de notre collègue Seyid OULD BAH n'ont pas aboutis.

Enfin on peut citer aussi le travail de notre collègue Mohamed OULD BARNAOUI dans le cadre de ses fouilles(3)

ANCH
المكتبة الرقمية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

(1) Abdel Wedoud OULD CHEIKHN **Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale. Essai sur quelques aspects du tribalisme**, thèse pour le doctorat en sociologie, Université Paris-V, **1985**, **3** t., **1056** p.

(2) il s'agit de:

- ✓ عبد الودود ولد الشيخ، "**السلطة والقرابة. تقديم للنظريات الانقسامية**"، ترجمة السيد ولد أباه، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد الثالث، **1991**، صص. **9-26**.
- ✓ "**القرابة والسلطة. قراءة نقدية في النظرية الانقسامية**"، ترجمة السيد ولد أباه، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد **4**، **1994**، صص.**59 76**.

(3) محمد أحمد البرناوي، **الخلاف والاختلاف والاستخلاف أو العرف والشرع والسلطة السياسية في الجنوب الغربي للغرب الإسلامي بداية القرن التاسع عشر: محاولة حفر حول فكر الشيخ محمد المامي (1780-1865)**، منشورات معهد سيدي عبد الله ولد الفاضل، نواكشوط، **2010**.

plan culturel en imposant leur langue arabe (*Hassaniya*) dans les contrées situées entre Ouad *Draa* au nord et le Fleuve Sénégal au sud, et entre l'Océan Atlantique à l'ouest et l'Azawad à l'est.

Vu la domination du dialecte *Hassaniya* dans cette zone, nous ne considérons pas que ce concept se limite uniquement à l'appartenance ethnique, car les Hassanophones (ceux qui connaissent et parlent le *Hassaniya*) peuvent avoir des origines ethniques non arabes.

C'est pourquoi, nous avons intégré dans ce large espace hassanophone, la famille sénégalaise d'Ehel Ebnou El Moughdad.

Il faut noter ici que des chercheurs mauritaniens se sont intéressés aussi à certains aspects de l'histoire culture de cet espace. C'est le cas du Dr Deddoud OULD ABDALLAHI qui a consacré l'essentiel de ses travaux aux aspects culturels et intellectuels.(1)

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

Le Dr Mohamed Lemine OULD NATI a étudié également la culture chinguitienne dans le cadre de ses approches systémiques.(2)

Cependant les études consacrées au nomadisme sont restées rares. On peut citer particulièrement quelques aperçus (signaux) chez feu Mohamed OULD MOLOUD OULD DADDAH, dans le

---

(1) Nous pouvons citer à titre d'exemple son remarquable travail:

ددود ولد عبد الله، **الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17 - 18م)**، منشورات مركز الدراسات الصحراوية بجامعة محمد الخامس، الرباط (المغرب)، **2015**.

(2) محمد الأمين الناتي، **الثقافة الشنقيطية: مقاربة نسقية**، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس (كلية الآداب والعلوم الإنسانية)، الرباط، **2008**.

suffit de cela, consacrant le plus clair de son temps, à la Bibliothèque nationale, à lire et à reproduire».

Notre troisième érudit n'est autre que Mohamed Lemine ELJEKENNI dit Abba OULD KHTOUR (m. 1973) qui a su, par sa notoriété scientifique, gagner de l'estime et de la considération dans le *Hijaj*.

Il a, en effet, été professeur distingué au sein de l'Université Islamique *d'El Medina ElMounawara*, et, en même temps, membre du Conseil des grands érudits en Arabie Saoudite, et, également, membre du Conseil fondateur de la Ligue du Monde Islamique.

Le Cheikh Atiya Mohamed Salem, Juge de la Cour de Droit Musulman de Médine, qui a été l'un de ses disciples, parle de lui, en ces termes: «*Il a enseigné des générations successives portant sur des milliers d'étudiants sortant des facultés et instituts de l'Administration Générale de Riadh et de l'Université Islamique de Médine. A sa mort, il avait dans chaque institution gouvernementale, dans le pays, l'un de ses fils, et dans chaque pays musulman une de ses missions diplomatique*».

La dernière précision se rapporte au sous-titre de notre ouvrage (*Eléments de la culture Hassaniya*).

En effet, le *Hassaniya* est la langue dominante (la plus utilisée) dans la zone depuis que les tribus arabes s'y sont installées en étendant leur influence sur le territoire à partir du 16ème siècle, selon les sources historiques.

Même si ces nouveaux venus n'ont pas su organiser politiquement l'espace Maure sous t'autorité d'un pouvoir central unifié, ils ont quand même réussi à atteindre leur objectif sur le

qui symbolisent, à nos yeux, les meilleurs exemples pour illustrer la production d'un patrimoine «savant» -par l'écriture et par l'enseignement- qui a la particularité d'être réalisé sous la tente et à dos de chameaux. Ces exemples, classés par ordre chronologique de la date de décès, sont:

Le premier de ces illustres hommes est le Cheikh Mohamed El Mamy El-CHEMCHEWI (m. en 1292/1875), qui s'est illustré, entre autres choses, par la tentative d'adapter les préceptes de la Charia à la réalité de la vie quotidienne des bédouins en interprétant le Droit Musulman qui est né et a agrandi dans les cités, pour l'accommoder aux spécifiés de la *Badiya* écrivant, à cet effet, son célèbre livre «Kitab El Badiya" au titre évocateur, dans ce domaine.

Le deuxième symbole est représenté par le Cheikh Chinguitien Mohamed Mahmoud OULD T'LAMID El-ETARKOUZI (m. 1322/1904) qui n'a eu aucune difficulté à officier au sein de *Jamee El Azhar*, et a été, de surcroît, en dépit des nombreuses polémiques qu'il a suscitées et de son caractère spécial, l'objet du respect et de la considération au Mechreq arabe et même en au-delà (Empire ottoman, Suède).

D'ailleurs, Taha HOUSSEIN dit de lui dans son livre *El Eyame*: «*les grands étudiants de l'époque disaient qu'ils n'ont jamais trouvé un homme semblable au Cheikh Chinguitien dans le domaine de la récitation par cœur de la grammaire et du Hadith orale et écrit*».

Ils se rappelaient, d'ailleurs, «*qu'il disposait d'une bibliothèque, particulièrement riche en manuscrits et en ouvrages imprimés, en Egypte et en Europe, et qu'il ne s'est pas du tout*

L'orientaliste français René BASSET, par exemple, affirme que les Maures possèdent une culture littéraire bien supérieure à celle dont dispose la moyenne de la population algérienne.

L'explorateur français Camille DOULS précise, quant à lui, que «*les Maures font de leurs tentes de véritables académies*», et ajoute, même, «*qu'ils se livrent à l'écriture arabe*» en insistant sur le fait que «*la connaissance et l'intelligence qui caractérisent ces bédouins ont atteint un niveau d'évolution tout à fait paradoxal, par rapport aux musulmans résidant en Afrique du Nord*».

Le Professeur allemand Ulrich REBSTOCK, spécialiste célèbre de la littérature mauritanienne parle de cette production littéraire en ces termes: «*Presque cinq siècles furent nécessaires pour la produire. Dans une région qui échappa toujours aux démarcations politiques et ethniques, des élites de quarante générations cherchèrent à normaliser la vie matérielle et spirituelle par le mot écrit. Les résultats de ces efforts historiques se sont conservés dans une répartition quantitative singulière. Pendant mes voyages jusqu'aux confins du pays, j'ai pu voir de mes propres yeux dans plus de 300 bibliothèques de contours très différents une œuvre manuscrite qui, selon mon estimation, dépasse de loin les trente mille ouvrages. De plus, le nombre inconnu des œuvres dérobées à la connaissance publique ou anéanties par le sable ou l'ouguiya augmente la quantité totale du trésor culturel dont la société mauritanienne a recueilli l'héritage mais sans le sauvegarder*».

Nous terminerons ce témoignage destiné à étayer le phénomène relatif à cette *Badiya* «savante» en citant trois noms

modes culturels, folkloriques et populaires, mal appréciés, et souvent perçus comme étant une culture «triviale» ou même «vulgaire» ?!.

Dans l'entendement des chercheurs, la *Badiya* est perçue comme étant un environnement impropre à la production d'un mode lettré capable de fournir un patrimoine intellectuel et, à plus forte raison, favoriser l'épanouissement scientifique, artistique et littéraire.

Il n'en demeure pas moins que la réalité des zones nomades, en Mauritanie –et leurs extensions d'expression *Hassaniya*– depuis le 17ème siècle, et la réalité des cités islamiques, dans la même période, démontrent que la «*Badiya*» n'est pas, toujours, synonyme de l'ignorance et de l'illettrisme, et que la cité ne veut pas dire, nécessairement, l'épanouissement et la promotion de la connaissance.

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

Cette zone a dû, très probablement, être la première région nomade où les habitants s'adonnent à la culture «savante», par l'enseignement et par l'écriture, car elle a abrité, selon le chercheur feu Mohamed Ould Maouloud OULD DADDAH: «*l'unique communauté de bédouins qui possède des traditions culturelles écrites alors que les autres nomades vivent, en général, aux dépens des citadins…*»

Cet avis est étayé par certains chercheurs étrangers qui ont sillonné la région lorsqu'ils ont souligné la particularité des habitants de ce Sahara par rapport aux autres nomades, notamment, par la pratique répandue de certains aspects de la culture «savante», constituant ainsi un paradoxe par rapport à ce qui est, généralement, connu, en la matière.

Introduction générale

C'est avec un grand plaisir que nous mettons entre les mains des chercheurs et des lecteurs initiés, une étude relative aux manifestations ayant trait à l'histoire culturelle des Maures, dans l'espoir de dépoussiérer quelques aspects de cet important patrimoine culturel.

«**Introduction à l'histoire de la nomadité (Eléments de la culture *Hassaniya*)**», est le titre que nous avons choisi pour cet ouvrage.

Nous ne nous appesantirons pas, outre mesure, sur la définition de la culture, qui a fait couler beaucoup d'encre, et a été commentée et analysée par des auteurs ayant plus de notoriété que nous. Nous traiterons, en conséquence, plus de la culture de la nomadité.

Notons, d'ailleurs, que la plupart de ceux qui s'intéressent à la culture l'ont classifiée en culture «savante» et culture «populaire» en partant du principe que la culture «savante» est celle qui a la capacité de produire un patrimoine écrit. Ce qui veut dire que ceux qui en assurent la paternité disposent, déjà, d'un niveau culturel et cognitif permettant d'accéder à l'écriture et à la création, dans les domaines de la culture et de la science.

Quant à la culture «populaire», les spécialistes qui l'ont étudiée, ou à tout le moins, leur majorité, considèrent que ceux qui la pratiquent n'ont pas de traditions écrites, et que leur niveau culturel et cognitif, déjà réduit, se limite à l'usage de certains

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

Introduction générale

SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

des valeurs positives de tolérance et d'ouverture d'esprit, par ces temps de menaçante crispation religieuse et communautaire.

Ould Cheikh. Pr Abdel Wedoud

ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

Cette suggestion "anti-héroïque" pourrait aussi s'accompagner d'un appel à multiplier les illustrations, les données factuelles et quantifiées, pour sortir du flou, parfois joliment habillé de littérature, que cultivent volontiers les historiens du dimanche, célébrant les "héros" qu'il leur plait d'élire au gré des circonstances politiques du présent.

L'ouvrage de Mohamedou w. Meyine «**Introduction à l'histoire de la nomadité (Eléments de la culture *Hassaniya*)**», que nous avons sous les yeux me semble tout à fait aller dans le sens de cette "histoire professionnelle" dont la Mauritanie attend toujours qu'elle s'affirme et s'autonomise.

Mohamedou n'a certes pas choisi des sujets qui lui sont indifférents. Mais **l'histoire culturelle** au sein de laquelle s'inscrivent les chapitres qu'il propose ici, de par la nature même de ses objets, de par le tempo plus lent de formation et de transformation desdits objets, passablement à l'écart du bruit et de la fureur des "journées" et des "batailles", des compétitions nobiliaires à la majoration des statuts ou à la légitimation par quelque ascendant "héroïque", cette histoire culturelle donc, se prête à un traitement plus serein, moins exposé aux tentations épiques qui hantent les hagiographies intéressées des modernes juges de l'histoire.

Les sept chapitres de cet ouvrage, avec l'iconographie et l'effort de mise en forme quantifiée dont ils s'accompagnent, offrent une belle contribution à l'histoire culturelle de l'espace mauritanien et de ses alentours. Une contribution qui, par sa volonté de précision et de clarté, s'inscrit résolument dans le champ d'une recherche exigeante sans renoncer à faire signe vers

Préface du Professeur Abel Wedoud Ould Cheikh

Il semblerait que la construction d'un savoir historique qui se voudrait scientifique, c'est-à-dire d'un savoir historique prenant toute la distance qu'il faut à l'égard des quêtes mémorielles étroitement associées aux intérêts matériels et symboliques de l'historien, doive passer par quelque forme de "déshéroïcisation", de dépersonnalisation, de l'histoire, au profit d'un regard plus ample et/ou plus précis sur les objets que l'historien se donne à traiter. Particulièrement dans un univers où le champ professionnel de l'histoire, faute d'institutions professionnelles et d'un marché du produit professionnel individualisés, continue à souffrir de l'envahissante concurrence des amateurs de tout poil, mettant à profit la faiblesse, comme diraient les bourdieusiens, d'un "droit d'entrée" dans le champ de l'histoire infiniment moins élevé que celui qui donnerait un accès légitime au titre de mathématicien ou de chimiste. On peut suggérer que, dans ce type de marché indifférencié, il pourrait être salutaire pour les historiens de passer d'une lecture hégélienne de l'histoire – Napoléon, vainqueur d'Iéna en 1806, et qualifié par Hegel "d'âme du monde à cheval" - à la vision d'un Braudel prenant pour "héros" *La Méditerranée et le monde méditerranéen*, dans la fameuse thèse que l'on sait.

Préface

Professeur Mohamedou Meyine

Introduction à l'histoire de la nomadité

(Eléments de la culture Hassaniya)

Préface du Professeur
Abdel Wedoud Ould Cheikh

البروفيسور محمدُّو أميَّن

- ✓ أستاذ جامعات ومنسق دكتوراه التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط العصرية حاليا.
- ✓ له كتب وبحوث ودراسات عديدة منشورة داخل موريتانيا وخارجها.
- ✓ حاصل على التأهيل الجامعي (HDR)، ميزة مشرف جدا، جامعة محمد الخامس، الرباط (**2011**) وشهادة الدكتوراه في التاريخ (ميزة مشرف جدا مع توصية بالنشر)، جامعة تونس الأولى، تونس (**1997**).
- ✓ شغل وظائف علمية وثقافية متعددة (منسق شعبة ماستر التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، مدير مركز الدراسات والبحوث حول الغرب الصحراوي، أمين عام اللجنة الموريتانية للتربية والثقافة والعلوم، مدير مخبر الدراسات والبحوث التاريخية بجامعة نواكشوط، عضو لجنة التعليم العالي في موريتانيا، عضو لجنة التوجيه بمشروع صيانة وتثمين التراث الثقافي الموريتاني).
- ✓ شارك في أزيد من **100** ملتقى علمي وثقافي وقدّم **58** بحثا في ندوات علمية.
- ✓ قدّم دروسا ومحاضرات في جامعات ومراكز بحث متعددة (موريتانيا، تونس، المغرب، مصر، ليبيا، ألمانيا).

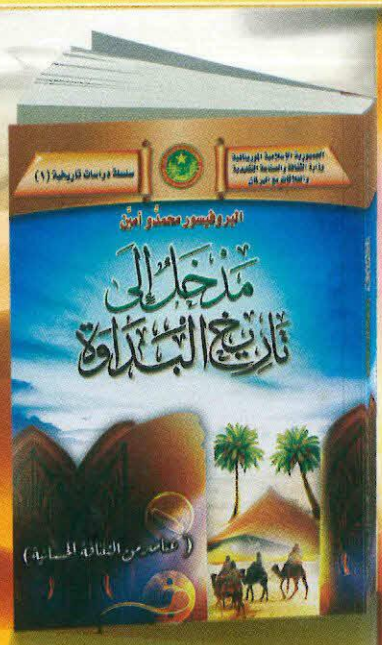

ISBN 978-2-37700-115-6
9 782377 001156